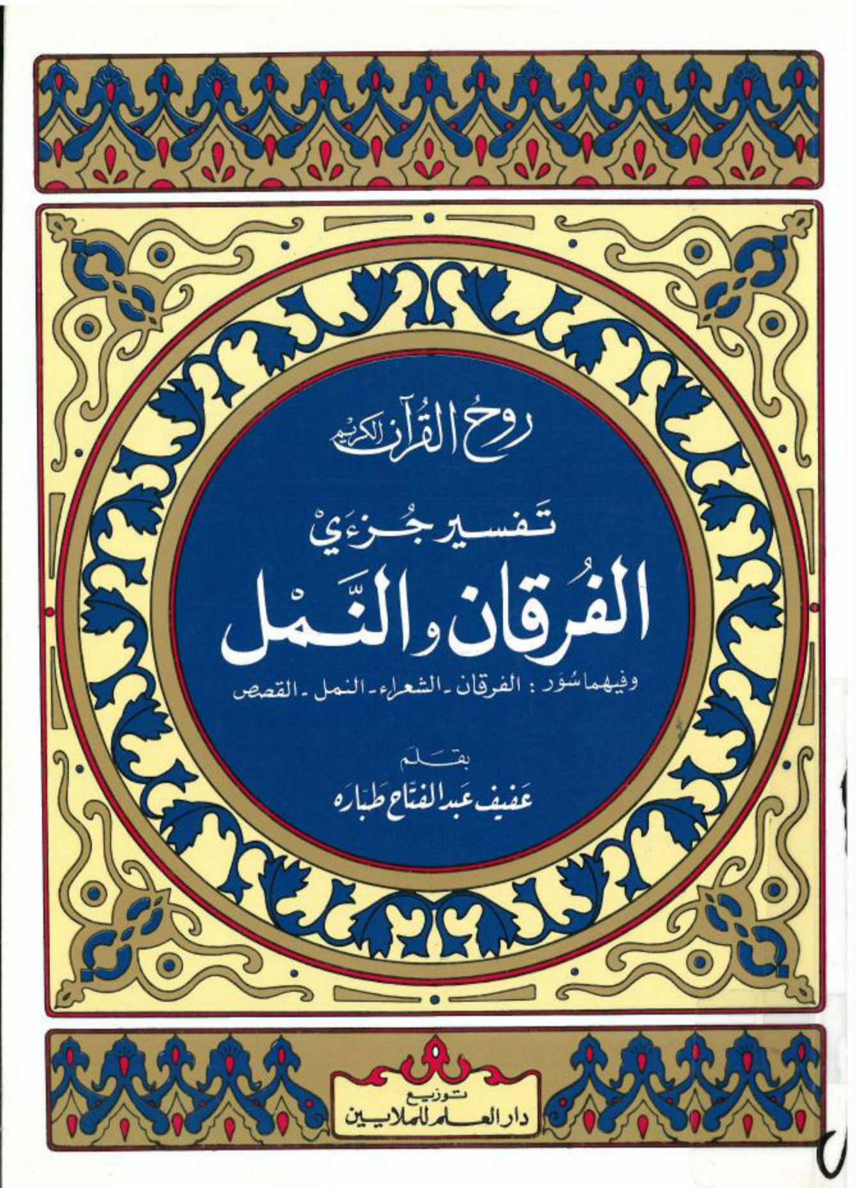

روح القرآن الكريم
تفسير جزءي
الفرقان والنمل
وفيهما سور : الفرقان - الشعراء - النمل - القصص
بقلم
عفيف عبد الفتاح طباره
توزيع
دار العلم للملايين

روح القرآن الكريم

تفسير جُزْءَيْ

الفُرقان والنَّمْل

وفيهما سُوَر : الفرقان - الشعراء - النمل - القصص

بقلم
عفيف عبد الفتّاح طبّاره

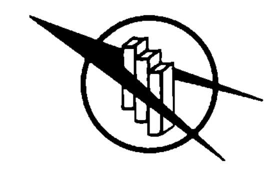
دار العلم للملايين

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس - خلف ثكنة الحلو
ص.ب ١٠٨٥ - تلفون : ٣٠٤٤١٥ - ٨١٦٦٣٩
برقيا : ملايين - تلكس : ٢٣١٦٦ ملايين

بيروت - لبنان



الطبعة الأولى

كانون الثاني (يناير) ١٩٩٢

توضيح

هذا التفسير الذي بين أيدينا يجمع الجزء التاسع عشر والجزء العشرين. فالجزء التاسع عشر يبتدىء بالآية ٢١ من سورة الفرقان وينتهي بالآية ٥٥ من سورة النمل. أما الجزء العشرون فيبتدىء بالآية ٥٦ من سورة النمل وينتهي بالآية ٤٥ من سورة العنكبوت.

ولما كنا حريصين على تفسير السور كاملة في كل جزء إتماماً للفائدة لهذا فسرّنا سورة الفرقان كاملة في الجزء التاسع عشر، أما في الجزء العشرين فقد تركنا تفسير الآيات من سورة العنكبوت إلى الجزء الذي سبق أن فسرناه وهو الجزء الحادي والعشرون.

وقد ارتأينا تسمية هذين الجزءين باسم السورة التي يبتدىء بها كل جزء أي جزء الفرقان وجزء النمل.

ولا بد من الإشارة إلى أن هذه التسمية ليست معهودة في كُتب التفسير وإنما جرى العرف بها لاحقاً بين الناس على تداول الأجزاء باسم «جزء عم» و«جزء تبارك» إلى غير ذلك من أسماء الأجزاء المعروفة بأوائل استهلال سورها، وقد سمّيتُ هذين الجزءين باسم السورة التي يبتدىء بها كل جزء ليميزه القراء عن غيره من الأجزاء.

سُورَةُ الفُرْقَانِ

هذه السورة تذكر تفرُّد الله بالربوبية والملك لهذا الكون والردّ على كفار العرب ومعتقداتهم الباطلة حيث كانوا يعبدون ما لا ينفعهم ولا يضرهم.

وتبيّن السورة اعتراضات الكفار على نبوة محمد ﷺ بحجة أنه بشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ويطلبون، تعنتاً، ملائكة تبلّغهم رسالة الله.

وتذكر السورة بعض مظاهر القيامة وأحوال الكفار فيها وندمهم حيث لا ينفع الندم، ومعاناتهم أشدّ أنواع العذاب مع توبيخهم وتقريعهم، بينما يكون المتقون في جنة الخلد حيث يقاسون ألوان النعيم.

وتذكر السورة تعنّت المشركين وشبهاتِهم على القرآن وسخريتهم برسول الله محمد وتكذيبه وادعاءهم بأنه افترى القرآن من عند نفسه وأعانه عليه قوم آخرون.

وتبين السورة ما أصاب الأمم السابقة من هلاك وعذاب من جراء كفرهم وتكذيبهم برسل الله كفرعون وقومه، وقوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الرس وقوم لوط.

وفي هذه السورة دعوة إلى التأمل في بعض المظاهر الطبيعية التي تشهد بعظمة الله وتفرّده بالخلق والإيجاد وفضله على الناس مما يوجب عبادته وحده وعدم إشراك أحد معه في العبادة.

وتختتم هذه السورة بذكر صفات عباد الله الذين يحوزون رضاه ويستحقون نعيم الجنة في الآخرة.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا (١)
ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ
فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا (٢) وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ
ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا
وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا (٣) وَقَالَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ
فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا (٤) وَقَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا

شرح المفردات

تَبَارك: تعالى الله وتعاظم وتكاثر خيره.

الفُرقان: القرآن، وسُمّي بذلك لأنه يفرق بين الحق والباطل.

عبده: المقصود به رسول الله محمد ﷺ.

للعَالَمِينَ: للإنس والجن.

نَذِيراً: مخوفاً من عذاب الله للكافرين والعصاة.

فَقَدَّرَهُ تقديراً: فهيأه لما يصلح له ويليق به.

نُشوراً: بعثاً للأموات أحياء في الآخرة.

إِفْكٌ آفْتَراهُ: كذب اختلقه.

زُوراً: كذباً.

أساطير الأَوّلين: ما سطره الأولون من الأكاذيب والخرافات.

اكتَتَبَها: أمر بكتابتها.

فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾

شَرح المفردات

تُمْلى عَلَيْه: تُلقى عليه وتُقرأ ليحفظها.

بُكْرةً وأَصِيلاً: صباحاً ومساء.

جَنَّةٌ يأْكُلُ مِنْها: بستان يأكل من ثماره.

رجُلاً مَسْحُوراً: غلب السحر على عقله فاختلّ.

ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثالَ: ذكروا لك هذه الأقاويل العجيبة الجارية مجرى الأمثال لغرابتها.

فلا يستطيعون سَبِيلاً: فلا يجدون طريقاً إلى الحق.

سُورَةُ الفُرْقَانِ

ايضــاح و دروس

تستهل هذه السورة بتقديس الله وبيان أن رسالة محمد جاءت لكافة البشر، مع بيان تفرّد الله بالمُلك وأنه لا ولد له ولا شريك:

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلعَالَمِينَ نَذِيراً. الذي له مُلْكُ السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي المُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾ (١-٢).

تبارك: هذه اللفظة وصف لعدة كمالات لله وهي بمعنى: تقدّس وتعالى وقيل: تبارك صيغة تفاعل من البركة وهي كثرة الخير، أي تزايد خيره سبحانه وتكاثر.

فالله سبحانه الذي اختص بهذه الأوصاف هو الذي نَزَّل الفرقان، والفرقان هنا المراد به القرآن، والفرق: الفصل بين الشيئين، وكل ما فرّق به بين الحق والباطل فهو فرقان، أي أن القرآن فارق بين الحق والباطل، وبين الحلال والحرام.

هذا الوصف للقرآن بأنه فرقان يراه المتمعن في كل آية من آياته، فلا ترى في القرآن هزلاً، ولا إسفافاً في المعنى، ولا باطلاً من القول، بل كله جدٌّ يتمحور حول عبادة الله وحده، والدعوة إلى الإيمان بالآخرة، والتزوّد لها بالأعمال الصالحة، مع بيان مكارم الأخلاق والترغيب في التحلي بها مع تشريعات شهد بعدالتها علماء القانون في أمم الغرب.

فالله نزّل الفرقان ﴿عَلَى عَبْدِهِ﴾ والمراد به محمد ﷺ وهذا الوصف له بالعبودية لله لتشريفه، والتنبيه على أن رسول الله إلى خلقه لا يكون إلاّ عبداً لله، وهذا ردٌّ على النصارى الذين أسبغوا صفة الألوهية على عيسى

عليه السلام. ولقد أنزل الله القرآن على رسوله محمد ﴿لِيَكُونَ للعَالَمِين نَذِيراً﴾ والعالمين: هم الإنس والجن، والنذير: هو الرسول من عند الله المحذِّر والمخوِّف عباد الله من عاقبة الكفر والظلم والانغماس في معاصي الله وما يترتب عليها من عقابه، فالرسول محمد بهذا النص جاء للناس جميعاً ولم يأتِ لقومه فقط كما كانت رسالة الأنبياء قبله.

وذلك الذي نزّل القرآن على رسوله محمد ﷺ هو الله جل شأنه ﴿الَّذي لَهُ مُلْكُ السَّموات وَالأَرْضِ﴾ الذي له سلطان السموات والأرض ينفّذ في جميعها أمره وقضاءه إيجاداً وإحياء وإماتة وأمراً ونهياً حسبما تقتضيه مشيئته، فمن كان كذلك كان على أهل مملكته أن يطيعوه ولا يعصوه ﴿وَلَمْ يتَّخِذْ وَلَداً﴾ وهو سبحانه لم يكن له ولد وهذا تكذيب للمشركين الذين قالوا: الملائكة بنات الله، والنصارى الذين قالوا: المسيح ابن الله، واليهود الذين قالوا: عُزَيْر ابن الله ﴿وَلَمْ يَكُن لَهُ شَرِيكٌ في الْمُلْكِ﴾ تكذيب أيضاً لمن كان يضيف وصف الألوهية إلى الأصنام ويعبدها من دون الله من مشركي العرب ﴿وَخَلَق كُلَّ شيءٍ﴾ وخلق الله سبحانه كل شيء فأخلصوا له العبادة ـ أيها الناس ـ دون غيره ﴿فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾ فسوّى كل ما خلق وهيأه لما يصلح له فلا خلل في المخلوقات ولا فوضى.

والأمثلة على ذلك كثيرة لا تحصى، منها، إن نسبة الأوكسجين توجد عادة في الهواء بنسبة ٢١ بالمئة، فلو كان الأوكسجين بنسبة ٥٠ بالمئة مثلاً فماذا يحدث؟ إن جميع المواد القابلة للاحتراق في العالم تصبح عرضة للاشتعال لدرجة أن أول شرارة من البرق تصيب شجرة لا بد أن تلهب الغابة.

ومنها: أن الأوكسجين يمتصه كل كائن حيواني بينما يلفظ ثاني أوكسيد الكربون الذي يبني النبات تكوينه منه، فلو كانت هذه المقايضة غير قائمة فإن الحياة الحيوانية أو النباتية كانت تستنفد في النهاية كل الأوكسجين

أو كل ثاني أوكسيد الكربون وحينئذ يذوي النبات ويموت الحيوان.

ومنها: أن الحشرات ليست لها رئتان كما للإنسان، ولكنها تتنفس عن طريق أنابيب، وحين تنمو الحشرات وتكبر لا تقدر تلك الأنابيب أن تجاريها في نسبة تزايد حجمها... وبفضل جهاز تكوين الحشرات وطريقة تنفسها لم يكن في الإمكان وجود حشرة ضخمة، ولولا وجود هذا الضابط الطبيعي لما أمكن وجود الإنسان على ظهر الأرض، وتصور إنساناً يلاقي دبوراً يضاهي الأسد في ضخامته، أو عنكبوتاً مثل هذا الحجم.

هذه أمثلة معدودة وهناك مئات ومئات الأمثلة ذكرها علماء الطبيعة تبين الأسرار التي أودعها الله في هذا الكون، وتدبيره المحكم فيه، وتظهر أبعاد هذه الآية: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شيء فَقَدَّرَهُ تَقْديراً﴾.

ثم ينتقل القرآن إلى الرد على كفار العرب ومعتقداتهم الباطلة وافتراءاتهم في حق رسول الله محمد ﷺ:

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلاَ يَمْلِكُونَ لِأنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعاً ولا يَمْلِكُونَ مَوْتاً ولا حَيَاةً ولا نُشُوراً. وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إنْ هَذَا إلاَّ إفْكٌ افْتَرَاهُ وَأعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً. وَقَالُوا أسَاطِيرُ الأوَّلِينَ اكْتَتَبَها فَهِي تُمْلى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأصِيلاً. قُلْ أنْزَلَهُ الَّذي يَعْلَمُ السِّرَّ في السَّمٰواتِ وَالأرْضِ إنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ (٣-٦).

فهؤلاء الكفار العرب اتخذوا من غير الله الذي له ملك السموات والأرض ﴿آلِهَةً﴾ وهي الأصنام التي كانوا يعبدونها ﴿لا يَخْلُقُونَ شَيئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ وهذه الأصنام لا تخلق أي مخلوق كان، والإلٰه يجب أن يكون قادراً على الخلق والإيجاد، بل هذه الأصنام هي مخلوقة بمعنى أنها مصنوعة ومنحوتة بأيدي البشر. ﴿ولا يَمْلِكُونَ لأنْفُسِهِم ضَرًّا ولا نَفْعاً﴾

وهذه الأصنام التي يعبدونها لا تملك دفع الضر عن أنفسها ممن أرادها بضرّ، ولا تستطيع أن تجرّ النفع لنفسها، فكيف هي بالأحرى تستطيع دفع الضر وجلب النفع لغيرها، وبهذا المفهوم سقط الحافز لعبادتها ﴿وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتاً ولا حَيَاةً ولا نُشُوراً﴾ وهذه الأصنام لا تملك إماتة حي، ولا إحياء ميت، ولا بعثه حيًّا بعد مماته.

﴿وَقَالَ الَّذين كَفَرُوا إنْ هَذَا إلَّا إفْكٌ ٱفْتَرَاهُ﴾ وقال هؤلاء الكافرون بالله الذين اتخذوا من دونه آلهة: ما هذا القرآن الذي جاءنا به محمد إلّا كذب وبهتان اختلقه محمد من عند نفسه ونَسَبه إلى الله ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُون﴾ وأعان محمداً على هذا الكذب بعضُ اليهود ﴿فَقَدْ جاءُوا ظُلْماً وَزُوراً﴾ فقد أتوا بالظلم والكذب، والظلم هنا هو وصفهم الشيء في غير موضعه حيث نسبوا هذه التهمة الباطلة إلى محمد ﷺ وهو البريء منها، هذه التهمة التى ألصقها كفّار العرب بمحمد ﷺ وهي أنه مدّعٍ للنّبوة وأنه اختلق القرآن وَنَسَبَهُ إلى الله زوراً وبهتاناً، هي تهمة خطيرة باطلة لأن النبوة لا يقوم على ادعائها كذباً إلّا رجل واسع الأطماع، جريء على الله تكتنف حياته المآثم، فهل كان محمد من هذا الصنف؟ لا، فقد كان على جانب عظيم من الاستقامة ومكارم الأخلاق، حتى لقد سماه قومه الصادق الأمين، فلم تُعرف عنه خصلة ذميمة، ولا سلوك شائن، ولو عُرِفَ عن محمد ﷺ أنه يتلقى القرآن من أحد من اليهود لنقل ذلك أتباعه الذين لم يتركوا شاردة ولا واردة في حياته إلّا ودوّنوها في كتب السيرة، والأحاديث الشريفة، هذا مع العلم أن مدة نزول القرآن هي ثلاث وعشرون سنة وهي مدة طويلة كافية لفضح محمد لو كان يتلقى القرآن من أحد.

ثم إن محمداً كان أمّيًّا لا يقرأ ولا يكتب، ولم يشاهد في منزله أو خارجه قبل النبوة أو بعدها أنه كان يستعمل قرطاساً أو قلماً في تأليف شيء أو تدوينه.

ونضيف إلى ذلك بأن القرآن جاء بأفصح أسلوب من الكلام، وأبلغ عبارة، بينما اليهود هم من الأعاجم لا يتقنون اللغة العربية ولا ينطقونها نطقاً سليماً.

وكلمة أخيرة نقولها: إن القرآن اشتمل على أكمل ما يعرفه رجال الدين في عصره وبعد عصره، فقد اشتمل على أحكام وتشريعات لا يمكن أن تكون مستمدة من أحد، فالقرآن خالف اليهود في كثير مما جاء في كتبهم، وصحح الأباطيل التي ألصقوها بأنبيائهم، وعاب عليهم أفعالهم، ووصفهم بأنهم حرَّفوا وبدَّلوا بالتوراة التي بين أيديهم، وهي أمور لا يمكن أن يقولها يهودي في دينه، ولو فعل فإنه لا يسلم من عقاب ملته.

ونعود إلى متابعة الآيات فنرى الكفار يضيفون تهمة أخرى إلى القرآن وهي قولهم: ﴿وَقَالوا أَسَاطِيرُ الأَولين اكْتَتَبَها﴾ وأساطير الأولين هي خرافات وأكاذيب الشعوب السابقة، فالنبي في زعمهم أَمَرَ بكتابة هذه الأساطير بواسطة أحد الكتّاب لأنه كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب. إنها تهمة باطلة لا تحتاج إلى ردّ لأن القرآن اشتمل على حقائق الحياة، ورسم للأمم والأفراد طريق الخلاص من المشاكل والنزاعات بينهم، وأتى بالتشريعات العادلة في محيط الأسرة والجماعة. ودعا إلى عبادة الله وحده، فهل هذه الأمور وغيرها التي جاء بها القرآن هي من أساطير الأولين، لا، ولا يقول بذلك عاقل أبداً.

وهذه الأساطير في زعمهم ﴿فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ﴾ فهي تقرأ عليه ليحفظها ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ أي صباحاً ومساءً ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذي يَعْلَمُ السِّرَّ في السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ﴾ قل يا محمد لهؤلاء الذين اتهموك بالكذب إن الذي أنزل القرآن هو الله الذي يعلم كل سرٍّ خفي في السموات والأرض ﴿إنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ فهو سبحانه غفور لمن تاب رحيم بعباده المؤمنين.

ويتابع القرآن فيذكر اعتراضات الكفار على نُبوة محمد ﷺ:

وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لولا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيكُونَ مَعَهُ نَذِيراً. أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحوراً. آنظُر كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً. تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِن ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَكَ قُصُوراً﴾ (٧-١٠).

فالله يذكر ما قاله الكفار: ﴿وقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ أي ما شأن هذا الرسول الذي يأكل الطعام كما نأكل نحن، وسموا محمداً رسولاً استهزاء وسخرية لأنهم كانوا لا يعتقدون بأنه رسول الله ﴿وَيَمشي في الأَسْوَاقِ﴾ ويرتاد الأسواق لكسب عيشه كما يفعل سائر الناس ﴿لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً﴾ أي هلاّ أنزل الله إليه ملكاً من السماء يساعده على تبليغ رسالة الله ويكون شاهداً على صدق ما يدعيه ﴿أَوْ يُلْقى إِلَيْهِ كَنْزٌ﴾ أو يأتيه كنز من السماء فيكفيه داعي العمل فينفق منه ما يحتاج إليه ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ أو يجعل له حديقة يقتات من ثمارها ﴿وَقَالَ الظَّالِمُون إن تَتَّبِعُون إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً﴾ وقال الكافرون الذين ظلموا أنفسهم بالكفر: ما تتبعون إلا رجلاً مسحوراً عقله ـ يقصدون محمداً ـ فهو يهذي بما لا حقيقة له ﴿انْظُر كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ﴾ أي تعجب يا محمد من وصف هؤلاء لك بتلك الأوصاف الجارية لغرابتها مجرى الأمثال فتارة يقولون عنك شاعر، وتارة ساحر، وتارة مجنون ﴿فَضَلُّوا فلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ فضلوا عن الحق فلا يجدون طريقاً إليه.

﴿تَبَارَكَ الَّذي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذَلِكَ﴾ أي تعالى الله وتكاثر خيره فهو الذي إن شاء جعل لك في الدنيا خيراً من ذلك الذي اقترحوه ﴿جَنَّاتٍ تَجْري مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أي لو شاء الله لأعطاك في الدنيا حدائق تسير في جنباتها الأنهار لا حديقة واحدة كما اقترحوا ﴿وَيَجْعل لَكَ

قُصُوراً﴾ ويجعل لك قصوراً مشيدة تسكن فيها. إنها الحكمة الإلّهية في أن يكون رسوله إلى الناس من البشر يصطفيه من بين خلقه فيعيش بين قومه متخلقاً بالأخلاق والتكاليف الشرعية التي يبلّغها الله إليه فيكون بشخصه مثالاً كاملاً للعقيدة والشريعة التي يحملها فيسهل على قومه تقليده، ولو كان ملكاً من الملائكة ما فكروا في تقليده لأنهم يشعرون بأن طبيعته غير طبيعتهم، ولم يرضَ الله لرسوله أن يكون له كنز، ولا أن تكون له جنة يأكل منها، لأنه أراد أن يكون قدوة كاملة لأمته ينهض بتكاليف الرسالة الإلّهية وهو في الوقت نفسه يسعى لرزقه كما يسعى سائر الناس، فلا يعترض أحد يعيش على كده فيقول: رسول الله مكفيّ الحاجة لا يعاني هموم العيش وأتعابه ومن ثمَّ فرغ لعقيدته وتكاليف شريعته فلم يَعُقْهُ عائق مما أعاني.

بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ

شـرح المفـردات

سَعِيراً: ناراً شديدة الاشتعال.

تَغَيُّظاً: إظهار صوت الغيظ.

زَفيراً: أرسل نفَسَه ممدوداً من غيظ.

مُقَرَّنين: مقرونة أيديهم إلى أعناقهم بالأغلال.

دَعَوْا هُنَالِك ثُبوراً: دعوا على أنفسهم بالهلاك.

الذِّكر: ما ذُكِر به الناس على ألسنة أنبيائهم من المواعظ.

قوماً بوراً: قوماً هالكين أو فاسدين.

فما تستطيعون صرفاً: فما يستطيع الكفار دفع عذاب الله عن أنفسهم حين ينزل بهم.

وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ۞ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۗ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾

شرح المفردات

فتنة: ابتلاء ومحنة.

وَعَتَوْا عُتُوًّا كبيراً: تجاوزوا الحد في الظلم والطغيان.

ويقولون حِجْراً محجوراً: أي تقول الملائكة للمجرمين: حراماً محرماً عليكم البشرى يوم القيامة.

وقَدِمْنَا: عمدنا وقصدنا.

هبَاء: التراب الدقيق في الهواء الذي يُرى في ضوء الشمس.

مَقِيلًا: المكان الذي يستريح فيه الإنسان وقت القيلولة وهي نصف النهار.

الغمام: السحاب.

يوم يَعَضُّ الظالم على يَدَيْهِ: أي يوم يندم الظالم ندماً شديداً.

سَبِيلًا: طريقاً، وهو طريق الحق.

خَلِيلًا: صديقاً وحبيباً.

تَابع سُورَة الفُرقان

ويتابع القرآن فيبين مصير الكافرين ومصير المتقين في الآخرة:

بَلْ كَذَّبوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمن كَذَّبَ بالسَّاعَةِ سَعِيراً. إذَا رَأَتْهُم مِنْ مَكانٍ بَعيدٍ سَمِعوا لَهَا تَغَيُّظاً[1] وَزَفيراً[2]. وَإِذَا أُلقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنين دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبوراً. لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبوراً وَاحِداً وَادْعُوا ثُبوراً كَثِيراً. قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الخُلْدِ التي وُعِدَ المتَّقُون كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيراً. لَهُم فِيهَا مَا يَشَاءُون خَالِدِينَ كَان عَلَى رَبِّكَ وَعْداً مَسْئُولاً﴾ (١١-١٦).

فالله سبحانه يقول: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بالسَّاعَةِ﴾ بل كَذَّب هؤلاء الكفار بالقيامة وبَعْثِ الله للأموات أحياء للحساب والثواب والعقاب. وهذا التكذيب منهم هو الدافع لهم لإنكار نبوّتك يا محمد والتعلّل بهذه المطالب ليصرفوا الناس عن اتّباعك والتصديق بنبوتك ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّب بالسَّاعَةِ سَعِيراً﴾ وهيأنا لمن كذب بالقيامة ناراً ملتهبة يُعذبون بها ﴿إِذَا رَأَتْهم مِنْ مَكَانٍ بَعيدٍ﴾ إذا رأت هذه النار الكافرين من مكان بعيد ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً﴾ سمعوا صوت غليان هذه النار وتوقدها الشديد كصوت المتغيظ وصوت الزفير ﴿وإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً﴾ وإذا أُلقي هؤلاء المكذبون بالقيامة في النار في مكان ضيق منها يتناسب مع جرمهم، والمكان الضيق الملتهب بالنار يوحي بشدة العذاب لأن النار تكون محصورة مما يزيد في شدة التهابها ﴿مُقَرَّنينَ﴾ أي مصفدين بالسلاسل والأغلال قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبوراً﴾ الثبور: الهلاك، أي دعوا طالبين تعجيل هلاكهم ليستريحوا من هول العذاب وشدته ﴿لا تَدْعُوا اليَوْمَ ثُبوراً وَادْعُوا ثُبوراً كبيراً﴾ أي يُقال لهم توبيخاً: لا تطلبوا هلاكاً واحداً بل اطلبوه مِراراً

---

(١) تغيظاً: التغيظ إظهار الغيظ والغضب.

(٢) زفيراً: الزفير هو الصوت الناشيء عن إخراج النفس من الجوف حزناً أو غضباً.

فلن تجدوا خلاصاً مما أنتم فيه.

صورة مرعبة يرسمها القرآن لعذاب الآخرة ليرتدع عن غيه كل منكر للثواب والعقاب في الآخرة الذي أرخى العنان لشهواته وإجرامه ظناً منه أن الحياة الدنيا هي غاية المطاف وأن لا حياة بعد هذه الحياة يحاسب عليها بما اقترفت يداه.

﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الخلْدِ﴾ أي قل يا محمد لقومك الكافرين على وجه التقريع والتوبيخ أذلك العذاب في الآخرة خير أم نعيم الجنة الخالدة ﴿التي وُعِدَ المتَّقُونَ﴾ التي وَعَدَ الله بها من آتقى عذابه في الدنيا بطاعته فيما أمره وفيما نهاه ﴿كَانَت لَهُم جَزَاءً ومَصِيراً﴾ كانت تلك الجنة للمتقين جزاء على أعمالهم ومرجعاً يصيرون إليه ﴿لَهُم فيها ما يشَاءُون خَالِدِينَ﴾ لهم في الجنة ما يشاءون من ألوان النعيم ماكثين فيها أبداً بلا انقطاع ولا زوال ﴿كَانَ عَلَى ربِّك وَعْداً مَسْئُولاً﴾ وكان هذا النعيم وعداً من الله لهم على طاعتهم إياه في الدنيا وإجابة لدعائهم الذي سألوا به ربهم في الدنيا: ﴿ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة﴾.

ثم يخبرنا الله عما يقع يوم القيامة من تقريع للكفار لعبادتهم غير الله سبحانه:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُم وَمَا يَعْبُدون مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُم أَضْلَلْتُم عِبَادي هَؤُلاء أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ. قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ ينبغي لنا أن نَتَّخِذَ مِنْ دُونِك مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِن مَتَّعْتَهُم وآباءَهُم حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْماً بُوراً. فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُون صَرْفاً ولا نَصْراً وَمَنْ يَظْلِم مِنْكُم نُذِقْهُ عَذَاباً كبيراً﴾ (١٧-١٩).

فالله سبحانه يقول: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرهم وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي واذكر لهم يا محمد للعظة يوم يجمع الله المشركين للحساب يوم القيامة مع

من عبدوهم في الدنيا من غير الله كعيسى وَعُزَيْر والملائكة وغيرهم من المعبودين ﴿فَيَقُول أَأَنْتُم أَضْلَلْتُم عِبَادي هَؤُلاءِ﴾ فيقول الله تعالى للمعبودين تقريعاً لمن كان يعبدهم: أأنتم دعوتم هؤلاء إلى عبادتكم ﴿أم هُمْ ضَلُّوا السَّبيلَ﴾ أم هم ضلّوا طريق الهدى باختيارهم فعبدوكم ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ أي قال المعبودون تعجباً مما قيل لهم: تنزهت يا رب عن الشركاء ﴿مَا كَانَ يَنْبَغي لَنَا أَن نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ أي ما كان يحقّ لنا أبداً أن نطلب من غيرك وليًّا ينصرنا ويتولى أمرنا فكيف مع هذا ندعو أحداً أن يعبدنا دونك، فإننا عبيد لك فقراء إليك ﴿وَلَكِن مَتَّعْتَهُمْ وآباءَهُم﴾ ولكنك يا رب متعتهم ومتعت آباءهم بالنعم ووسعت عليهم الرزق وأطلت لهم العمر ﴿حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ﴾ حتى غفلوا عن ذكرك ونسوا ما أنزلته إليهم على ألسنة رسلك من الدعوة إلى عبادتك وحدك وأنك لا شريك لك ﴿وَكَانُوا قَوْماً بُوراً﴾ أي هالكين بسبب كفرهم لا خير فيهم.

ثم يُقال للمشركين تقريعاً لهم: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾ أي لقد كذبكم من عبدتموهم وزعمتم أنهم لكم أولياء وأنهم يقرّبونكم إلى الله بعبادتكم إياهم ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُون صَرْفاً ولا نَصْراً﴾ فما تملكون دفعاً للعذاب عنكم ولا الانتصار لأنفسكم من هذا البلاء النازل بكم ﴿وَمَنْ يَظْلِم مِنْكُم نُذِقْهُ عَذَاباً كَبيراً﴾ أي ومن يظلم منكم نفسه في الدنيا ـ أيها الناس ـ بالشرك بالله والكفر والطغيان فإننا نعذبه عذاباً كبيراً في الآخرة وهو عذاب النار.

ثم يعود بنا القرآن إلى الحديث عن رُسُل الله، وعن تعنّت الكافرين وعنادهم وبطلان أعمالهم:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ المُرْسَلِينَ إلاَّ إِنَّهم لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ في الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً. وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الملائِكَةُ أو نَرى رَبَّنا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا

في أَنْفُسِهِم وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبيراً. يَوْمَ يَرَوْنَ الملائِكَةَ لا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً. وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً. أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾ (٢٠-٢٤).

فالله سبحانه يقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ المرْسَلِينَ﴾ أي وما أرسلنا قبلك يا محمد أحداً من الرسل لهداية قومه ﴿إلاَّ إِنَّهُم لَيَأْكُلونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ في الأَسْوَاقِ﴾ إلاّ إنهم كانوا بشراً يأكلون الطعام ويحتاجون إلى التغذي ويمشون في الأسواق للتكسب والتجارة وليس ذلك يقدح في سلوكهم ومنصبهم فإن الله جعل لهم من السمات الحسنة والصفات الجميلة والأقوال الفاضلة والمعجزات الباهرة ما يستدل به كل ذي عقل على صدق ما جاءوا به من عند الله، وهذا جواب على قول المشركين من قبل في شأن محمد: مالِ هذا الرسول يأكل الطعام ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُم لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ والفتنة: هي البلاء والاختبار والامتحان فالله جعل الدنيا دار ابتلاء واختبار وامتحان للناس بعضهم ببعض فالمريض يقول: لِمَ لَمْ أُجعل كصحيح الجسم، والأعمى يقول لِمَ لَمْ أُجعل كالبصير وهكذا كل صاحب آفة. فصحيح الجسم ممتحن بالمريض فعليه أن لا يضجر منه ولا يحقره. والغني ممتحن بالفقير فعليه أن يواسيه ولا يسخر منه. والفقير ممتحن بالغني فعليه ألاّ يحسده ولا يأخذ منه إلاّ ما أعطاه. والفتنة: تأتي بمعنى الإيذاء والمحنة والبلاء، فبعض الناس من طبعهم البغي والعدوان على حقوق الغير لمنافعهم الذاتية، وكثير من الناس يقابلون الإحسان بالعقوق، والعقوق إيذاء للمحسن. ثم عقّب القرآن على ذكر الفتنة قوله: ﴿أَتَصْبِرُون﴾ الاستفهام هنا بمعنى الأمر أي اصبروا، وقد يراد بالاستفهام على حقيقته بمعنى: جعل الله بعضكم لبعض فتنة لينظر هل يحصل منكم صبر فيجازيكم عليه أم لا تصبرون على ذلك ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾ وعد كريم من الله لرسوله محمد بالأجر الجزيل لصبره على ما يلقاه من الأذى

من قومه، فهو سبحانه وتعالى بصير بأحواله، مع مزيد تشريف له بإضافته إلى اسمه (ربك). هذا وقد كان محمد ممتحناً بالحسد من أشراف قومه حيث جاء في القرآن على لسانهم: ﴿لَوْلا أُنْزِلَ هَذَا القُرآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ القَرْيَتَيْنِ عَظيم﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ وقال المشركون الذين لا يخافون لقاء الله ولا يخشون عقابه ﴿لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الملائِكَةُ﴾ أي هلاَّ أنزل الله علينا الملائكة فتخبرنا أن محمداً صادق فيما يَدّعي أنه رسول الله وأن ما جاءنا به صدق ﴿أو نَرَى رَبَّنَا﴾ فيخبرنا بذلك ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَروا في أَنْفُسِهم وَعَتَوْا عُتُوًّا كبيراً﴾ أي والله لقد دخلت الكبرياء إلى نفوسهم حيث تفوهوا بهذه الكلمات، وتجاوزوا الحد في الظلم والطغيان إلى أقصى غاياته ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الملائِكَةَ لا بُشْرى للمُجْرمينَ﴾ أي يوم يرى المشركون الملائكة رؤية ليست على الوجه الذي طلبوه بل على وجه آخر، يرونهم عند الموت حين تنزل لقبض أرواحهم، أو يرونهم يوم القيامة، ولكن لا تبشرهم بالنعيم كما تبشّر المتقين بل تخبرهم بما يُعدّ لهم من العذاب ﴿وَيَقُولونَ حِجْراً مَحْجوراً﴾ وتقول الملائكة للمجرمين: حرام محرم أن تكون لكم البشرى اليوم حين رأيتمونا.

﴿وَقَدِمْنَا إلى مَا عَمِلُوا مَنْ عَمَلٍ﴾ وعمدنا إلى ما عمل هؤلاء المجرمون من عمل صالح ﴿فَجَعَلْناهُ هَبَاءً[١] مَنْثُوراً[٢]﴾ أي فجعلناه باطلاً لأنهم لم يعملوه رغبة في رضاء الله لأنهم لم يؤمنوا به، وإنما عملوه

---

(١) الهباء: هو الذي يرى كهيئة الغبار إذا دخل ضوء الشمس من كوّة إلى غرفة مظلمة يحسبه الناظر غباراً وهو ليس بشيء تقبض عليه الأيدي أو تمسه. وقيل: الهباء هو ما تسفيه الرياح من التراب أو الغبار أو الرماد.

(٢) منثوراً: مفرقاً. فالله لم يكتف بتشبيه أعمالهم بالهباء حتى وصفها بأن متفرقة متبددة فهنا تشبيه بليغ لبطلان أعمالهم وعدم نفعها.

للشيطان وحبًا للظهور وللسمعة، مثال ذلك ما كان يعملونه في الدنيا من صلة رحم، وإغاثة ملهوف وإكرام ضيف ومنٍّ على أسير وغير ذلك من مكارمهم التي لو عملوها مع إيمانهم بالله مبتغين بها وجهه لنالوا ثوابها وأجرها منه ﴿أَصْحَابُ الجنَّةِ يَوْمَئِذٍ﴾ أهل الجنة وهم المؤمنون بالله الذين أطاعوه وانتهوا عن نواهيه في يوم القيامة ﴿خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا﴾ هم في خير مكان يتمتعون ويستقرون فيه في الجنة ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾ وأحسن مأوى ومنزلاً، والمقيل مصدر قيلولة وهي الاستراحة في نصف النهار عند شدة الحر.

ويتابع القرآن فيذكر بعض مظاهر القيامة وأحوال الكفار فيها، وندمهم حيث لا ينفع الندم:

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ[1] السَّمَاءُ بِالغَمَامِ وَنُزِّلَ الملائِكَةُ تَنْزِيلاً. المُلْكُ يَوْمَئِذٍ الحَقُّ للرحمٰن وَكَانَ يَوْماً عَلَى الكَافِرِينَ عَسِيراً. وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً. يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً. لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ للإِنْسَانِ خَذُولاً﴾ (٢٥-٢٦).

فالله يصف بعض مظاهر القيامة: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالغَمَامِ﴾ أي يوم القيامة تتفتح السماء بسبب طلوع الغمام منها، قد يكون الغمام ـ والله أعلم ـ هو السحب المتراكمة من أبخرة تلك الانفجارات المروعة التي نزلت بالكون ﴿وَنُزِّلَ الملائِكَةُ تَنْزِيلاً﴾ وتنزل ملائكة السموات يومئذ نزولاً مؤكداً فيحيطون بالخلائق ومعهم صحائف أعمال العباد في مقام المحشر[2] ﴿المُلْكُ يَوْمَئِذٍ الحَقُّ لِلرَّحمٰن﴾ أي الملك الحق يومئذ خالص لله الرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء، وبطلت الممالك سوى ملكه، وبطلت

---

(١) تشقق: أصلها تتشقق حذفت التاء الأولى تخفيفاً.

(٢) المحشر: هو المكان الذي يُجمع فيه الناس يوم القيامة.

العروش سوى عرشه ﴿ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الكافرين عَسِيراً﴾ وكان ذلك اليوم على أهل الكفر صعباً شديداً هائلاً ﴿يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ ويوم القيامة يعض الظالم[١] على يديه ندماً وحسرة على ما فرط في جنب الله بسلوك طريق الكفر وتكذيب رسل الله ﴿يقول يَا لَيْتَني اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبيلاً﴾ أي يقول: يا ليتني اتخذت مع رسول الله محمد طريقاً إلى الهدى سلكته معه ينجيني من عذاب الله ﴿يَا وَيْلَتَا لَيْتَني لم أَتَّخِذْ فُلاناً خَليلاً﴾ يا حسرتي ليتني لم أتخذ فلاناً صديقاً[١] ﴿لَقَدْ[٢] أَضَلَّني عَنِ الذِّكْرِ بعدَ إِذْ جَاءَني﴾ والله لقد أضلني عن الإيمان بالقرآن بعد إذ جاءني من عند الله فصدني عنه ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ للإنسانِ خَذُولاً﴾ والخذل: الترك من الإعانة، والشيطان هو كل من صد عن سبيل الله ودعا إلى عصيانه سواء أكان إبليس أم كان من الإنس. فهذا الشيطان هو خذول للضال عند نزول العذاب به فهو لا ينشله من الهلاك ولا يعينه على ما هو فيه من البلاء.

---

(١) الظالم هو عقبة بن أبي معيط لأنه ارتد بعد إسلامه إرضاء لصديقه أُبيّ بن خلف الذي طلب منه ذلك.

(٢) لقد: اللام الداخلة على قد للقسم وقد صدرت الجملة بالقسم للمبالغة في بيان خطئه وإظهار ندمه.

وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ
جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾
وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ
لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ
بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ
أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ
وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ
كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ
أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا
أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾
وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ

شـرح المفـردات

الذِّكْرِ: هو القرآن المنزل من عند الله.

خَذُولاً: متخلياً عن النصرة والإغاثة.

جُمْلَةً واحِدَةً: دفعة واحدة.

لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ: لنقوي به قلبك.

وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً: انزلنا بعضه إثر بعض وبيناه وفصّلناه.

فَدَمَّرْنَاهُم: فاهلكناهم.

وَأَعْتَدْنَا: وهيأنا.

أَصْحابَ الرَّسِّ: الرس اسم بئر وأصحابها هم الذين قتلوا نبيهم ورموه فيها.

تَبَّرْنَا تَتْبِيراً: أهلكناهم ودمرناهم.

ٱلَّتِيٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِۚ أَفَلَمۡ يَكُونُواْ يَرَوۡنَهَاۚ بَلۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ نُشُورٗا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا عَلَيۡهَاۚ وَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ حِينَ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ مَنۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾

شَرح المفردَات

مَطَرَ السَّوْءِ: حجارة تساقطت من السماء فأهلكتهم.

نُشوراً: بعثهم أحياء بعد مماتهم يوم القيامة.

وَكيلاً: حافظاً تحفظه من اتباع هواه.

الأنعام: الإبل والبقر والغنم.

تابع سُورَة الفُرقان

وبعد الكلام عن الظالم وحسرته وندمه يوم القيامة ينتقل بنا القرآن إلى بيان موقف المشركين من القرآن:

﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَومِي اتَّخَذُوا هَذَا القُرآنَ مَهْجُوراً. وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ المجْرِمينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصيراً﴾ (٣٠-٣١).

فرسول الله محمد توجه إلى ربه قائلاً: يا رب إن قومي الذين بعثتني إليهم لأدعوهم إلى توحيدك واتباع شريعتك قد هجروا هذا القرآن وقالوا فيه غير الحق، وذلك أن المشركين كانوا لا يصغون للقرآن ولا يستمعون إليه بل أوصى بعضهم بعضاً بما ذكره القرآن ﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا

لهذا القرآن وآلغوا فيه..﴾ فصلت: ٢٦. فكانوا إذا تلي عليهم القرآن أكثروا اللغط والكلام في غيره حتى لا يسمعوه، فهذا مثل من هجرانه. وعدم التصديق منهم بأنه من عند الله هو من هجرانه، وترك تدبّره وفهمه والعمل به هو من هجرانه، والعدول عن غيره من شعر أو غناء أو لهو هو من هجرانه. ومن أهم العوامل التي تؤدي إلى هجرانه هو الانقياد الكلي لشهوات الدنيا والغفلة عن ذكر الله، وعدم فهم القرآن فهماً صحيحاً، فالذي يفهم القرآن ويتذوق دقائق معانيه وبلاغته الفائقة ينجذب إليه تلقائيًا ويستحوذ على مشاعره فيكون سلوته في الليل وفي أوقات الفراغ في النهار وذلك لما يرى فيه من شفاء للنفس من هموم الحياة وما أكثرها، ولهذا جاء في القرآن ﴿وَنُنَزِّلُ مِنْ القرآن ما هُو شِفَاءٌ وَرَحمَةٌ للمؤمِنين﴾ ولا يعرف أثر القرآن في النفس الإنسانية إلاّ الذين صفت نفوسهم وتجردت أرواحهم من أوضار المادة وأدركوا تفاهة الحياة وسرعة زوال نعيمها.

وفي قوله تعالى: ﴿اتّخذوا هٰذَا القرآن مَهْجُوراً﴾ هو تلويح للمؤمنين بأن يكونوا كثيري التعاهد لقراءة القرآن والعمل بآدابه وأحكامه لئلا ينطبق عليهم وصف هجران القرآن، هذا الوصف الذي أطلقه الله على مشركي العرب الذين أوعدهم الله بالعذاب يوم القيامة، فإذا كان القرآن ذمّ الكفار على هجران القرآن فإن المسلمين إذا هجروه كان إثمهم أكبر لأنهم عرفوا الحق من الباطل.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نبيٍّ عَدُوًّا من المجرمين﴾ أي وكما جعلنا لك يا محمد أعداء لك من كفار قومك كذلك جعلنا لكل نبي من الأنبياء قبلك عدواً من مجرمي قومه فاصبر لما نالك من الأذى كما صبروا ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً﴾ وكفاك يا محمد بربك هادياً يهديك إلى الحق ويبصرك الرشد وناصراً لك على أعدائك وهذا وعد من الله لنبيه بالنصر الذي تحقق بعد سنوات قليلة.

إن هذا الوعد الكريم من الله لرسوله محمد بالنصر الذي تحقق هو دليل على أن القرآن وحي إلٓهي وعلى صدق نبوة محمد ﷺ والله لا يؤيد منْ يدعي النبوة كذباً، ويكذب على عباد الله أجمعين.

ويتابع القرآن فيذكر تعنّت الكفار وشبهاتهم على القرآن إمعاناً منهم في الرفض لدين الله.

﴿وَقَالَ الَّذين كَفَروا لولا نُزِّلَ عَلَيْهِ القُرآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ به فُؤادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرتيلاً. ولا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إلاَّ جِئْنَاكَ بالحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً. الّذين يُحْشَرُون عَلَى وُجُوهِهِم إلى جَهَنَّم أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ سَبيلاً﴾ (٣٢-٣٤).

فكفار مكة قالوا: ﴿لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرآنُ جُمْلَةً واحِدَةً﴾ أي هلاَّ أُنزل القرآن على محمد دفعة واحدة، فأجابهم الله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ به فُؤَادَكَ وَرتَّلنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ أي مثل ذلك التنزيل المفرق للقرآن الذي طعنوا فيه واقترحوا خلافه نزلناه على هذه الصفة لنقوي بهذا التنزيل قلبك يا محمد وقلوب المؤمنين بتيسير حفظه، وضبطه، وفهم معانيه والوقوف على تفاصيل ما روعي فيه من الأحكام ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ أي أنزلناه مفرقاً آية بعد آية وبيّناه تبييناً، أو قرأناه عليك بلسان جبريل شيئاً فشيئاً على تؤدة وتمهل حتى تحفظه.

والمتمعن المنصف بنزول القرآن على هذه الصفة يرى فيه برهاناً على أن القرآن وحي من الله لا من تأليف محمد كما يظن بعض أتباع الأديان الأخرى وإليكم البيان:

فالقرآن لم يأتِ به محمد جملة واحدة كما يفعل الأدباء والكتّاب الذين ينكبون على مؤلفاتهم السنين الطوال ثم يضعونها بين أيدي الناس بعد أن يشبعوها مراجعة وتنقيحاً مما يمكن أن يدخل الظن إلى بعض النفوس من أن القرآن من تأليفه، بل كان القرآن تنزل آياته حسب الوقائع

والحوادث أو ردًّا على أسئلة كانت تلقى على محمد سواء أكانت من المشركين العرب أو من يهود، أو من نصارى، وقد استمرت مدة نزول القرآن ثلاثاً وعشرين سنة، وكان القرآن ينزل بهذه الفصاحة المعهودة التي بهرت الأسماع والعقول. واستحوذت على شعور العرب فآمن من آمن، ودخل الريب إلى قلوب البعض، فجاء التحدي الرباني لهؤلاء المرتابين بما ذكره القرآن: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله﴾.

فمحمد لم يكن قبل النبوة من بلغاء العرب وفصحائهم، ثم ها هو بعد النبوة يتلو عليهم هذا القرآن بهذه الفصاحة، فإذا كنتم أيها العرب في شك من أن القرآن كلام الله فقدّموا لنا نظماً وتأليفاً سورة من مثل سُوَر القرآن. هذا التحدي كان على أسماع العرب أجمعين وفيهم كثير من البلغاء والشعراء الذين يناصبون محمداً العداء، ولكنهم عجزوا وعجز بعدهم كل البلغاء الذين ينطقون العربية من أتباع الأديان الأخرى الذين ينكرون رسالة محمد أنفة وكبرياء، أو اتباعاً وتقليداً لما ورثوه عن آبائهم من الدين بدون تحقيق، أو محافظة على المكانة الاجتماعية في قومهم، لأن في إعلان إسلامهم الذي اقتنعوا به في قلوبهم هو تعيير لهم من أبناء ملتهم.

ونزول القرآن مفرقاً في مدة ثلاث وعشرين سنة فيه حكمة من الله العليم الخبير لأن القرآن جاء ليربي أمة وينشىء مجتمعاً فاضلاً والتربية تحتاج إلى زمن، وبالأخص فإن العرب قبل الإسلام كانوا في إباحة مطلقة من شيوع الفواحش والمنكرات، وظلم اجتماعي يقوم على تسلط الأقوياء وأكل حقوق الضعفاء والتناحر والتقاتل لأوهى الأسباب، فلو نزل عليهم القرآن دفعة واحدة لثقلت عليهم التكاليف ولنفرت قلوبهم عن قبول ما فيه من الأوامر والنواهي. ولقد جاء القرآن بمنهج شامل للحياة لذلك جاء مفرقاً

فترة بعد فترة وفق الحاجات الملحة للمجتمع، جاء ليكون منهج سلوك وتربية، لا ليكون كتاب ثقافة يقرأ للمعرفة المجردة، جاء لينفذ كلمة كلمة، ولقد حقق القرآن بمنهجه أعجوبة في إصلاح العرب ـ زمن نزول القرآن ـ وجعلهم خير الأمم، ولكن من جاء بعدهم من الأمم غفلوا عن منهج القرآن، واتخذوه متعة للثقافة، أو اتخذوه كتاباً يُتْلى للتعبد أو للتبرك تغيب عنهم أكثر معانيه، ثم هم لا ينتفعون من هدي هذا القرآن إلاّ نزراً يسيراً، وهم بهذا خرجوا عن منهجه الذي جاء لأجله.

ونعود إلى تتمة الآيات فيقول سبحانه ﴿ولا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ ولا يأتيك يا محمد هؤلاء الكفار بكلام عجيب هو مثل في البطلان يريدون به القدح بنبوتك وبالقرآن إلاّ جئناك بالجواب الحق الذي يدمغ به باطلهم ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾ وأحسن بياناً وتفصيلاً ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُون عَلَى وُجُوهِهِمْ إلَى جَهَنَّمْ﴾ أي إن الذين كفروا برسالتك من الله يا محمد سيجمعون ويساقون على وجوههم إلى النار، وفي الحديث عن أنس رضي الله عنه «أن رجلاً قال يا رسول الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة، فقال: إن الذي أمشاه على رجليه قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة» ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ أولئك شر الناس منزلة وأخطأ طريقاً.

ثم ينتقل القرآن إلى التهديد والوعيد للمكذبين بنبوة محمد محذراً لهم من عقاب الله وأليم عذابه كما حل بالأمم الماضية التي كذبت رسل الله وعصت أوامره سبحانه. ومن هذه الأمم قوم فرعون:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هرونَ وَزِيراً. فَقُلْنَا اذْهَبَا إلَى الْقَوْمِ الَّذِين كَذَّبُوا بِآيَاتِنا فَدَمَّرْنَاهُم تَدْمِيراً﴾ (٣٥-٣٦).

أي لقد أعطينا موسى التوراة وجعلناه رسولاً منا إلى فرعون وأيدناه

بأخيه هارون معيناً له ومؤيداً وناصراً فقلنا لهم حينئذ ﴿اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي اذهبا إلى فرعون وقومه الذين كذبوا بالدلائل المودعة في الكون الدالة على وحدانية الله واستحقاقه للعبادة ﴿فَدَمَّرْنَاهُم تَدْمِيراً﴾ في الكلام هنا حذف أي فذهبا إليهم فكذبوهما فأهلكناهم إهلاكاً شديداً هائلاً.

ويبيّن الله ما أصاب قوم نوح عليه السلام:

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُل أَغْرَقْنَاهُم وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً﴾(٣٧).

أي واذكر يا محمد قوم نوح لما كذبوا رسول الله نوحاً فأغرقناهم بالطوفان وجعلناهم عبرة للناس، وجاءت صيغة الرسول في الآية بصيغة الجمع ﴿كَذَّبُوا الرُّسُلَ﴾ وهم لم يكذبوا إلاّ رسولاً واحداً وهو نوح وذلك إيماءً بأن من كذّب رسولاً فقد كذّب جميع رسل الله لأن دعوتهم واحدة ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً﴾ وهيأنا لهؤلاء الذين أغرقناهم عذاباً شديداً أليماً وهو عذاب النار.

ثم يبين الله ما أصاب عاداً وثمود وأصحاب الرسّ وقوم لوط من هلاك:

﴿وَعَاداً[١] وَثَمُودَ وَأَصحاب الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً. وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ وكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيراً. وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى القَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونوا يَرَوْنَها بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً﴾ (٣٨-٤٠).

فالله سبحانه يقول: ودمرنا ـ أي أهلكنا ـ قوم عاد وَقَوْمَ ثمود[٢]

---

(١) عاداً: معطوفة على المضمر في دمرناهم التي سبق ذكرها أو على المضمر في جعلناهم، أو على الظالمين.

(٢) قوم عاد وقوم ثمود: هما قبيلتان من العرب البائدة.

وأصحاب الرس[٣] ﴿وقروناً بين ذلك كثيراً﴾ أي وأهلكنا أُمماً كثيرة كانوا بين الأمم التي مرَّ ذكرها ﴿وكُلًّا ضَرَبْنا لَهُ الأمْثالَ﴾ وكُلًّا من هذه الأمم التي أهلكناها، سميناها لكم أو لم نسمها، ذكرنا لهم العظات، وبيّنا لهم الحجج والأمثال الصحيحة النافعة ولكنهم لم يتعظوا ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيراً﴾ وكل هؤلاء الذين ذكرنا أمرهم استأصلناهم وأهلكناهم جميعاً ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ التي أُمْطِرت مَطَرَ السَّوْءِ﴾ ولقد أتى كفار قريش على قرية سدوم في أسفارهم إلى الشام، ومطر السوء هي الحجارة التي أمطرها الله فأهلكهم بها ﴿أَفَلَمْ يكونوا يَرَوْنَهَا﴾ توبيخ لهم على تركهم الاعتبار والاتعاظ، أي ألم يكونوا ينظرون إلى هذه القرية فيعتبروا بما حلّ بأهلها من عذاب جزاء فحشهم وعصيانهم رسول ربهم ﴿بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً﴾ بل كان هؤلاء الكفار لا يعتبرون، لأنهم لم يكونوا يخافون نشوراً وبعثاً بعد الممات، ولا يوقنون بالعقاب والثواب في الآخرة، فيردعهم ذلك عما يأتون من معاصي الله.

ويتابع القرآن فيذكر سخرية الكفار برسول الله محمد واعترافهم بتأثير وعظه عليهم:

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ الاَّ هُزُواً أَهذَا الَّذي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً. إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنِ آلهتِنَا لَوْلا أن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُون حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ (٤١-٤٢).

فالله سبحانه يقول:﴿وإذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إلاَّ هُزُواً﴾إن: بمعنى

---

(٣) أصحاب الرسّ: الرسّ، في اللغة، كل محفور مثل البئر والقبر ونحو ذلك، قيل هم أصحاب الأخدود الذين عذبوا المؤمنين حرقاً في الأخدود فأهلكهم الله جزاء ظلمهم وقيل: الرس هي بئر بأنطاكية قتلوا فيها حبيب النجار الذي قال لقومه: ﴿اتبعوا المرسلين﴾ فأهلك الله قومه بصيحة من السماء. وقيل: إنها قرية باليمامة يقال لها فلج كذّب أهلها نبيهم ورموه في بئر حيًّا حتى مات.

ما. أي وإذا أبصرك هؤلاء الكفار يا محمد ما يتخذونك إلاّ موضع هزء وسخرية ﴿أَهٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً﴾ أي أهذا الذي بعثه الله رسولاً إلينا نتبعه ونسير وراءه، واستعمالهم اسم الإشارة: أهذا، دلالة على احتقارهم له وتهكمهم به، ولكن هل هذه السخرية من محمد عليه السلام كانت عن اقتناع منهم، لا، إنما كانت خطة مدبرة من كبراء قريش للتصغير من شأنه ليقل تأثير القرآن على الناس وكان عملهم هذا وسيلة من وسائل مقاومة الدعوة الجديدة التي تهددهم في مراكزهم الاجتماعية، وتلغي الامتيازات الخاصة بهم.

ويتابع الكفار قولهم: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾ إن كاد محمد ليصرفنا عن عبادة الأصنام ﴿لَوْلا أن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ لولا أن ثبتنا عليها واستمسكنا بعبادتها. هذا الاعتراف منهم ينبىء عن اجتهاد محمد في الدعوة إلى الإسلام وعن مبلغ الحجج التي كان يقدمها لقومه، وعن جاذبية القرآن وتأثيره في النفوس بحيث لا يملك أحد سمعه إلاّ غزا الإيمان قلبه وأدرك أنه كتاب الله حقًّا. كما أن اعترافهم بالصبر على آلهتهم وعدم ترك عبادتها يصور المقاومة العنيفة التي كانت تحصل في باطن نفوسهم بين الاستجابة لهذا الدين الجديد وبين الاستمرار على ديانتهم الوثنية.

ولكن إسنادهم الضلال لمحمد ﷺ بقولهم: ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلهتنا﴾ يقابله من الله التهديد والوعيد لهم ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ أي سيعلمون حقيقة الأمر حين يرون عذاب الله يوم القيامة حيث سيتبين لهم من يسلك طريق الضلال، أهم أم المؤمنون؟

ثم يخاطب الله رسوله محمداً معزياً ومخففاً من حزنه بسبب ما يلاقيه من الكفار من استهزاء وأذى مصوراً لهم بأحط الأوصاف وأدناها:

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا. أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُم يَسْمَعُونَ أو يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (٤٣-٤٤).

أي أرأيت يا محمد من جعل هواه إلّهاً لنفسه فما استحسن من شيء ورآه حسناً كان دينه ومذهبه، وهكذا كان الرجل في الجاهلية قبل الإسلام يعبد الحجر الأبيض زماناً فإذا رأى غيره أحسن منه عبده وترك الأول.

وهكذا نرى في كل زمن كثيراً من الناس يعبدون ما يروق لهم من أهوائهم وشهواتهم فلا يقرون بحق ولا يخضعون لمنطق فهم أسارى أهوائهم لا تجدي فيهم الموعظة ولا تؤثر فيهم الحجة والبرهان. فالله يصف لرسوله محمد هذا الصنف من الناس ليطيّب من خاطره ويخفف من أحزانه بسبب عدم إيمانهم ولذلك يقول له في تتمة الآية السابقة: ﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ أي أبعد ما شاهدت يا محمد غلوّ هذا الذي اتخذ إلّهه هواه أتستطيع أن تكون عليه حفيظاً تزجره عما هو عليه من الضلال وترده إلى الإيمان، لا، لست تقدر على ذلك فالهداية ليست موكولة إلى مشيئتك.

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أكثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ أي أتحسب يا محمد أن أكثرهم يسمعون ما تتلو عليهم من آيات القرآن والمواعظ يعقلون معانيها حتى تطمع في إيمانهم. ومن دقة التعبير القرآني أنه لا يعمم بل يقول: ﴿أكثرهم﴾ إذ هناك قلة كانت تعي الحقيقة وتتدبرها ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالأَنْعَامِ﴾ وهؤلاء الأكثرية لا ينتفعون بما يسمعونه منك فهم كالبهائم التي هي مسلوبة الفهم والعقل فلا تطمع في إيمانهم ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ بل هم أضل من الأنعام طريقاً، فالبهائم تعرف سيدها وتهتدي إلى مراعيها وتعرف من يحسن إليها ممن يسيء لها، وتطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرها، وهؤلاء لا ينقادون لربهم وخالقهم ورازقهم ولا يعرفون إحسانه إليهم ولا يميزون بين النافع والضار.

أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ

شـرح المفـردات

مَدَّ الظِّلَّ: بسط الظل ومده أثناء النهار.

ثم قَبَضْنَاهُ إلينا: أخذناه ونسخناه بعد غروب الشمس.

جعل لكم اللَيْل لِبَاساً: جعله ساتراً لكم بظلامه كاللباس.

النوم سُباتاً: راحة تستريح به أبدانكم.

النَّهار نُشُوراً: يقظة لكم من النوم لابتغاء أرزاقكم.

أَنَاسِيَّ: بَشَراً.

صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُم: انزلنا المطر في أنحاء مختلفة.

جَاهِدْهُم: جاهد، بذل وسعه في المدافعة والمغالبة.

مَرَجَ البحرين: أرسل البحرين المالح والعذب متجاورين غير متمازجين.

كُفُوراً: جحوداً لنعم الله عليهم.

عَذْبٌ فُرَاتٌ: حلو شديد العذوبة.

مِلْحٌ أُجَاجٌ: شديد الملوحة والمرارة.

بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ۚ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾

شـرح المفـردات

بَرْزَخاً: حاجزاً فلا يختلط أحدهما بالآخر.

حِجْراً مَحْجُوراً: حراماً محرماً تغير صفاتهما.

نَسَباً: قرابة ينسبون إلى الذكور.

صِهْراً: قرابة النكاح من جهة البنات.

على ربِّه ظهيراً: معيناً على عصيان ربه.

استوى على العرش: استولى على العرش بلا كيف استواء يليق به.

زادَهُم نُفُوراً: تباعداً عن الإيمان.

بُرُوجاً: النجوم الكبار.

خِلْفَةً: يخلف أحدهما الآخر ويتعاقبان.

يذكَّر: يعتبر ويتعظ.

تَابع سُورَة الفُرقان

ثم يلفت القرآن الأنظار إلى بعض المظاهر الطبيعية ليرى فيها الإنسان عظمة القدرة الإلّهية المبدعة، ولتكون مادة للتدبر والتفكر في أسرار الكون والاتصال بالله عن طريق الاتصال بما صنعت يداه:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً. ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً. وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيلَ لِبَاساً وَالنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً. وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً. لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً. وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً﴾ (٤٥-٥٠).

فالله سبحانه يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مدَّ الظِّلَّ﴾ أي ألم تنظر يا محمد إلى صنع ربك كيف أنشأ الظل من طلوع الشمس حتى غروبها فاستخدمه الإنسان للوقاية من لفح الشمس وشدة حرارتها، ومد الظل يحصل من دوران الأرض حول محورها وعلى ميل محور دورانها حول الشمس، والظل نعمة من الله على خلقه فلو أن الله خلق الأشياء كلها شفافة لما وُجِدَ الظل ولانعدمت فرص الحياة أمام الكائنات التي تحتاج إليه ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً﴾ ولو شاء الله لجعل الظل ثابتاً على حال واحدة لا تتغير، وهذا يكون لو أن الأرض سكنت بحيث أنها ظلت غير متحركة حول الشمس، وكذلك انعدام دورانها حول محورها فتكون أشعة الشمس مسلطة على نصف الأرض بينما يظل النصف الآخر ليلاً مما يحدث اختلاف التوازن الحراري ويؤدي إلى انعدام الحياة على الأرض ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً﴾ أي ثم جعلنا طلوع الشمس دليلاً على ظهور الظل فلولا الشمس لما عُرِف الظل ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً﴾ أي أزلناه شيئاً فشيئاً

بعدما أنشأناه ممتداً ولم يكن تقلصه دفعة واحدة وفي ذلك منافع للناس. وذلك أن الشمس إذا طلعت ظهر الظل لكل ناظر إلى المغرب فكلما ارتفعت في الأفق نقص الظل شيئاً فشيئاً إلى أن تصل الشمس وسط السماء فعند ذلك ينتهي نقص الظل فإذا زالت الشمس عن وسط السماء زاد الظل جهة المشرق فشيئاً حتى تغرب الشمس.

﴿وَهُوَ الَّذي جَعَلَ لَكُم اللَّيْلَ لِبَاساً﴾ أي وهو الله سبحانه جعل لكم - أيها الناس - الليل كاللباس يستركم بظلامه كما يستركم اللباس ﴿والنَّوْمَ سُبَاتاً﴾ السبت: القطع أي أن الله جعل الليلَ قاطعاً للأعمال والحركة لراحة الأبدان ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً﴾ أي جعل الله النهار زمن يقظة لينتشر الناس فيه لمعايشهم وابتغاء رزقهم فالنوم في الليل شبيه بالموت، واليقظة في النهار شبيهة بالنشور[1] بعد الممات.

﴿وَهُو الذي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ وهو الله سبحانه الذي سخّر الرياح فتسوق السحب وتبشر الناس بالمطر الذي هو رحمة من الله لهم ﴿وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً﴾ والله أنزل من السماء ماء طاهراً صالحاً للشرب مطهراً للأنجاس والجراثيم، وهذه حقيقة علمية، فالماء يعتبر أهم عنصر للطهارة من الجراثيم ﴿لِنُحْيِي بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً﴾ أي ليحيي الله بهذا المطر أرضاً ميتة جف زرعها ويبس، وما أصدق وصف الأرض بالميتة عند جفافها الشديد حيث يهجرها كل حيوان وطير، ووصفها بالحياة بعد نزول المطر حيث تكتسي بالنبات والاخضرار ويرتادها الحيوان والطير ﴿وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً﴾ أي ويسقي الله بهذا المطر الأنعام وكثيراً من الناس. والأناسي: جمع إنسان ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُم لِيَذَّكَّرُوا﴾ ولقد قسم الله هذا هذا الماء بينهم وحوّله من جهة إلى جهة ليدركوا نِعَمَ

---

(١) النشور: هو الانبعاث والحياة بعد الموت يوم القيامة.

الله عليهم ويتعظوا ويشكروا فضله وإحسانه ﴿فَأَبى أكثَرُ النَّاسِ إلاَّ كُفُوراً﴾ ولكن أكثر الناس امتنع عن الشكر والاتعاظ وأصر على الكفر.

ثم يبين الله أن رسالة محمد هي للبشر كافة وأن عليه بذل غاية وسعه في سبيل نشر الإسلام:

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا في كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً. فَلا تُطِعِ الكافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهاداً كَبِيراً﴾ (٥٢).

أي ولو شئنا لأرسلنا في كل قرية نبيًّا يدعوهم إلى الله ويخوفهم عذابنا على كفرهم بنا فيخفف عنك كثيراً من أعباء الرسالة، ولكن خصصناك يا محمد بالرسالة إلى جميع أهل الأرض لتنال بذلك ما أعده الله لك من الكرامة والمنزلة الرفيعة ﴿فلا تطع الكافرين﴾ فيما يدعونك إليه من أن تعبد آلهتهم ﴿وجاهدهم به جهاداً كبيراً﴾ وابذل وسعك في نشر الإسلام والدفاع عنه قولاً وفعلاً، أو جاهدهم بهذا القرآن غاية جهدك بتلاوة ما يحتويه من الزواجر والمواعظ والتذكير بأحوال الأمم المكذبة لرسلها حتى ينقادوا إلى العمل بفرائض الله وأوامره.

هذا الجهاد في نشر الإسلام وهدي القرآن ليس قاصراً على رسول الله محمد، بل هذا الواجب يترتب على المسلمين من بعده، فالإسلام هو الترياق لكل ما يشكو منه العالم اليوم من مآسٍ وصراعات دموية وقلاقل تسبب الشقاء للجنس البشري. فالمسلمون مدعوون اليوم لحمل راية الإسلام ونشر مبادئه في العالم وخصوصاً في هذا العصر الذي انتشرت فيه أجهزة الإعلام انتشاراً مذهلاً. وأصبح سهلاً إيصال هدي القرآن إلى أقاصي المعمورة بأسهل السبل، وإن أكبر جهاد في سبيل الإسلام يكون بأن يتخلق المسلمون بتعاليم دينهم ويكونوا الأمثولة الحية له، كما كان سلفهم الصالح في مطلع الإسلام فكانوا خير أُمة أُخرجت للناس. أما ما

عليه أكثر المسلمين من سلوك يتنافى مع الإسلام فإنهم بذلك يصدون الناس عن دينهم، لأن العالم اليوم يحكم على دين ما حسب سلوك الشعب الذي يدين به.

ويتابع القرآن فيبين فضل الله على الناس بالماء الذي جعله أساس حياتهم:

﴿وَهُوَ الَّذي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ، هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ، وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ، وَجَعلَ بَيْنَهُمـا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً. وَهُوَ الَّذي خَلَقَ مِنَ المَاءِ بَشراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً﴾ (٥٣-٥٤).

فالله هو الذي ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ ومعنى مرج: أي أرسلهما متجاورين غير متمازجين، والبحرين هما الماء العذب والماء المالح، فالماء العذب كالأنهار والعيون والآبار، والماء المالح المتمثل بالبحار ﴿هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ هذا ماء مستساغ طيب بارد شديد العذوبة ﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ وهذا ماء شديد الملوحة ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً﴾ أي وجعل بين الماء العذب والماء المالح حاجزاً بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر. ومن الواضح هنا أن البرزخ ليس مجرد الأرض الفاصلة، فالأرض الفاصلة لم تمنع من انصباب الأنهار في المحيطات، وإنما يتمثل في القوانين الطبيعية التي أنشأها الله في هذه الأرض بجعل المحيطات في منخفض من الأرض وجعل الأنهار والعيون تسيل من أعالي الجبال، ومن ثَمَّ فالنهر العذب هو الذي يصب في البحر المالح، وبهذا التقدير الدقيق لا يطغى البحر على المياه العذبة فيفسدها والتي هي أساس حياة أكثر الكائنات الحية ﴿وحجراً محجوراً﴾ أي وجعل كلًّا من البحرين المالح والعذب حراماً محرماً على الآخر أن يغير من طبيعته فلا ينقلب الماء العذب في مكانه ماء ملحاً، ولا

ينقلب الماء المالح في مكانه ماء عذباً[١] ﴿وَهُوَ الَّذي خَلَقَ مِنَ الماءِ بَشَراً﴾ قد يكون المراد من الماء: الماء الطبيعي الذي خلق منه كل أنواع الحيوان، كما قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنَ مَاءٍ﴾ وقد يراد بالماء: النطفة وهي ماء الرجل وماء المرأة أي منيهما عند اتصالهما الجنسي، فمن ملايين الحيوانات المنوية التي يقذفها الرجل في رحم المرأة هناك حيوان منوي واحد ينفصل عن مجموعته ويلقح بويضة الأنثى ويكون ذلك باكورة تخلّق الجنين، فالحيوان المنوي عند الرجل، والبويضة عند الأنثى يحملان وحدات الوراثة ويتشابهان عند البشر جميعاً وينشأ منهما الذكور والإناث بطريقة عجيبة في نموهما لا يدرك البشر سرها ﴿فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً﴾ والنسب والصهر معنيان يعمان كل قربى تكون بين الناس. فبني آدم ينقسمون إلى قسمين قرابة نسب فيقال: فلان ابن فلان أو فلانة بنت فلان، وقرابة صهر الناشئة عن الزواج واشتقاق الصهر من صهرت الشيء إذا خلطته فكل من الزوجين قد خالط صاحبه. وصهر الرجل زوج ابنته وأخو الزوج وأبوه وعمه، وصهر الزوج أقارب زوجته المحارم لها ـ أي ممن لا يحلون الزواج بها ـ كالأبوين والأخوة وأولادهم والأعمام والأخوال، وصهر المرأة أقارب زوجها المحارم. فالنسب من جهة البنين والصهر من جهة البنات ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً﴾ هذه الكلمات التي جاءت عقب خلق الإنسان وجعل

---

(١) ومن التقديرات الإلّهية أن جعلت القمر على هذا البعد المعهود عن الأرض وهو ٢٤٠٠٠٠ ميل والذي يحدث مداً (بفعل جاذبية القمر) هذا المد هو بمقدار معين لا يحدث طغيان الماء المالح على الماء العذب. ولو كان القمر أقرب إلينا مما هو الآن ويبعد عنا ٥٠٠٠٠ ميل مثلاً، فإن المد كان يبلغ من القوة بحيث أن جميع الأراضي التي تحت منسوب المياه كانت تغمر مرتين في اليوم بماء مندفع يزيح الجبال نفسها، وإذا فرضنا أن القارات قد اكتسحت فإن معدل عمق الماء فوق الكرة الأرضية يكون نحو ميل ونصف وعندئذ تنعدم الحياة على هذه الأرض بسبب طغيان البحار على المياه العذبة وإفساده بالأملاح والمرورة.

منه نسباً وصهراً تبين قدرة الله العظيمة في خلق الكائنات وإبداعها على أكمل الوجوه فمن مادة واحدة عند الرجل والمرأة لا ترى بالعين المجردة - أي الحيوان المنوي والبويضة - خلق الله بشراً ذا أعضاء مختلفة وطبائع متباعدة وألوان متعددة وجعله قسمين متقابلين: الذكر والأنثى.

وبعد الآيات السابقة الدالة على وحدانية الله وقدرته العظيمة في إبداع الكائنات يعود بنا القرآن فيعيب ما عليه المشركون من عبادات باطلة:

﴿وَيَعْبُدونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُهُمْ وَلاَ يضُرُّهمْ وَكَانَ الكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهيراً. وَمَا أرْسَلْنَاكَ إلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً. قُل مَا أسْألُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أجْرٍ إلاَّ مَنْ شَاءَ أن يَتَّخِذَ إلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ (٥٥-٥٧).

فالله يخبرنا عن جهل المشركين حيث كانوا يعبدون الأصنام وهي ﴿ما لا يَنْفَعهم ولا يَضُرُّهُمْ﴾ فإذا انتفى النفع من عبادة الأصنام، وإذا كانت لا تملك إيصال الضرر لأحد فلا موجب لعبادتها، لأن الحافز للعبادة يكون رجاء منفعة أو ثواب، أو خوفاً من عقاب ﴿وَكَانَ الكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهيراً﴾ والظهير: هو المعين، أي وكان الكافر عوناً للشيطان على ربه بالعداوة والشرك والمعصية، لأن عبادة الكافر للأصنام معاونة للشيطان ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ وما أرسلناك يا محمد إلاّ مبشراً بالثواب الجزيل في الآخرة لمن آمن بك وصدقك بالذي جئتهم به من عند الله من الهدى وعمل به، ومخوفاً بعقاب الله من كذبك ولم يصدق بما جئتهم به من عند الله من الهدى فلم يعمل به ﴿ قُـلْ مَا أسأَلُكُم عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ قل لهم يا محمد لا أسألكم على تبليغ رسالة الله أجراً، فليس لكم عذر بأن تقولوا: إنما يدعونا إلى عبادة الله ليأخذ أموالنا. هكذا تكون الدعوة إلى الله مجردة من كل غاية دنيوية لتعطي ثمرها في النفوس وتستحوذ على العقول ﴿إلاَّ مَنْ شَاءَ أن يَتَّخِذَ إلى رَبِّهِ سَبيـلاً﴾ ولكن من شاء أن يهتدي منكم ويسلك

سبيل ربه والتقرب إليه بالإيمان به وطاعته والإنفاق في سبيله من الصدقة وسبل الخير فليفعل.

ثم تأتي الآيات التالية داعية إلى التوكل على الله وعبادته فهو الحي الذي لا يموت وهو وحده خالق السموات والأرض:

﴿وَتَوَكَّل عَلَى الحَيِّ الَّذي لا يَموتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً. الَّذي خَلَقَ السَّمواتِ والأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا في سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ الرحمٰنُ فَاسأل بِهِ خَبيراً. وَإِذَا قِيلَ لهم اسْجُدوا للرحمٰن قَالُوا وَمَا الرحمٰن أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادهم نُفُوراً. تَبَارَكَ الَّذي جَعَلَ في السماء بُرُوجاً وَجَعَلَ فيها سِرَاجاً وَقَمراً منيراً. وَهُو الَّذي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ خِلْفَةً لِمَنْ أرادَ أن يذَّكَّرَ أو أَرَادَ شُكُوراً﴾ (٥٨-٦٢).

فالله سبحانه يقول: ﴿وتَوكَّل عَلَى الحَيِّ الَّذي لا يَموتُ﴾ واعتمد على الله يا محمد الذي له الحياة الدائمة التي لا موت معها، فثق به وفوّض الأمر إليه، وفي قوله سبحانه عن ذاته بأنه (الحي) إيماء إلى أنه لا ينبغي أن يتوكل الإنسان على من لا يتصف بالحياة من صنم ولا على من لا بَقَاء له ممن يموت، لأنه إذا مات بطل من توكل عليه ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ واعبد الله شكراً منك على ما أنعم به عليك من النبوة ﴿وَكَفَى بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً﴾ أي حسبك بربك خبيراً بذنوب خلقه لا يخفي عليه شيء منها وهو محص لها عليهم حتى يجازيهم بها يوم القيامة ﴿الَّذي خَلَقَ السَّمواتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ فالله هو الذي خلق السموات والأرض وما بينهما من نجوم وشموس وكواكب وأقمار وأتربة كونية وغازات يتألف الكون منها ﴿في سِتَّةِ أيَّامٍ﴾ وليس المراد بالأيام كأيامنا هذه فأيامنا تعرف بدوران الأرض حول محورها أمام الشمس، وقبل خلق الشمس لم يكن هناك نهار وليل، فالمراد بذلك ست مراحل أو أزمان مقدارها في علم الله وحده ﴿ثُمَّ اسْتَوَى

عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي استقام كل ما في السموات والأرض على مراده سبحانه بتسويته إياه، وقيل ملك وعلا فوق العرش علوًا يليق بجلاله ﴿الرَّحمٰنُ﴾ أي الله هو الذي وسع كل شيء رحمة، ولا يطلق اسم الرحمن إلاّ على الله ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً﴾ أي فسل عنه من هو خبير عارف بجلاله ورحمته وعلمه وحكمته ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم اسجُدُوا للرَّحْمٰنِ﴾ أي وإذا قيل للمشركين الذين يعبدون الأصنام: اخضعوا للرحمن واعبدوه ﴿قالوا: وَمَا الرَّحْمٰن﴾ أي قالوا منكرين: من هو الرحمن؟ لا نعلمه حتى نسجد له، قالوا ذلك لأنهم ما كانوا يطلقون اسم الرحمن على الله، أو لأنهم ظنوا أن المراد به غيره سبحانه ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ نحن لا نعلمه حتى نسجد له، فهل نخضع لأمرك وحسب ﴿وَزَادَهُمْ نُفُوراً﴾ وزادهم الأمر بالسجود للرحمن نفوراً من الإيمان وبعداً عنه.

﴿تَبَارَكَ الَّذي جَعَلَ في السَّمَاءِ بُرُوجاً﴾[١] تقدس الله وتعاظم، وتزايد فضله وخيره فهو الذي جعل في السماء بروجاً، والبروج في الأصل: القصور، والمراد بها مجموعات من النجوم ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُنِيراً﴾ وجعل الله في السماء شمساً مضيئة وقمراً منيراً، وقد شبه الله الشمس بالسراج وهو المصباح الذي يضاء بالزيت أو الكحول أو الكاز، والسراج له ضوء ذاتي كما أن له لهباً يصدر بواسطة الفتيل، وقد بيّن العلم أن الشمس كتلة غازية ملتهبة وأنها تستمد طاقتها من تفاعلات وانفجارات نووية. والقمر ينير بضياء الشمس المرتد من سطحه وإن في وصف الشمس

---

(١) البروج هي هذه المجموعات من مواقع النجوم التي تظهر على أشكال مختلفة في السماء مقسمة إلى اثني عشر قسماً تمر خلالها الأرض والكواكب في أثناء دورتها حول الشمس فكأنها كالمنازل الرفيعة لسكانها والقصور، وهي أيضاً كأنها منازل للشمس في دورانها أثناء السنة، وقد رصدها العرب قديماً وأعطوها أسماء حسب أشكالها وهي: الحمل ـ الثور ـ الجوزاء ـ السرطان ـ الأسد ـ السنبلة ـ الميزان ـ العقرب ـ القوس ـ الجدي ـ الدلو ـ الحوت.

بأنها سراج ووصف القمر بعدها بأنه منير إشارة إلى أن نوره مستمد من نور الشمس.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ خِلْفَةً﴾ وهو الله سبحانه الذي جعل الليل والنهار متعاقبين يخلف أحدهما الآخر، وتعاقب الليل والنهار ينشأ من دوران الأرض حول محورها أمام الشمس بهذا النظام المعهود وهذه الدقة المتناهية المحسوبة بالثواني ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ﴾ وقد دبر الله تعاقب الليل والنهار لمن أراد أن يتذكر آلاء الله عز وجل ويتفكر في بدائع صنعه فيعلم أنه لا بد لها من صانع حكيم رحيم بالعباد ﴿أو أَرَادَ شُكوراً﴾ أو أراد أن يشكر الله تعالى على ما فيهما من النعم، وليكون تعاقبهما وقتين للذاكرين لله فمن فاته ذكر الله في النهار تداركه في الليل.

فالذي يتأمل تعاقب الليل والنهار ويعيش موصول القلب مع الله ليل نهار يملك السعادة الحقيقية التي يفتقدها كثير من البشر ويحوز على طمأنينة النفس، وينتفي عنه القلق والهم والخوف من الغد لأن له سنداً قويًا وهو خالق السموات والأرض. وما غفل البشر عن هذه الحكمة التي هي أمام أنظارهم إلاّ بسبب وجودهم في المدن وما فيها من زحمة العمل والضوضاء الطاغية والتنازع المستمر على مكاسب المادة التي أنست الإنسان نفسه وألهته عن ربه وجعلته أسير الخوف والقلق والهموم التي هي عوامل لتدمير النفس الإنسانية وإصابتها بشتى الأمراض النفسية والعضوية كما شهد بذلك الطب الحديث.

وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ

شَــرح المفـردَات

هَوْناً: بسكينة وتواضع ووقار.

الجَاهِلُون: السفهاء.

قالوا سَلاماً: أي أماناً منا لكم لا نقابل السفه بمثله.

يبيتُونَ: بات الرجل إذا أدركه الليل نام أو لم ينم.

سُجَّداً وَقِياماً: ساجدين قائمين بالصلاة، (والقيام الوقوف منتصباً).

كَانَ غَراماً: ملازماً للمعذب لا يفارقه.

سَاءَت مُسْتَقَرًا وَمُقَاماً: بئست منزلاً يثبت فيه ويقيم به.

يَقْتُرُوا: لم يبخلوا ولم يقصروا عن النفقة في الحق.

قَوَاماً: عدلاً ووسطاً بين الإسراف والبخل.

يَلْقَ أثَاماً: عقاباً وجزاء في الآخرة.

إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

شـرح المفـردات

وإذا مَرُّوا باللغوِ مَرُّوا كِرَاماً: وإذا مروا بالباطل أو سمعوه أعرضوا عنه.

قُرَّة أعْيُنٍ: مسرَّة وفرح.

إمَاماً: أئمّة يُقتدي بنا.

يُجزون الْغُرْفَةَ: يثابون بالدرجة العليا في الجنة.

دُعاؤكم: عبادتكم له تعالى.

فَسَوْف يَكونُ لِزَاماً: فسوف يكون العذاب ملازماً لكم في الآخرة.

تَابع سُورَةِ الفُرقان

ويختم الله هذه السورة بذكر صفات عباده المؤمنين الذين يحوزون رضاه ويستحقون نعيمه في الآخرة، هذه الصفات هي صفات مثالية لو تخلّق الناس بها لصلح مجتمعهم ولحازوا على الأمن والسلام والسعادة في حياتهم.

فالله سبحانه يذكر من صفاتهم التواضع وكرم الخلق.

﴿وَعِبَادُ الرَّحمن الذين يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سلاماً﴾ (٦٣).

لقد نسب الله إليهم صفة الرحمة فسماهم عباد الرحمن وأضافهم إليه تشريفاً وتكريماً. فهم يمشون على الأرض ﴿هَوْناً﴾ أي مشياً هيناً برفق وتواضع وسكينة ووقار لا يتكبرون على الناس ولا يتجبرون عليهم وإذا خاطبهم ﴿الجَاهِلُونَ﴾ أي السفهاء الطائشون، الجاهلون بالسلوك الإنساني الفاضل، الجاهلون بحقوق الناس عليهم وما يتوجب عليهم من الاحترام لهم ﴿قَالُوا سَلاماً﴾ قالوا سداداً من القول، ولم يقابلوهم بالمثل بل عفوا وصفحوا عنهم ولم ينزلوا إلى منزلتهم ويجاروهم في سفههم وطيشهم، فالمؤمن حليم، وإن جُهِلَ عليه لم يجهل.

ومن صفات عباد الرحمن طلبهم منه أن يجنبهم عذاب النار:

﴿والَّذينَ يَبِيتُونَ[1] لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً. وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّم إنَّ عَذَابَها كَانَ غَرَاماً. إِنَّها سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَاماً﴾ (٦٤-٦٦).

---

(١) يبيتون: بات الرجل إذا أدركه الليل نام أو لم ينم.

فعباد الرحمن إذا أدركهم الليل يعبدون ربهم ويصلّون له، وتتراوح عبادتهم بين سجود لله وقيام له، وخص الله العبادة بالليل لأنها أبعد عن الرياء، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن في ذلك إيحاء للمؤمنين بأن يكون الليل بالنسبة لهم في بعض فتراته وقتاً للعبادة لا أن يكون مصدر لهو ومعصية لله وغفلة عن ذكر الله.

وعباد الرحمن مع اجتهادهم في العبادة في الليل هم خائفون حذرون من عقاب الله فهم يبتهلون له أن يصرف عنهم عذابه في جهنم، وجهنم هي النار التي يُعذَّب بها في الآخرة ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً﴾ إن عذاب جهنم كان لازماً دائماً غير مفارق من عُذِّب به من الكفار ﴿إِنَّها سَاءَت مُسْتَقَرًّا وَمُقَاماً﴾ إنها بئس المكان الذي يُنزل فيه وبئس الموضع للإقامة والاستقرار.

ثم يذكر القرآن من صفاتهم العدل والاعتدال في الإنفاق:

﴿والذين إذا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً﴾ (٦٧).

فهم إذا أنفقوا فهم ليسوا بالمبذرين ولا ينفقون المال فوق الحاجة، وكل شيء ينفق في غير طاعة الله فهو إسراف. والإقتار: هو البخل والتضييق على العيال في النفقة، والتقصير عما أمر الله به من الإنفاق ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً﴾ والقوام هو الشيء بين الشيئين، والمراد النفقة بالمعروف والعدل لا مجاوزة عن حدّ الله، ولا تقصيراً عما فرضه الله ولكن وسطاً بين ذلك وخير الأمور أوساطها.

ومن صفاتهم أنهم يعبدون الله وحده، وأنهم يقدرون الحياة الإنسانية حق قدرها ويحافظون على الشرف والعرض.

﴿ والَّذينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إلَهاً آخَرَ ولا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ التي حَرَّمَ اللَّهُ إلَّا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُون وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِك يَلْقَ أثاماً. يُضاعَفْ لَهُ الْعَذابُ يَوْمَ القِيامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهاناً. إلاَّ مَنْ تَابَ وآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحيماً. وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالحاً فَإنَّهُ يَتُوب إلَى اللَّهِ مَتَاباً﴾ (٦٨-٧١).

هؤلاء الذين أثنى الله عليهم لا يعبدون مع الله إلَهاً آخر فيشركون في عبادتهم إياه أحداً حيًّا أو ميتاً، فهم يخلصون لله العبادة ويفردونه بالطاعة لأن كل ما عداه لا يضر ولا ينفع، ولا يحيي ولا يميت، ولا يملك أحد الشفاعة عنده إلاّ بإذنه فهو وحده المعبود وهو وحده المستعان وهو وحده المقصود بالضراعة لتفريج الكرب وكشف السوء ﴿وَلا يَقْتُلُون النَّفْسَ التي حَرَّمَ اللَّهُ إلاَّ بِالْحَقِّ﴾ أي ولا يقتلون النفس التي حرم الله قتلها إلاّ بالحق فلا يتعدون على حياة غيرهم ما لم يكن القتل في قصاص، أو خروج على إمام، أو ردة بعد إسلام، أو سعي في الأرض بالفساد، أو زنا بعد إحصان (أي زنا المتزوج).

كما أن من صفاتهم: ﴿ولا يَزْنُونَ﴾ أي تجنبوا الزنا وقصروا أنفسهم على الحلال.

وأعظم أنواع الزنا إثماً كما قال محمد ﷺ (أن تزاني حليلة جارك) والحليلة هي الزوجة، لأن الجار يتوقع من جاره الأمان والمحافظة على عرضه.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أثاماً﴾ أي ومن يقترف الأمور السابقة يلق جزاء عمله وعقاب الله له يوم القيامة، والأثام في كلام العرب: العقاب، وقيل الأثام والإثم واحد، والمراد هنا جزاء الآثام ﴿يُضَاعَفْ لَهُ العَذَابُ يَوْمَ

القِيَامَةِ﴾ أي يضاعف عقابه بسبب هذه المعاصي ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهاناً﴾ أي يخلد في ذلك العذاب حقيراً ذليلاً إلى أبد الآبدين ﴿إلاَّ مَنْ تَابَ﴾ والتوبة هي الرجوع عن المعاصي إلى طاعة الله والندم على ما اقترفه منها، والعزيمة على ألا يعود إلى معصية الله ﴿وَآمَنَ﴾ وصدق بوحدانية الله وما جاء به رسوله محمد من الهدى ﴿وَعَمِلَ عَملاً صَالحاً﴾ وعمل بما أمره الله من الأعمال وترك ما نهاه عنه ﴿فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِم حَسَنَاتٍ﴾ فهؤلاء يغفر الله سيئاتهم رحمة منه بعد توبتهم وعملهم الصالح وطاعتهم له، ويجعل لهم مكان السيئات السالفة حسنات يثيبهم عليها أجزل الثواب ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رحيماً﴾ وكان الله واسع المغفرة كثير الرحمة ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ كررهما القرآن لأهميتهما وتأكيداً بأن العمل الصالح شرط في صحة التوبة وقبولها وأنه لا اعتداد بها بدون العمل الصالح ﴿فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً﴾ فإنه بذلك يعد تائباً إلى الله توبة مرضية عنها مكفرة للخطايا.

ومن صفات عباد الرحمن أنهم يلتزمون الحق ولا يحضرون مجالس أهل الباطل:

﴿والَّذين لا يَشْهَدُون الزُّورَ. وإِذَا مَرُّوا بِاللغْوِ مَرُّوا كِراماً﴾ (٧٢).

والزور: هو الكذب، فهم لا يؤدون شهادة الزور، بل يشهدون دائماً بالصدق والحق، وهم يجتنبون مجالسة أهل الشر والباطل والضلال واللهو الآثم والغناء ﴿وإِذَا مَرُّوا باللغْوِ﴾ واللغو: السقط[1] وما لا يعتد به من كلام وغيره ولا يحصل منه على فائدة ولا نفع، كما يطلق على الباطل أو على ما يستقبح من الأعمال والأقوال، فسب الإنسان الإنسان بالباطل الذي لا

---

(١) السقط: الخسيس من كل شيء أو الرديء الذي لا خير فيه.

حقيقة فهو من اللغو، وذكر النكاح بصريح اسمه مما يستقبح في بعض الأماكن فهو من اللغو ﴿مَرُّوا كِراماً﴾ مروا معرضين عنه منكرين له فلم يجاروا أهل اللغو في باطلهم ولم يخوضوا معهم في أحاديثهم.

ومن صفات عباد الرحمن أنهم يتلقون آيات القرآن بآذان صاغية:

﴿والَّذِين إذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِم لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَاناً﴾ (٧٣).

فهم إذا ذكرهم مُذكِّر بمواعظ الله وأحكامه الواردة في القرآن ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَاناً﴾ اي لم يتغافلوا عنها كأنهم صم لم يسمعوها وعمي لم يروها بل يتلقونها بقلوب منفتحة يفكرون فيها ويفهمون عن الله ما يذكرهم به.

ومن صفات عباد الرحمن أن يطلبوا من الله أن يرزقهم أزواجاً وذرية صالحة ويجعلهم أئمة للمتقين:

وَالَّذِين يَقُولُونَ رَبَّنا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ، واجْعَلْنَا للمُتَّقِينَ إمَاماً﴾ (٧٤).

فهم يسألون ربهم ان يجعل نساءهم وأولادهم موضع سرور في أنفسهم بتوفيقهم لطاعة الله وحيازة الفضائل، فإن المؤمن إذا شاركه أهله في عبادة الله وطاعته به تقر عينه لما يشاهد من مشايعتهم له في مناهج الدين وتوقع لحوقهم به في الجنة ﴿وَاجْعَلْنَا للمتَّقِينَ إمَاماً﴾ وهم يسألون ربهم أن يجعلهم أئمة يُقتدى بهم في إقامة شعائر الله بما يفيض عليهم من العلم الرباني، وبما يوفقهم إليه من صالح الأعمال، وأن يكونوا هداة آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر.

وأخيراً يبين الله ما أعد لهؤلاء المؤمنين من نعيم في الآخرة:

﴿أولَئِكَ يُجْزَوْنَ الغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاماً. خَالِدينَ فيها حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَاماً. قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُم رَبِّي لَوْلاَ دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُم فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً﴾ (٧٥-٧٧).

فالله سبحانه يقول: ﴿أولَئِكَ يُجْزَوْنَ الغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ أي هؤلاء الذين وصف الله صفاتهم من عباده يثابون على أفعالهم التي فعلوها في الدنيا بالدرجة العالية من المنازل في الجنة بصبرهم على مشاق الطاعات واجتنابهم للمنكرات ومجاهدتهم للشهوات ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً[1] وَسَلاماً﴾ وتتلقاهم الملائكة في الجنة بالتحية والسلام، وتدعو لهم بطول الحياة والسلامة من الآفات ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَاؤُكُم﴾ أي لا وزن لكم عند الله لولا عبادتكم له، وشكركم على إحسانه، وتضرعكم إليه، وعلى هذا يفهم أن من لا يعبد الله ولا يطيعه، ولا يشكره على إحسانه، ولا يستغيث به في الشدائد فلا وزن له عند الله، والله سبحانه يقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ ويقول سبحانه: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعذَابِكم إنْ شَكَرْتُم﴾ كما يقول سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكم ادعُوني اسْتَجِب لَكُم﴾.

ثم تُختتم هذه السورة بالوعيد للكافرين: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُم فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً﴾ أي فقد كذبتم أيها الكافرون بنبوة محمد ﷺ وبالقرآن الذي أوحاه الله إليه، فسوف يكون العذاب ملازماً لكم في الآخرة لا يفارقكم.

نسأل الله أن يجعلنا الله من عباده المقربين الذين ذكر صفاتهم في هذه السورة لننال بذلك ثواب الله العظيم.

---

(١) التحية: من معانيها: السلام، البقاء، السلامة من الآفات.

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

سميت هذه السورة بسورة الشعراء لأن الله ذَكَرَ فيها صفات الشعراء وذلك في معرض ردّه على المشركين حين زعموا أن محمداً شاعر، وأن القرآن هو من قبيل الشعر، فردَّ الله عليهم أن محمداً ليس بشاعر، وأن الشعراء يتبعهم الضالون عن الحق، لأنهم يهيمون في كل وادٍ من وديان الشعور الكاذب والخيال الجامح، وأنهم يقولون ما لا يفعلون، ومن كان كذلك فلا يكون مصدر هداية للناس.

وهذه السورة تلفت الأنظار إلى الأرض وما عليها من صنوف النبات التي تشهد بوجود الله، وعظيم قدرته. كما تتحدث السورة عن نبي الله موسى حيث خصه الله برسالته إلى فرعون وأيده بالمعجزات، وما جرى بينه وبين فرعون من حوار، ثم عقاب الله لفرعون وقومه. كما تذكر السورة نبي الله إبراهيم ومحاجّته لقومه في بطلان عبادة الأصنام.

وتتحدث السورة عن أنبياء الله: نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب وما وعظوا به قومهم، وما حلّ بالمكذبين الضالين من هلاك جزاء كفرهم وعصيانهم أمر ربهم.

وتذكر السورة بعض الدلائل التي تشهد بأن القرآن وحي إلٓهي وهي أنه جاء بلسان عربي مبين يخالف لسان أهل الكتاب وبهذا ينتفى اقتباسه منهم، كما أن بعض علماء بني أسرائيل أسلموا وأقروا بأن القرآن كتاب الله.

وفي السورة تحذير للمشركين العرب من الركون إلى الدنيا وملذاتها غير عابئين بما ينتظرهم من عذاب الله جزاء كفرهم وإعراضهم عن عبادة ربهم.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ۝١١ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝١٢ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ

شرح المفردات

بَاخِعٌ نَفْسَك: قاتل نفسك غمًّا وحزناً.
أعْنَاقُهُم: جماعاتهم أو رؤساؤهم وكبراؤهم.
ذِكْرٍ من الرحمن مُحدث: موعظة من الله جديدة.
زَوْجٍ كريم: صنف حسن كثير النفع.
لآيَةً: لدلالة على كمال قدرة الله.

إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَاذْهَبَا
بِآيَاتِنَا ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ
رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا
وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ
مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ
لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ
تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ
﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ
لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ
إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ
وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا
غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾

شرح المفردات

وليداً: صغيراً قريباً من الولادة بعد فطامه.

مِنَ الضَّالين: من الجاهلين بأن الوكزة تؤدي إلى القتل.

حُكما: علماً وفهماً.

مِنَ الْمُرْسَلين: من رسل الله إلى خلقه.

عَبَّدتَ بني إسرائيل: استعبدت بني إسرائيل وقتلت ولدانهم.

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

ايضـــاح و دروس

يستهل الله هذه السورة بالكلام عن رسوله محمد ﷺ وما يعانيه من الحزن والغم بسبب إعراض قومه عن دعوته، ولو شاء الله لساقهم إلى الإيمان قهراً:

﴿طسم[١]. تِلْك آياتُ الكِتَابِ المبينِ. لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ ألاَّ يكونوا مُؤمِنينَ. إنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّت أعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ. وَمَا يَأتيهِم مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَن مُحْدَثٍ إلاَّ كانُوا عَنْهُ مُعْرِضينَ. فَقَد كَذَّبُوا فَسَيأتيهم أنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ (١-٦).

فالله سبحانه يقول: ﴿تلك آيات الكتاب المبين﴾ تلك: هي للإشارة إلى البعيد أو العالي المنزلة، والكتاب: المراد به القرآن. المبين: أي الظاهر الواضح إعجازه وأنه من عند الله. والإشارة إليه بـ (تلك) لبيان عُلُوّ منزلة القرآن في الفضل والشرف.

﴿لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ﴾ لعلك قَاتل نفسك ومهلكها حزناً وغمًّا ﴿ألاَّ يكونُوا مُؤمنينَ﴾ لترك قومك الإيمان بوحدانية الله. فهنا يبيِّن الله مدى إخلاص رسوله محمد لدين الله، فكأن الله يقول له: لا تبالغ يا محمد بالحزن والأسى على قومك لأنك إن بالغت فيه كنت بمنزلة من يقتل نفسه ثم لا ينتفع بذلك أصلاً، فالله عزّاه وعرّفه أن غمه وحزنه على قومه لا يُجدي نفعاً. ومثل هذا المعنى جاء في القرآن: ﴿فلا تَذْهب نَفْسُك عَلَيهم حَسَرَاتٍ﴾.

---

(١) طسم: ذكرنا ما قيل في تفسير هذه الأحرف في مطلع سورة النمل.

﴿إِنْ نَشَأْ نُنَزِّل عَلَيْهم مِن السماءِ آيةً﴾ أي إن يشأ الله ينزل عليهم من السماء معجزة تلجئهم إلى الإيمان ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ فيظلون خاضعين للإيمان قهراً، وعبّر عن الخضوع بالأعناق لأنها موضع الخضوع، وقيل المراد بالأعناق الرؤساء والجماعات، يُقال في اللغة جاء عنق من الناس أي فوج منهم، أي فظلّ سادتهم وكبراؤهم وجماعاتهم للمعجزة خاضعين. فالله سبحانه لو أراد أن يسوقهم للإيمان قهراً لفعل، ولكن لا يريد من عباده إلاّ الإيمان الاختياري، ولهذا قضت حكمته وقامت حجته على خلقه بإرسال الرسل وإنزال الكتب الإلّهية.

﴿وَمَا يَأتيهم مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمنِ﴾ أي ما يأتي هؤلاء المشركين موعظة من المواعظ القرآنية من عند ربك يا محمد تذكرهم بها إلى ما فيه خيرهم بمقتضى رحمته سبحانه ﴿مُحْدَثٍ﴾ أي تتجدد حالاً بعد حال حسبما تقتضيه الحكمة الإلّهية ﴿إلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضينَ﴾ إلاّ أعرضوا عن استماع القرآن غير متدبرين ولا متفكرين فيه إصراراً منهم على كفرهم ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ فقد كذب هؤلاء المشركون بالقرآن الذي أتاهم من عند الله ﴿فَسَيَأْتيهم أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ هنا وعيد للمشركين، أي ستأتيهم أخبار هامة تبين عاقبة ما كذبوا وما استهزأوا به.

ثم يقدم القرآن دليلاً على وجود الله ووحدانيته وقدرته على بعث الأجسام حية بعد الممات:

﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ. إنَّ في ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكثَرُهم مُؤمنين. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (٨-٩).

والمعنى: أأعرضوا عن آيات الله وكذبوا واستهزأوا بها ولم ينظروا إلى الأرض وعجائبها كيف أنبت الله فيها صنوف النبات التي تنقسم إلى مذكر ومؤنث، وهذا النبات: كريم، أي مرضي كثير المنافع ﴿إنَّ في ذَلِكَ

لآيَةً﴾ إن في إنبات النبات بأصنافه العديدة لعلامة واضحة على وحدانية الله[١] وسعة علمه وحكمته وقدرته على إحياء الموتى يوم البعث للحساب ﴿وَمَا كَانَ أَكثَرُهُم مُؤمنين﴾ وما كان أكثر الناس مؤمنين بهذه الحجج الواضحة الظاهرة للأعين لفرط تماديهم في الضلال ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ وإن ربك لهو القوي الغالب، الرحيم بخلقه فلا يعجل بالعقوبة على من عصاه.

ثم يحذر الله المشركين أن يصيبهم مثل ما أصاب الظالمين المكذبين لنبيهم وهم فرعون وقومه. وفي هذه السورة يقص علينا القرآن قصتهم بأسلوب يرتقي إلى أعلى درجات البلاغة لا يستطيع أحد مجاراته في بلاغته. والملفت للنظر أن قصة موسى وردت مكررة في مواضع شتى من القرآن[٢]، وهذا التكرار لا يتناول القصة كلها وإنما بعض حلقاتها، وسبب ذلك أن المعاني الدينية هي مقصود القرآن من قصصه، فليس المقصود سرد المواد التاريخية، بل المواعظ والعبر التي تدلّ عليها. كما أن الغاية

---

(١) يتساءل الدكتور لستر جون زمرمان أستاذ الزراعة بكلية جوشن بأميركا:

لا يكفي أن يكون هناك ضوء ومواد كيميائية وماء وهواء لكي ينمو النبات. إن هنالك قوة داخل البذرة تنبثق في الظروف المناسبة فتؤدي إلى قيام كثير من التفاعلات المتشابكة المعقدة والتي تعمل في توافق عجيب. والبذرة التي بدأت من اتحاد خليتين مجهريتين تتألف كل منهما من عدد كبير من العناصر والعمليات تكون فرداً جديداً يشق طريقه في الحياة ويكون مشابهاً للنبات الذي أنتجه بحيث لا تنتج حبة القمح إلاّ قمحاً ولا بذرة البلوط إلاّ شجرة البلوط...

ويقول: فمن الذي أوجد تلك القوانين العديدة التي تتحكم في وراثة الصفات وفي نمو النبات؟ وسوف يقودنا هذا السؤال إلى سؤال آخر أشد تعقيداً وأكبر عمقاً وهو: من أين جاءت النباتات الأولى. ونحن لا نستطيع أن نصل بعقلنا الطبيعي ومنطقنا السليم إلى أن هذه الأشياء قد أنشأت نفسها بنفسها أو نشأت هكذا بمحض المصادفة ولا بد لنا من البحث عن خالق مبدع، ويعتبر التسليم بوجود الخالق أمراً بديهياً تفرضه عقولنا علينا.

(٢) قصة موسى مع فرعون جاءت في السور الآتية: القصص، طه، الشعراء، النمل، النازعات، الأعراف، الزخرف، غافر، الدخان، يونس.

من قصص القرآن الدعوة إلى هدى الله والتحذير من معصيته، والبشارة بثواب الله مع اختلاف الأساليب البيانية، فتارة يكون أسلوب القرآن مسهباً، وفي موطن آخر يكون موجزاً مع اختلاف الفواصل[1] من موطن لآخر، مع التنوع بالعبارات البليغة والألفاظ العذبة، وأنواع التشبيه والتمثيل، وأصناف الاستعارة، وبذلك تتجلى بلاغته وفنونه الرفيعة في التعبير.

هذا التكرار البليغ في عرض قصص القرآن برهان على كونه وحياً إلّهياً، فالشاعر أو الأديب إذا كرر قولاً لا يكون كلامه في مستوى واحد من البلاغة، بخلاف القرآن الذي حافظ على بلاغته العالية في سائر ما كرره من قصص ومواعظ ووصف.

بعد هذه المقدمة نشرع في قصة موسى مع فرعون فيطالعنا أولاً مناداة الله لموسى وتكليفه برسالته إلى فرعون وقومه ليرتدعوا عن كفرهم وظلمهم للعباد:

﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ. قَوْمَ فِرْعَونَ أَلا يَتَّقُونَ. قَالَ رَبِّ إِنِي أَخافُ أَنْ يكَذِّبُونِ، وَيَضيقُ صَدْرِي وَلا يَنْطَلِقُ لِسَاني فَأَرْسِلْ إِلَى هَارون. وَلَهُم عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أن يَقْتُلُونِ. قَالَ كَلَّا فاذْهَبَا بِآياتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُسْتَمِعُونَ. فَأْتِيَا فِرْعَونَ فقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العَالَمِينَ. أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بني إِسْرَائيل﴾ (١٠-١٧).

فالله سبحانه يقول: واذكر يا محمد إذ نادى رَبُّك موسى وكلفه بالرسالة الإلّهية وقال له ﴿أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ. قَوْمَ فِرْعونَ﴾ أن اذهب إلى القوم الظالمين وهم قوم فرعون، وقد استحقوا وصف الظلم من

---

(١) الفاصلة: هي الكلمة التي تختتم بها الآية القرآنية ولها قيمتها في إتمام المعنى ولها أثرها الصوتي في نظم الكلام. وأكثر الفواصل في هذه السورة يتمثل آخرها بحرف النون يتخللها الفواصل التي آخرها حرف الميم واللام فتأمل أيها القارىء بلاغة القرآن وفنونه الرفيعة في الأداء والتعبير. ووقع جماله الصوتي على الأذن.

جهتين: ظلمهم لأنفسهم بالكفر وظلمهم لبني إسرائيل باستعبادهم وقتل ولدانهم ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ وقل لهم يا موسى ألا تخافون عقاب الله على كفركم وظلمكم. أجاب موسى ربه: ﴿قَالَ: رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ أي يكذبون نبوتي وأنك أرسلتني إليهم ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾ من تكذيبهم إياي ﴿وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي﴾ أي لا ينطلق لساني بالكلام الذي أمرتني بتبليغه. فبعض الناس إذا اشتد بهم الغم وضاق منهم الصدر تلجلجت ألسنتهم حتى لا تكاد تبين عن مقصدهم، بالإضافة إلى ذلك هناك علة في لسانه ﴿فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ﴾ أي أرسل إلى هارون الملك جبريل بالوحي واجعله رسولاً منك معي ليؤازرني ويعاونني ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ والذنب الذي اقترفه موسى هو قتله للقبطي خطأ وسماه ذنباً بحسب زعمهم فخاف موسى أن يقتلوه قصاصاً به، فأجابه الله: ﴿قَالَ: كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا﴾ كلَّا: حرف ردع وزجر عن خوف القتل، أي كلا لن يقتلك قوم فرعون، فاذهب يا موسى أنت وأخوك إلى فرعون مؤيدين بمعجزاتنا ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ أي إننا معكما نستمع ما يجري بينكما وبينه، وهذا وعد من الله لهما بالحفظ والإعانة وتثبيت لقلوبهما، ومن كان الله معه فلا يخاف شيئاً في الوجود ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فتوجّه يا موسى مع أخيك هارون إلى فرعون وقولا له: إننا مرسلان إليك من رب العالمين برسالة لك مضمونها وفحواها: ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي اطلق سراح بني إسرائيل من عبوديتك وخلِّ سبيلهم حتى يسيروا معنا إلى فلسطين.

ويتابع القرآن فيذكر المحاورة التي جرت بين فرعون وموسى بعد تبليغه رسالة الله إليه:

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ. وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ. قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ.

فَفَرَرْتُ مِنْكُم لَمَّا خِفْتُكُم فَوَهَبَ لي رَبّي حُكْماً وَجَعَلَني مِنَ الْمُرْسَلِينَ. وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّها عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَني إسرائيلَ. قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ العَالَمِينَ. قَالَ ربُّ السَّمواتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُم مُوقِنِينَ. قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ. قَالَ رَبُّكُم وَرَبُّ آبائِكُمُ الأَوَّلِينَ. قَالَ إنَّ رَسُولَكُمُ الَّذي أُرْسِلَ إِلَيْكُم لَمَجْنونٌ. قَال ربُّ المشْرِقِ وَالمغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُما إنْ كُنْتُم تَعْقِلُونَ. قَال لَئِنِ اتَّخَذْتَ إلَهاً غيري لأَجْعَلَنَّك مِنَ المَسْجُونينَ﴾ (١٨-٢٩).

فالله سبحانه يذكر ما قال فرعون لموسى بعد أن بلّغه رسالة ربه: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فينا وَليداً﴾ أراد بذلك المنّ عليه، أي ربيناك لدينا صغيراً ولم نقتلك فيمن قتلنا من الأطفال الإسرائيليين، فهل جزاء معروفنا أن تأتي اليوم لتخالف ما نحن عليه من ديانة ﴿وَلَبِثْتَ فِينا مِنْ عُمُرِك سِنينَ﴾ وفي هذه السنين الطوال التي مكثتها عندنا لم تتحدث بشيء عن هذه الدعوة التي تقوم بها اليوم، قيل إنه مكث عندهم ثلاثين سنة ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ التي فَعَلت وأَنْتَ مِنَ الكافرينَ﴾ فهذا الذي كافأتنا أن قتلت منا نفساً وكفرت نعمتنا عليك وإحسانا إليك ﴿قَال: فَعَلْتُها إذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِينَ﴾ فقال موسى: كان قتلي للقبطي خطأ وعن جهل بأن اللكمة له ستؤدي إلى قتله ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُم لمَّا خِفْتُكُم﴾ ففررت منكم لما خفت أن تقتلوني بقتلي القتيل منكم ﴿فَوَهَبَ لي رَبّي حُكْماً﴾ أي أعطاني نبوة وعلماً وفهماً ﴿وَجَعَلَني مِنْ المرسَلِينَ﴾ وجعلني من أنبيائه الذين أرسلهم الله لهداية خلقه ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بني إسرائيلَ﴾ أي أتمنُّ عَليَّ إحسانك إليَّ وتربيتك لي وقد أسأت إلى قومي بني إسرائيل فجعلتهم عبيداً وخدماً تستخدمهم في أشق الأعمال وقتلت أبناءهم. هذا القول من موسى هو حَمْلة منه على العبودية، وتقريع لفرعون المتكبر المستبد، وانتقاد عنيف لتصرفاته.

وبعد هذه المحاورة انتقل فرعون إلى سؤال موسى عن صميم دعوته: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ العَالَمِينَ﴾ وذلك أن فرعون كان يقول لقومه ﴿مَا عَلِمْتُ لكم مِنْ إلَه غَيْرِي﴾ فلما قال له موسى إني رسول رب العالمين قال فرعون: ومن هذا الذي تزعم أنه رب العالمين؟ عندئذ أجاب موسى: ﴿قَالَ رَبُّ السَّمٰواتِ وَالأرضِ وَمَا بَيْنَهُما﴾[١] أي أن الله خالق الأشياء كلها: عالم السمٰاء وما فيه من نجوم وكواكب وغيرها، وعالم الأرض وما فيه من بحار وقفار وجبال وأشجار ونبات وحيوانات، وما بينهما من هواء وأشعة وأبخرة وغازات ﴿إن كُنتُم مُوقِنينَ﴾ إن كان يُرجى منكم الإيمان بوجود الخالق عن علم ثابت الذي يؤدي إليه النظر الصحيح.

سمع فرعون كلام موسى فالتفت إلى من حوله من الأشراف قائلاً لهم على سبيل الاستهزاء: ﴿ألا تَسْتَمِعُونَ﴾ فيجيبهم موسى قائلاً: ﴿رَبُّكُم وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلين﴾[٢] أي أنه خالقكم وخالق آبائكم وأجدادكم مِنْ قبلكم، ولكن فرعون لا يقتنع بكلام موسى فيقول لمن حوله: ﴿إنَّ رَسُولَكُمُ الذي أُرْسِلَ إلَيْكُمْ لَمَجْنونٌ﴾ وقد سمى فرعون موسى رسولاً من باب السخرية له لأنه لا يعتقد بأنه رسول الله مؤكداً سخريته له بوصفه

---

(١) هذا النص القرآني ﴿رب السماوات والأرض وما بينهما﴾ رد على المعتقدات المصرية القديمة التي كانت شائعة إذ ذاك. فقد كان للسماء إلاهة اسمها نوت (Nout) تصوروها امرأة عملاقة جسمها مقوس فوق الأرض على شكل قبة. وقد كان للأرض إلَه اسمه غب (Gheb) وهو زوج نوت وهناك إلَه اسمه (Chou) ويمثل الفضاء الجاف الذي بين السماء والأرض (عن كتاب: مصر، تأليف دريوتون وجاك فانديه - تعريب الأستاذ عباس بيومي).

(٢) هذا القول نفي لألوهية فرعون كما أنه رد على المعتقدات المصرية التي كانت تقول بوجود آلهة للموتى أمثال الإلَه (سكر) إلَه جبانة منف، والإلَه (ختي امتيو) إلَه جبانة (ابجو). كما أن هذه الآية تنكر عبادة الملوك الموتى «فعند موت الملك يقام له بجوار قبره معبد تستمر فيه عبادته باعتباره إلَهاً متوفىً» (عن كتاب مصر تأليف دريوتون وجاك فانديه).

بالجنون. ولكن موسى يتابع قوله في وصف ربوبية الله غير مكترث بسخريته: ﴿رَبُّ المَشْرِقِ وَالمغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إنْ كُنْتُم تَعْقِلُون﴾ فالمشرق والمغرب كناية عن الشمس ونورها وهذا النظام السائد في الكرة الأرضية حيث تدور حول محورها أمام الشمس فتشرق الشمس في المكان المواجه لها من الأرض وتغيب في المكان المقابل، وكلمة ﴿مَا بينهما﴾ كناية على ما تشرق عليه الشمس من مدن وقرى(١).

ضاق فرعون بموسى ذرعاً فانتقل إلى تهديده: ﴿قَالَ: لَئِنِ اتَّخَذْتَ إلَهاً غيري لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المَسْجُونينَ﴾ أي لئن اتخذت يا موسى رباً غيري لأجعلنك من جملة من عرفت أحوالهم في سجوني.

هذا التصريح القرآني بألوهية فرعون هو حقيقة تاريخية فقد كان الملك عند المصريين الفراعنة إلَهاً وكان على الدوام ابن (آمون رع) لا يحكم مصر بحقه الإلَهي فحسب بل يحكمها أيضاً بحق مولده الإلَهي، فهو إلَه رضي أن تكون الأرض موطناً له إلى حين(٢).

ونستخلص مما تقدم أنه كان للمصريين القدماء عدة آلهة بجانب تأليههم لملوكهم، وقد أشار القرآن إلى ذلك إشارة صريحة في سورة الأعراف: ﴿وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك...﴾ الآية رقم ١٢٧.

كل هذه الحقائق التي جاء بها النبي الأمي محمد ﷺ من عند ربه هي دليل واضح على صدق نبوّته وأن القرآن وحي إلَهي.

---

(١) هذا رد على المعتقدات السائدة آنذاك عند المصريين الذين جعلوا لكل مقاطعة ولكل بلدة رباً مختصاً بها.

(٢) قصة الحضارة (ول ديورانت).

قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾

شرح المفردات

ثُعْبَانٌ مُبِينٌ: ظاهر أنه ثعبان بلا تمويه ولا تخييل.

وَنَزَعَ يده: أخرجها من طوق قميصه.

فإذا هي بَيْضَاءُ للناظرين: بياضاً نورانيًا يغشي الأبصار.

فماذا تأمرون: فبم تشيرون؟

أَرْجِهْ وَأَخَاهُ: أخِّر أمرهما ولا تعجل بعقوبتهما.

حاشِرِينَ: من يجمع الناس من شرطة وجند.

لِميقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُوم: لموعد يوم محدد.

بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ: بقوة فرعون وعظمته.

تَلْقَفُ: تبتلع بسرعة.

يَأْفِكُون: يكذبون ويُصرفون عن الحق إلى الباطل.

فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ
وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى
عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ
خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾
إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ * وَأَوْحَيْنَآ
إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ
حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾
وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾
وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾
فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا

شَـرح المفـردَات

لأقطعنّ أيديكم وأرجلكم مِنْ خِلاف: أي اقطع أيديكم اليمنى وأرجلكم اليسرى.
لا ضَيْرَ: لا ضرر علينا فيما هددتنا به.
أَسْرِ بعبادي: سر يا موسى ليلاً ببني إسرائيل.
إنَّكم مُتَّبَعُونَ: ملاحقون من فرعون وجنده.
لَشِرْذِمَةٌ: طائفة قليلة.
لغَائظون: فعلوا أفعالاً تغضبنا وتغيظنا.
حاذرون: متيقظون من دأبنا الحذر.
مَقَام كَريم: مساكن حسنة.
أورثْنَاهَا: ملكناهم إياها تمليك الميراث.
فَأَتْبَعوهم مُشْرِقين: فلحقوا بهم وقت شروق الشمس.
تراءى الجمعَانِ: رأى كل جمع منهما الآخر.

لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾

شرح المفردات

لَمُدْرَكون: سيلحقون بنا.

فانْفَلَق: فانشق إلى آثني عشر طريقاً.

كُلُّ فِرْقٍ كالطَّوْد العَظِيم: كل قطعة من البحر على جانبي كل طريق كالجبل الضخم.

أزْلَفْنا ثَمَّ الآخَرِينَ: قربنا هنالك فرعون من البحر.

تـَابع سُورَةِ الشـعَراء

ولما قهر موسى فرعون بالحجج الواضحة، وجابهه فرعون بالتهديد بالسجن أعلن موسى أنه يملك الدلائل الحسية على صدق نبوته:

﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيءٍ مُبينٍ. قَالَ فَأْتِ بِهَا إنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ. وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ. قَالَ للملأِ حَوْلَهُ إنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ. يُرِيدُ أن يُخْرِجَكُم مِنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمرونَ. قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابعَثْ في المدَائِنِ حَاشِرِينَ. يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَليمٍ﴾ (٣٠-٣٧).

فموسى يقول لفرعون: أتسجنني ولو جئتك ببرهان قاطع واضح على صدق نبوتي فأجابه فرعون: فأتِ بهذا البرهان إن كنت محقاً فيما تقول ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبينٌ﴾ فألقى موسى عصاه على الأرض فإذا بها تتحول إلى ثعبان ظاهر واضح غاية الوضوح ﴿وَنَزَع يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ للنَّاظِرينَ﴾ أي أدخل يده في فتحة قميصه عند الصدر ووضعها تحت إبطه ثم نزعها فإذا هي تشعّ بشعاع يكاد يغشي الأبصار ﴿قَالَ لِلملأِ حَوْلَهُ﴾ قال فرعون لأشراف قومه لما رأى هذه العجائب من موسى ﴿إنَّ هٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ إن موسى لبارع في فن السحر وهو ﴿يُريدُ أنْ يُخْرِجَكُم مِنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ﴾ أي يريد أن يستحوذ على قلوب الناس بسحره فيكثر أعوانه وأنصاره ليأخذ البلاد منكم ويخرجكم من سلطانكم وحكمكم، وقد يكون المعنى: إنما يريد أن يُخرج خدمكم وعبيدكم بني إسرائيل بسحره من أرض مصر ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ فأي شيء تأمرون في شأن موسى وماذا تشيرون فيه؟ ﴿قَالُوا: أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ قال الأشراف: أخّر أمرك في موسى وهارون ﴿وَابْعَثْ في المَدائِنِ حَاشِرِينَ﴾ وأرسل إلى أقاليم مصر أعوانك وجندك ليجمعوا لك السحرة المهرة لتجابه بهم سحر موسى.

ثم يبيّن القرآن المباراة بين السحرة وبين المعجزة التي أيّد الله بها موسى:

﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ. وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُم مُجْتَمِعُون. لَعَلَّنا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الغَالِبِينَ. فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ: أَئِنَّ لَنَا لأَجْراً إن كُنَّا نَحْنُ الغَالِبِينَ. قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إذاً لَمِنَ المقَرّبينَ. قَالَ لَهُم مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُم مُلْقُونَ. فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالوا: بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الغَالِبونَ. فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ. فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدينَ. قَالُوا: آمَنَّا بِربِّ العَالَمِينَ. رَبِّ مُوسَى وَهَارونَ﴾ (٣٨ـ٤٨).

فالله سبحانه يقول: ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ أي جَمَعَ أعوانُ فرعون السحرةَ من كل الأقاليم لموعد حدّدوه وهو يوم الزينة وهو يوم عيد عند أهل مصر وحدّدوا وقت الضحى موعداً له وذلك ثقة من فرعون وحاشيته بالغلبة على موسى وتخطيطاً منهم بأن تكون المنازلة على مرأى جمع غفير من الناس ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُم مُجْتَمِعُونَ﴾ أي وقال الناس يحث بعضهم بعضاً على الاجتماع في هذا اليوم المعلوم: هل أنتم مجتمعون لتنظروا لمن تكون الغلبة لموسى أو للسحرة ﴿لَعَلَّنا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إنْ كانوا هُمُ الغَالِبينَ﴾ كي نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين لموسى، والمراد باتباع السحرة في دينهم هو الاستمرار على ما كانوا عليه من الدين لأن السحرة كانوا على دين فرعون، والمقصود المخالفة لما دعاهم موسى إليه، وعند ذلك طلب السحرة من فرعون مكافأة إن هم تغلبوا على موسى ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَونَ: أَئِنَّ لَنَا لأَجْراً إنْ كُنَّا نَحْنُ الغَالِبِينَ﴾ فأجابهم فرعون إلى ما طلبوا، وزاد على هذا الوعد ﴿قَالَ: نعم وإنَّكم إذاً لَمِنَ المقَرَّبينَ﴾ وستكونون من جلسائي وخاصة بطانتي.

ثم طلب موسى من السحرة أن يلقوا ما بأيديهم من السحر ويعرضوه على أنظار الجماهير ﴿قَالَ لَهُم مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُم مُلْقُونَ﴾ أي ألقوا ما تريدون إلقاءه من السحر مما يكون حجة لكم على إبطال ما لديَّ من المعجزات ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُم وَعِصِيَّهُم﴾ أي فألقوا ما معهم من الحبال والعصي فظهرت كأنها حيات تدب من كل جانب من الأرض وهذا ما ذكرته الآية: ﴿..فَإذَا حِبَالُهُم وَعِصِيُّهم يُخَيَّل إليه مِنْ سِحْرهم أَنَّها تَسْعَى﴾ طه: ٦٦. ثم أضاف السحرة قائلين ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الغَالِبُونَ﴾ وهو قسم بقوة فرعون وسلطانه بأنهم الغالبون لموسى.

جاء دور موسى في منازلة السحرة ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي فألقى موسى عصاه بعد أن ألقى السحرة حبالهم وعصيهم فإذا هي تبتلع كل ما افتروه من السحر الذي لا حقيقة له والذي هو تخييل وخداع، وكلمة تلقف تعني الإسراع في الابتلاع.

والسحر في مفهوم السحرة هو تخييل للنظر، ولو كان ما جاء به موسى سحراً لبقيت حبالهم وعصيهم في الأرض بعد أن خُيِّل لهم وللناس أن حية موسى ابتلعتها، ولكنهم ينظرون ويتحققون في المكان الذي ألقوا فيه حبالهم وعصيهم فلا يجدون لها أثراً، عندئذ لا يملك السحرة إلاّ أن يذعنوا للحق الواضح وهم أعرف الناس بحقيقة السحر ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ أي خرّوا سُجّداً لله لأنهم علموا أن الذي جاءهم به موسى لا يقدر عليه أحد غير الله ﴿قَالُوا: آمَنَّا بِرَبِّ العَالَمِينَ﴾ قال السحرة: صدّقنا برب العالمين الذي دعانا موسى لعبادته ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارونَ﴾ تأكيد منهم لربوبية الله.

وهكذا انقلب السحرة المأجورون مؤمنين بالله على مرأى الجموع المحتشدة من كل مكان لا يفكرون بالأخطار المحدقة بهم من جراء إيمانهم بالله، وقد صوّر عالم النحو الأخفش هذه الحادثة بوصف بليغ إذ

قال: «ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر، والجحود. ثم ألقوا رؤوسهم بعد فترة للشكر والسجود، فما أعظم الفرق بين الإلقاءين».

ويتابع القرآن فيذكر تهديد فرعون للسحرة بالقتل وبأشد العذاب من جراء إيمانهم بالله:

﴿قَالَ آمنتُم لَهُ قَبْلَ أن آذَنَ لَكُم إنَّه لَكِبيرُكُمُ الَّذي عَلَّمَكُمُ السِّحْر فَلَسَوْفَ تَعْلَمُون. لأُقَطِّعَنَّ أيدِيَكُم وَأرْجُلَكُم مِنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أجْمَعينَ. قَالُوا: لا ضَيْر إنَّا إلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ. إنَّا نَطْمَعُ أنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أن كُنَّا أوَّلَ المؤمِنِينَ﴾ (٤٩-٥١).

ففرعون يقول للسحرة: ﴿قَالَ: آمَنْتُم لَهُ قَبْل أن آذَنَ لَكُم﴾ أي أصدقتم بأن ما جاء به موسى هو حق قبل أن أعطيكم الإذن بذلك، إن قول فرعون مثال للطغيان فهو الذي قيد عقائد الناس وعقولهم فليس لأحد منهم أن يؤمن بشيء إلا بإذنه ﴿إنَّه لكَبيرُكُمُ الَّذي عَلَّمَكُمُ السِّحْر﴾ إن موسى هو رئيسكم في السحر وهو الذي علّمكم إياه ولذلك آمنتم به. لقد اعترف فرعون بكون موسى كبيرَهم مع كونه لا يحب الاعتراف بأمر يرتفع به شأن موسى لأن الذي جاء على يده يفوق ما جاء به كل السحرة فأراد أن يشكك الناس بما رأوه مُدّعياً بأن موسى ليس نبيًا بل هو كبيرهم وأستاذهم في السحر، وهي تهمة يعرف الجميع بطلانها، ثم توعد فرعون السحرة قائلاً: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي فسوف تعلمون عند عقابي إياكم وبال ما فعلتم من الإيمان بما جاء به موسى، ثم بيّن نوع تهديده قائلاً: ﴿لأقَطِّعَنَّ أيْدِيَكُم وَأَرْجُلَكُم مِنْ خِلافٍ﴾ والقطع من خلاف هو قطع اليد اليمنى والرجل اليسرى ﴿وَلأصَلِّبَنَّكُم أَجْمَعينَ﴾ ثم لأصلبن كل واحد منكم على جذع شجرة وأتركه مسمراً عليها حتى الموت ﴿قَالُوا: لاَ ضَيْرَ﴾ أي لا ضرر علينا من ذلك ﴿إنَّا إلى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ أي إننا إلى ربنا راجعون. وكلمة السحرة تظهر أنهم قد بلغوا من الإيمان مبلغاً كبيراً جعلهم يستهينون

بأرواحهم ويضحون بها في سبيل مرضاة ربهم، هذه الكلمة تجعلهم يستقبلون الموت بقبول ورضا فالإنسان مرجعه إلى الله عاجلاً أم آجلاً ولا بأس بالتعجيل بلقياه إذا كان في ذلك رضاه ونيل ثوابه العظيم. ثم أضاف السحرة قولهم: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا﴾ إننا نرجو أن يصفح لنا ربنا عن خطايانا التي سلفت قبل إيماننا فلا يعاقبنا عليها ﴿أَنْ كُنَّا أَوَّلَ المؤْمِنِينَ﴾ لأننا كنا أول من آمن بأن موسى رسول الله وصدقنا بما جاء به من الوحي من عند ربه.

ثم تأتي خاتمة قصة موسى وفيها نجاة بني إسرائيل من ظلم فرعون وهلاك فرعون وجنده:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَن أَسْرِ بعبَادي إِنَّكُم مُتَّبَعُونَ. فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي المَدائِنِ حَاشِرِينَ. إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَليلُونَ. وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ. وَإِنَّا لَجَميعٌ حَاذِرُونَ. فَأَخْرَجْنَاهُم مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ. كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بني اسرائيل. فَأَتْبَعُوهُم مُشْرِقِينَ. فَلَمَّا تَرَاءى الجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ. قَالَ: كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ. فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أنِ اَضْرِبْ بِعَصَاكَ البَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطَّوْدِ العَظِيمِ. وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ. وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ. ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُؤْمِنِينَ. وإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (٥٢-٦٨).

بعد أن أقام موسى بمصر زمناً يدعوهم إلى عبادة الله وحده ويظهر لهم المعجزات الدالة على صدق ما جاء به من الحق، وفرعون وقومه يكابرون ويرفضون دعوته، ويتمادون في غيهم وظلمهم، لذا أمر الله موسى أن يُخرج بني إسرائيل من مصر، وأن يمضي بهم حيث يُؤمر، وفي هذا يقول تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أن أَسْرِ بِعِبَادي﴾ أي أمر الله موسى وحياً بأن يسير ليلاً بالمؤمنين من بني إسرائيل وأخبره: ﴿إِنَّكُم مُتَّبَعُونَ﴾ أي إن

فرعون وجنده سيسيرون خلفهم ليحولوا بينهم وبين الخروج من مصر.

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ في المَدائِنِ حَاشِرِينَ﴾ في الكلام هنا حذف، أي أنه سار كما أمره الله، فلما علم فرعون بذلك أرسل جنده وأعوانه إلى مدائن مملكته يجمعون له الأشداء من قومه للحاق بموسى وقومه والحؤول بينهم وبين الخروج من مصر، ثم قال فرعون لجنده بعد التعبئة العامة: ﴿إنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ أي إن بني إسرائيل الذين فروا مع موسى هم طائفة قليلة حقيرة، يريد بقوله هذا إثارة الحمية في نفوس جنده. ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ ونحن قوم من عادتنا التيقظ والحذر ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي فأخرج الله فرعون وجنده من أرض مصر وفيها البساتين وعيون الماء، أخرجهم من مصر وهم يلحقون بموسى ومن معه من بني إسرائيل ﴿وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ وتركوا وراءهم ما كانوا يقتنون من كنوز الذهب والفضة والقصور والمنازل الحسنة التي كانوا منعمين فيها ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بني إسْرَائيلَ﴾ أي مثل هذا النعيم الذي وصفه الله ملّكه لبني إسرائيل على طريقة تمليك مال المورث للوارث ﴿فَأَتْبَعُوهم مُشْرِقينَ﴾ فلحق فرعون وجنده ببني إسرائيل وقت شروق الشمس ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ﴾ فلما رأى الجمعان بعضهما بعضاً، جماعة بني إسرائيل، وجماعة فرعون وجنده ﴿قَالَ أَصْحَاب مُوسَى إنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ أي قال بنو إسرائيل لموسى: إن فرعون وجنده سيدركوننا وينزلون بنا الهلاك، قالوا ذلك بعد أن وصلوا إلى ساحل البحر الأحمر فلم يروا إلّا البحر أمامهم وفرعون وجنده خلفهم ﴿قَالَ: كَلَّا إنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ أي قال موسى: ليس الأمر كما ذكرتم، كلا إنكم لن تُدرَكوا، إن معي ربي سيهديني إلى طريق أنجو فيه من فرعون وجنده وقد وعدني ذلك ولن يخلف وعده. هذه الجملة: ﴿إنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ ما أحرى أن يرددها المؤمنون عندما يرون الخطر يحدق بهم، والمصائب والمحن تتوالى عليهم فتخفف من جزعهم وغمهم وتلهمهم الصبر والاتكال على الله يقيناً منهم بأن الله قادر

على كشف البلاء وفتح أبواب الفرج للمكروبين، والله لن ينسى عباده المؤمنين من فضله ورحمته.

﴿فَأَوْحَيْنَا إلى مُوسَى أنِ آضْرِبْ بِعَصَاكَ البحر﴾ أي أمر الله موسى عن طريق الوحي[١] أن يضرب بعصاه البحر فضربه ﴿فَانْفَلَقَ﴾ فانشق البحر إلى اثني عشر طريقاً على عدد أسباط بني إسرائيل وقام الماء عن يمين الطريق وعن يساره ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطَّوْدِ العَظِيمِ﴾ فكان كل قسم من الماء على جانبي الطريق عالياً كالجبل العظيم، وبعد أن صار البحر على هذا الشكل أمر موسى بني إسرائيل بمتابعة السير في الطرق المنشقة في البحر ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ﴾ وقرّب الله فرعون وجنده إلى البحر وساروا في هذه الطرق وراء موسى وبني إسرائيل ﴿وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعينَ﴾ وأنجى الله موسى ومن معه بحفظ البحر متماسكاً حتى تم عبورهم إياه وخروجهم إلى الشاطىء الآخر ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ﴾ ثم أغرق الله فرعون وجنده بإطباق البحر عليهم فلم ينجُ منهم أحد ﴿إِنَّ في ذَلِكَ لآيةً﴾ إن في قصة موسى لعبرة لمن يعتبر ﴿وَمَا كَان أَكْثَرُهُم مُؤْمِنِينَ﴾ وما كان أكثر هؤلاء المشركين الذين تدعوهم إلى الإسلام يا محمد بمصدقين بما جئت به من الحق ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ وإن ربك لهو القوى الغالب للمكذبين رسله الرحيم بعباده المؤمنين.

---

(١) الوحي هي الكلمة الإلّهية التي تُلقى وتُبلّغ إلى أنبيائه وهي على أنواع: إما برسول مشاهد تُرى ذاته ويسمع كلامه كتبليغ الملك جبريل للرسول محمد في صورة معينة، أو بسماع كلام الله من غير رؤيته كما حصل لموسى. وإما بإلقاء الكلام في الروع كما قال الرسول محمد: «إن روح القدس نفث في روعي» والروع هو القلب أو الذهن أو العقل. وقد يكون الوحي بإلهام كما حصل لأم موسى، وقد يكون الوحي من الله لأنبيائه عن طريق رؤيا في المنام.

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ

شرح المفردات

فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ: فنستمر على القيام بعبادتها.

حكماً: فهماً وعلماً، أو نبوة ورسالة إلى الخلق.

لِسَانَ صِدْقٍ: ثناء حسناً وذكراً جميلاً.

في الآخرين: في من يأتي بعد موتي من المؤمنين.

ولا تُخزني يَوْمَ يُبعثون: ولا تفضحني وتعذبني يوم القيامة.

أُزْلِفَت الجَنَّةُ: قُربت بحيث يُرى نعيمها.

لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾

شـرح المفـردات

بُرِّزَت الجحيم: أُظهرت جهنم بحيث تُرى أهوالها.

للغَاوين: للضالين عن سبيل الله.

فَكُبْكِبُوا فيها: فألقوا على وجوههم.

تالله: والله (التاء حرف قسم).

حميم: قريب مشفق.

كَرَّةً: رجعة.

تـابع سُورَة الشـعَراء

وبعد قصة موسى ينتقل بنا القرآن إلى الكلام عن قصة إبراهيم ومحنته مع أبيه وقومه الذين كانوا يقترفون الآثام التي توجب غضب الله ولا يستجيبون لنصحه، وهي نفس المحنة التي كان يعاني منها محمد ﷺ مع قومه:

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِم نَبَأَ ابْراهيمَ. إذْ قَالَ لأبيه وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدونَ. قَالُوا نَعْبُدُ

أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ. قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُون. أو يَنْفَعُونَكُم أَوْ يَضُرُّونَ. قَالُوا: بَلْ وَجَدْنَا آباءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ. قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَا كُنْتُم تَعْبُدُونَ. أَنْتُم وآباؤكم الأَقْدَمُون. فَإِنَّهُم عَدُوٌّ لي إِلاَّ رَبَّ العَالَمِينَ﴾ (٦٩-٧٧).

فالله سبحانه يقول: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِم نَبَأَ ابْراهيمَ﴾ أي واقصص على قومك من المشركين يا محمد خبر إبراهيم ﴿إِذْ قَالَ لأبيه وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدونَ﴾ حين قال إبراهيم لأبيه وقومه: أي شيء تعبدون؟ لقد سألهم عن عبادتهم وكان يعلم أنهم عبدة أصنام، وإنما فعل ذلك ليتخذ من جوابهم دليلاً يفحمهم به بأن ما يعبدون لا يستحق العبادة بأي وجه من الوجوه.

لقد أجاب قوم إبراهيم: ﴿قَالوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً﴾ أقرّوا بأنهم يعبدون أصناماً، وهذه الأصنام من صنع أيديهم، وكان بعضها من ذهب أو فضة أو نحاس أو خشب ﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ فنستمر مقيمين على عبادتها وخدمتها، قالوا ذلك على سبيل الابتهاج والافتخار بعبادتها، فأجابهم إبراهيم بهذا الجواب المفحم: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُم إِذْ تَدْعُونَ﴾ أي هل يسمعون دعاءكم حين تلجأون إليهم بالدعاء وتستغيثون بهم، ولن يستطيع أحد أن يدّعي بأنها تسمع لأنها جماد من الجمادات، ثم أضاف إبراهيم قوله: ﴿أو يَنْفَعُونَكُم أَوْ يَضُرُّونَ﴾ وهل يقدمون لكم نفعاً أو يضرونكم بترككم لعبادتها، فعند هذه الحجة الدامغة لم يجد قومه حجة يستندون لها إلاّ قولهم: ﴿قالوا: بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِك يَفْعَلُونَ﴾ هذه هي الحجة التي تعللوا بها إنها التقليد الأعمى للآباء والأجداد بدون روية ولا تفكير، فالتقليد للآباء هو أكبر عقبة لهم للقبول بالحق، فالآباء والأجداد كانوا في بداهة من التفكير والعقل ثُم تابعهم الأبناء والأحفاد في معتقداتهم الباطلة. ثم يقول إبراهيم لهم ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَا كُنْتُم تَعْبُدونَ﴾ أي فهل أبصرتم وتفكرتم في ما كنتم تعبدون من هذه الأصنام ﴿أَنْتُم وآباؤكُمُ الأَقْدَمونَ﴾ وقد وصف

إبراهيم آباءهم بالأقدمين دلالة على تقادم عبادة الأصنام عندهم فهم ليسوا حديثي العهد بعبادتها ﴿فَإنهم عَدُوٌّ لي إلاَّ رَبَّ العَالَمِينَ﴾ أي إني فكرت في أمري فَرَأَيْتُ عبادتي للأصنام هي عبادة للعدو فاجتنبتها، لقد صرح بذلك تعريضاً بهم، وهذا أبلغ في الوعظ من التصريح بأن الأصنام أعداء لهم، فالأصنام هي أعداء لعابديها لأنهم يتجشمون المشقات في طقوس العبادة لها بحيث لا يعود عليهم نفع من ذلك، كما أنها تكبّل العقل بالأوهام والخرافات التي تجلب الشقاء والحيرة، بالإضافة إلى ذلك فإن عبادة الأصنام تستوجب غضب الله وعذابه في الآخرة بسبب الانصراف عن عبادة الله المستحق وحده للعبادة.

ثم يصور القرآن إيمان إبراهيم العميق بربه وصلته الوثيقة به:

﴿الَّذي خَلَقَني فَهُوَ يَهْدِينِ. والَّذي هُوَ يُطْعِمُني وَيَسْقِينِ. وَإِذَا مَرِضْتُ فهو يَشْفِينِ. والَّذي يميتني ثُمَّ يحيينِ. والَّذي أَطْمَعُ أنْ يَغْفِرَ لي خَطيئتي يَوْمَ الدِّينِ. رَبِّ هَبْ لي حُكْماً وَأَلْحِقْني بالصَّالِحينَ. وَاجْعَل لي لِسَانَ صِدْقٍ في الآخِرين. واجْعَلْني مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ. وَاغْفِر لأبي إنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّين. وَلاَ تُخْزني يَوْمَ يُبْعَثُونَ. يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ ولا بَنُونَ. إلاَّ مَنْ أتى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَليمٍ﴾ (٧٨-٨٩).

فالله تعالى يذكر ما قال إبراهيم لقومه عن ربه الذي خصه بالعبادة ﴿الَّذي خَلَقَني فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ أي الله وحده هو الذي يهديني إلى الصواب في القول والعمل ويسددني للرشاد ﴿وَالَّذي هُوَ يُطْعِمُني وَيَسْقِينِ﴾ وهو الذي يرزقني الطعام والشراب، وعلى المؤمن أن يستشعر هذه الحقيقة فالله وحده هو الذي يرزقه فلا يذلّ لأحد ولا يهدر كرامته في سبيل الحصول على الرزق ولا يخاف من الموت جوعاً فإن الله سيرزقه كما يرزق كل مخلوق على وجه الأرض ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ في الأَرض إلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾.

﴿وإذا مَرِضْتُ فهُو يَشْفِينِ﴾ وإذا سقم جسمي واعتل فهو يبرئه

ويعافيه، نعم إنه الإيمان الوثيق بربه الذي يفعل العجائب، فكم من مريض أعيا علاجه نطس الأطباء ثم برىء وشفي من مرضه بفضل إيمانه العميق ويقينه بالله، هذه حقيقة ذكرها كثير من الأطباء في سجلّ حياتهم ورأوا فيها العجائب التي يحدثها الإيمان بالله في شفاء الأمراض، وإنما قال إبراهيم: مرضت دون أمرضني أدباً مع ربه حين نسب الخير لله والسّيِّىء لنفسه، وكذلك لأن كثيراً من أسباب المرض راجعة إلى سلوك الإنسان بتفريطه في الأكل، والإرهاق الشديد في العمل والإسراف في معاصي الله، هذا مع العلم أن إبراهيم منزه عن عصيان الله.

﴿والذي يُميتُني ثم يُحْيينِ﴾ فالله يميتني في الوقت الذي يشاء ويحييني بعد الممات يوم البعث للحساب والمجازاة ﴿وَالَّذي أَطْمَعُ أن يَغْفِرَ لي خَطيئتي يَوْمَ الدِّينِ﴾ وهو الذي أرجو من واسع رحمته أن يغفر لي ذنبي يوم الجزاء في الآخرة، وخطايا إبراهيم هي خطايا الأبرار وهي ليست خطايا بالنسبة لعامة الناس لأن الأنبياء معصومون عن الذنوب، وفي طلب إبراهيم المغفرة من ربه تعليم لأمته بأن يجتنبوا المعاصي ويكونوا على حَذَرٍ منها وأن يستغفروا ربهم من ذنوبهم ويقروا بخطاياهم ويندموا عليها، وأن يحاسبوا أنفسهم على أعمالهم ﴿رَبِّ هَبْ لي حُكْماً﴾ رب امنحني الحكمة والحكم بين الناس بالحق ﴿وألحقني بالصّالِحينَ﴾ ووفقني للأعمال التي أنتظم بها في فئة الصالحين من عبادك ﴿وَاجْعَل لي لِسَانَ صِدْقٍ في الآخِرِينَ﴾ واجعل لي يا رب ثناء حسناً وذكراً جميلاً في الأمم التي تجيء بعدي، ولقد أجاب الله دعاءه فكل أمة تثني عليه محبة له وتدعي أنها على ملته، وفي الآية دليل على استحباب كسب الذكر الجميل ﴿وَاجْعلني من وَرَثَةِ جَنَّةِ النعيم﴾ واجعلني يا رب ممن يدخلون الجنة ويتمتعون بنعيمها ﴿وَاغْفِرْ لأبي إنَّه كانَ مِنَ الضَّالِّين﴾ أي اصفح عن أبي واغفر له ذنوبه إنه كان ضالاً عن طريق الهدى، وقد كان إبراهيم قد

وعده أبوه أن يؤمن بالله ويترك عبادة الأصنام فلذلك استغفر له، فلما تبين له خلاف ذلك تبرأ منه. ثم تابع إبراهيم دعاء ربه: ﴿وَلا تُخْزِني يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ ولا تذلني ولا تهني بعقابك يوم تبعث عبادك من قبورهم أحياء للوقوف بين يديك للحساب والمجازاة على أفعالهم ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ ولا بَنُونَ﴾ يوم لا ينفع من كفر بك يا رب وعصاك في الدنيا مال قد جمعه، ولا بنون له فيدفع ذلك عنه عقاب الله إذا عاقبه ﴿إلاَّ مَنْ أتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَليمٍ﴾ والقلب السليم هو القلب الخالص لله وحده، السليم من آفات الكفر والمعاصي والنفاق والأخلاق السيئة، فمن جاء بهذا القلب السليم الطاهر فهو من الناجين من عذاب الله بمشيئته.

ويتابع القرآن فيذكر مصير المتقين ومصير الضالين يوم القيامة:

﴿وَأُزْلِفَتِ الجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ. وَبُرِّزَتِ الجحيمُ لِلغَاوِينَ. وَقِيلَ لَهُمْ أيْنَ مَا كُنْتُم تَعْبُدونَ. مِنْ دُونِ اللّهِ هَلْ ينصُرُونَكُم أو يَنْتَصِرُونَ. فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالغَاوون. وَجُنُودُ إبْلِيسَ أجْمَعُونَ. قَالوا وَهْم فِيهَا يَخْتَصِمُونَ. تَاللَّهِ إنْ كُنَّا لَفي ضَلالٍ مُبينٍ. إذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ العَالَمينَ. وَمَا أضَلَّنَا إلاَّ المجرِمُونَ. فَما لَنَا مِنْ شَافِعينَ. وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ. فَلو أنَّ لَنا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ المؤْمِنينَ إنَّ في ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أكْثَرُهُم مُؤمِنِينَ. وَإنَّ رَبَّك لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (٩٠-١٠٤).

فالله سبحانه يقول: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي قربت الجنة وأدنيت للمتقين ليدخلوها وهم الذين اتقوا عقاب الله في الآخرة بطاعتهم إياه في الدنيا والكف عما نهاهم عنه ﴿وَبُرِّزَتِ الجَحِيمُ لِلغَاوِينَ﴾ وأُظهرت النار للذين كفروا وضلوا عن هدى الله بحيث يرون ما فيها من أنواع العذاب ويوقنون بأنهم سيعذبون بها ليشتد حزنهم وغمهم ﴿وَقيل لهم: أين مَا كُنْتُم تَعْبُدون من دُونِ اللّهِ﴾ ويقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ: أين أصنامكم التي كنتم تزعمون في الدنيا أنها شفعاؤكم في هذا الموقف

الرهيب من غير الله ﴿هَل يَنْصُرونَكُم﴾ بدفع العذاب عنكم ﴿أَوْ يَنْتَصِرُون﴾ أو ينفعونكم بانتصارهم. فهم كانوا في الدنيا لا ينفعونهم ولا يضرونهم فبالأحرى يوم القيامة ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا﴾ أي جمعوا وطرحوا في النار على وجوههم ﴿وَالغَاوون﴾ وطرح معهم في النار قادتهم المضلون الذين أوقعوهم في الغي والضلال ﴿وَجُنُودُ إبليس أجمعون﴾ وطرح في النار كذلك أتباع إبليس من ذريته أو من ذرية آدم الذين اتبعوه في الضلال ﴿قَالُوا وَهُم فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ قال هؤلاء جميعاً وهم في النار يتنازعون وَيتخَاصَمُون ﴿تَاللَّهِ إنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبينٍ﴾ أي نقسم بالله لقد كنا في دنيانا في ضلال واضح، لقد صرّحوا بذلك لإظهار ندمهم وتحسرهم وعظم خطئهم مع وضوح الحق ﴿إذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ العَالمِينَ﴾ إذ نسويكم أيها المعبودين من دون الله برب العالمين في استحقاق العبادة مع عجزكم وقدرته ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إلاَّ المجرِمُونَ﴾ وما أضلنا عن الهدى إلاّ رؤساؤنا المجرمون الذين حسَّنوا لنا الكفر والمعاصي ﴿فَما لَنَا مِنْ شَافِعينَ﴾ فليس لنا في هذا اليوم من شفيع يشفع لنا ويخلّصنا من العذاب ﴿وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ وليس لنا من صديق خالص الود لأنه لا يتصادق في الآخرة إلاّ المؤمنون، وأما أهل النار فبينهم العداوة والبغضاء ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ المؤْمِنين﴾ فلو أن لنا رجعة إلى الحياة الدنيا فنطيع ربنا ونحسن عملنا ونكون من جملة المؤمنين الناجين من عذاب الله ﴿إنَّ في ذَلِكَ لآيةً﴾ إن ما ذكر من قصة إبراهيم لعظة وعبرة لمن يعتبر ﴿وَمَا كان أكْثَرُهُم مُؤمنينَ﴾ وما كان أكثر قومك يا محمد مذعنين لدعوتك، أو ما آمن أكثر الناس بل كذّبوا رُسُله وخالفوا أمره ﴿وَإنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ وإن ربك لهو القوى الغالب لمن عصاه، الرحيم بمن تاب من عباده ورجع إليه بالطاعة.

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ
أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ
أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾
قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ
﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا۟ لَئِن
لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾
فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ
وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا
تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾
وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ

شرح المفردات

الأَرْذَلُونَ: الأقلون جاهاً ومالاً.

المرجُومين: رجمه، رماه بالحجارة ويستعمل في القتل مطلقاً.

فَافتح: فاحكم.

في الفُلْكِ المشْحُونِ: في السفينة المملوءة بالناس والحيوان والطير.

بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾
وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا
الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ
وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا
أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾
وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ
وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ
ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ
رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ
مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ
﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ

شَرح المفردات

رِيع : طريق أو مكان مرتفع .
آيَة : قصراً مشيداً عالياً .
تَعْبَثُون : تعملون ما لا فائدة فيه .
مَصَانِع : حصوناً وقصوراً وحياضاً للماء .
بَطَشْتُم : تقتلون عند الغضب .
جَبَّارين : متكبرين متسلطين بلا رأفة .
أمدَّكُم : أعطاكم .
خُلُقُ الأوَّلين : طبيعة وعادة الأولين الذين كانوا قبلنا .
طَلْعُهَا : ما يبدو من ثمرة النخل في أول ظهورها .
هَضِيم : اللطيف الدقيق أو اليانع النضيج .

مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَـٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَـٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾

شـرح المفـردات

فارهين: حاذقين بنحتها أو بطرين.

من المسحَّرين: من الذين سحروا كثيراً حتى غلب على عقولهم.

شِرْبٌ: نصيب.

فَعَقَروها: فذبحوها.

تـابع سُورَة الشعَراء

وبعد الكلام عن إبراهيم عليه السلام ينتقل بنا القرآن إلى الكلام عن نوح وما صادف من قومه من إعراض عن دعوته وتهديد له:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ المرْسَلِينَ. إذْ قَالَ لَهُم أخُوهم نُوحٌ ألاَ تَتَّقُونَ. إنِّي لكم رَسُولٌ أمينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأطيعُونِ. وَمَا أسْألُكُم عَلَيْـهِ مِنْ أجْرٍ إنْ أجْرِيَ إلاَّ عَلَى رَبِّ العَالَمِينَ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وأطيعُونِ. قَالُوا أنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأرْذَلُونَ. قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. إنْ حِسَابُهُمْ إلاَّ عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرونَ. وَمَا أنا بِطَارِدِ المُؤمِنينَ. إنْ أنَا إلاَّ نَذِيرٌ مُبينٌ. قَالُوا لَئِن لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ المرْجُومِينَ. قَالَ رَبِّ إنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ. فَافْتَحْ بَيْني وَبَيْنَهُم فَتْحاً وَنَجِّني وَمَنْ مَعِيَ مِنَ المؤْمِنِينَ. فَأنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ في الفُلْكِ المشْحُونِ. ثُمَّ أغْرَقْنَا بَعْدُ البَاقِينَ. إنَّ في ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أكثَرُهُم مُؤمنينَ. وَإن رَبَّك لَهُو العَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (١٠٥-١٢٢).

فالله سبحانه يقول: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ المرْسَلِينَ﴾ أي كذب قوم نوح رسول الله نوحاً، وإنما قال المرسلين بصيغة الجمع لأن من كذب رسولاً من عند الله فكأنه كذب رسل الله جميعاً لأن رسالتهم من الله واحدة إلى الخلق ﴿إذْ قَالَ لَهُم أخُوهُم نُوحٌ﴾ والأخوة هنا أخوة نسب لا أخوة دين ﴿ألاَ تَتَّقُونَ﴾ ألا تخافون الله فتحذروا عقابه على كفركم ﴿إنِّي لَكُم رَسُولٌ أمِينٌ﴾ إني رسول من الله صادق فيما أبلغكم عن الله تعالى أمين على وحيه إليَّ ﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾ فاتقوا عقاب الله على كفركم وأطيعوني في نصيحتي لكم ﴿وَما أسْألُكُم عَلَيْهِ مِنْ أجْرٍ﴾ وما أطلب منكم على نصيحتي لكم من ثواب وجزاء ﴿إنْ أجْرِيَ إلاَّ عَلَى رَبِّ العَالَمِينَ﴾ وما ثوابي وجزائي إلاّ على الله رب العالمين. هكذا تكون الدعوة إلى الله ليس فيها أجر ومكافأة من الخلق بل هي تضحية يبتغي بها الداعي وجه الله وبذلك يكون

لها الأثر الفعال في نفوس من يعظهم ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وأطيعُونِ﴾ كرَّر نوح هذا القول تأكيداً على أهمية الأمر الذي دعاهم إليه. فأجابه الأشراف من قومه: ﴿قَالُوا: أنُؤْمِنُ لَكَ واتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ﴾ الاستفهام للإنكار، أي كيف نصدقك ونتبعك يا نوح والحال أنه قد اتبعك الأرذلون أي الأقلون جاهاً ومالاً من أهل الصناعات وأصحاب الحرف، وهم كانوا يقصدون أن الذين اتبعوا نوحاً إنما فعلوا ذلك طمعاً في العزة والمال. إن قولهم هذا ينبىء عن تكبر وتعجرف منهم بسبب جاههم وغناهم وأنهم لا يريدون المساواة مع غيرهم من الطبقات الفقيرة، بينما دين الله يسوِّي بين الناس جميعاً. أجابهم نوح عليه السلام ﴿قَالَ: وَمَا عِلْمي بِمَا كانوا يَعْمَلُونَ﴾ لقد قال: أي شيء أعلمني ما هم عليه من باطن أمرهم، وإنما لي ظاهر أمرهم فمن أظهر قبولاً واستجابة للإيمان ظننت به حسناً، ومن أظهر سيئاً ظننت به سوءًا ﴿إنْ حِسَابُهُمْ إلاّ عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرونَ﴾ أي وما حسابهم وجزاؤهم إلاّ على الله المطلع على ما يسرّون وما يعلنون، ولو أدركتم أن حسابهم على ربهم لما نظرتم إليهم نظرة احتقار بسبب أنهم دونكم في الجاه والمال ﴿وَمَا أنَا بِطَارِدِ المؤمنين﴾ وما أنا بمبعد هؤلاء المؤمنين الفقراء عني.

هذا نفس ما كان يفعله رؤساء قريش الذين طلبوا من رسول الله محمد ﷺ أن يطرد من آمن به من الضعفاء والفقراء، فالله يقص هذه الآيات على لسان نوح ليأخذ منها كبراء قريش وأغنياؤهم العبرة والدرس المفيد فلا يستكبرون على من دونهم في المال والجاه. وتابع نوح قوله: ﴿إنْ أَنَا إلاّ نَذِيرٌ مُبينٌ﴾ إن بمعنى ما، أي ما أنا إلاّ مخوف لكم من عذاب الله موضح لكم ما أمرني الله سبحانه بإبلاغه إياكم ﴿قَالُوا لَئِن لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِن المرْجُومِينَ﴾ أي إن لم تترك يا نوح الطعن في ديننا لتكونن من المرجومين بالحجارة، وقيل: من المقتولين، فلما سمع نوح تهديدهم لجأ إلى ربه: ﴿قَالَ رَبِّ إنَّ قَوْمي كَذَّبُونِ﴾ أي إن قومي أصروا على

تكذيبي ولم يسمعوا قولي ولا أجابوا دعائي ﴿فَافْتَحْ بَيني وَبَيْنَهُم فَتْحاً﴾ أي احكم بيني وبينهم حكماً تنتقم به ممن كفر بك ﴿ونَجِّني وَمَنْ مَعِيَ مِنَ المؤْمِنينَ﴾ وأنقذني والمؤمنين معي من مكرهم وكيدهم ومن العذاب الذي ستلحقهم به ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ في الفُلْكِ المشْحونِ﴾ أي فأنجينا نوحاً ومن معه من المؤمنين في السفينة المملوءة المثقلة بالمتاع والحيوان حين حصل الطوفان ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بعْدُ البَاقِينَ﴾ أي ثم بعد إنجاء المؤمنين أغرقنا الباقين من قوم نوح الذين ظلوا على كفرهم ﴿إنَّ في ذلِكَ لآيَةً﴾ إن في ذلك لعبرة للناس بأن من سنة الله تنجية رسله وأتباعهم المؤمنين وإهلاك الكفرة المكذبين لرسله ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُؤْمِنِينَ﴾ وما كان أكثر الذين تتلو عليهم هذه الآيات يا محمد مؤمنين بما جئت به من الحق ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحيمُ﴾ وإن ربك يا محمد لهو القوي الغالب لمن كفر به الرحيم بمن آمن وتاب فلا يعاقبه بعد توبته.

وبعد الكلام عن نوح ينتقل بنا القرآن إلى الكلام عن رسول الله هود وما وعظ به قومه عاد من المواعظ البليغة:

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ المرْسَلِينَ. إذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ. إنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأطِيعُونِ. وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إنْ أَجْرِيَ إلاَّ عَلَى رَبِّ العَالَمِينَ. أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ. وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُم تَخْلُدُونَ﴾ (١٢٣-١٢٩).

مطلع هذه الآيات وفاتحة قصة نوح واحدة فلا فائدة في إعادة التفسير ونبدأ بما وعظ به هود قومه: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ ريعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ الريع: كل مكان مشرف من الأرض مرتفع، أو طريق، أو واد. ومعنى آية: البناء العالي، أي أتبنون بكل مكان مرتفع من الأرض، أو بكل طريق بناء شامخاً ﴿تَعْبَثُونَ﴾ والعبث: اللعب والعمل بما لا فائدة فيه.

فقوم هود ما كانوا يبنون للحاجة بل لمجرد العبث وإظهار الغنى والجاه. فالنبي هود ينكر على قومه ذلك لأنه تضييع للزمان وإتعاب للأبدان من غير فائدة واشتغال بما لا يجدي نفعاً في الآخرة.

﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُم تَخْلُدُونَ﴾ والمصانع تطلق على القصور والحصون وحياض الماء، فهم يبنونها كأنهم خالدون باقون في الأرض.

ما أكثر الذين يبنون للعبث والفخر في زماننا هذا وما أضيع المال بين أيدي هؤلاء المسرفين، وما أحوجهم إلى أوصياء يحجرون على أموالهم ويحولون بينهم وبين العبث في البنيان. ما فائدة الأمة من ذلك القصر الذي أنفق على بنائه الملايين من الأموال ليتمتع بسكناه رجل ثري وعائلته وحوله عشرات الألوف من أبناء ملته ووطنه لا يجدون ما يأكلون، ولا السكن الذي إليه يأوون، أما كان بالأحرى أن يسكن ذلك الثري في بيت متوسط التكاليف يهيىء له أسباب الراحة ويوفر هذه الأموال الطائلة ويضعها في سبيل الله وفي مرافق الأمة! لماذا هذا التبذير الفاحش على الأبنية والقصور ووضع أثمن الأمتعة فيها والأثاث والتحف؟ أيحسب الذين يفعلون ذلك أنهم مخلدون في الأرض؟ ولكن ألم يعلموا أن الخلود في الأرض محال، وأن متاع الدنيا قليل، وأن الموت متربص بكل إنسان حيث سيرجع إلى ربه، وأن الناس سيسألون يوم الحساب عن النعيم الذي كانون يرفلون به في دنياهم؟!

هذا التبذير الفاحش على الأبنية والقصور التي توفّر أسباب الترف البالغ للإنسان هي التي تغريه بالخروج عن طاعة الله، وهي من أهم أسباب هلاك الأمم، وقد جاء في القرآن: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرفيها فَفَسَقُوا فيها فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدِميراً﴾.

ويتابع هود الإنكار على قومه وتحذيرهم من عذاب الله:

﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُم جَبَّارِينَ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ. أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ. وَجَنَّاتٍ وعُيُونٍ. إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ. قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الوَاعِظِينَ. إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الأَوَّلِينَ. وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ. فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُم إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (١٣٠-١٤٠).

فالنبي هود يخاطب قومه ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُم جَبَّارِينَ﴾ أي وإذا أردتم معاقبة الغير وقهره أخذتموه بالعنف والشدة فتقتلون وتضربون غاضبين بلا رأفة ولا قصد تأديب ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي اتقوا عقاب الله بترك هذه الأفعال وأطيعوني فيما أدعوكم إليه من الهدى ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ واحذروا سخط الله الذي أعطاكم من عنده ما تعلمون من أنواع النعم والخيرات ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾ أعطاكم الإبل والبقر والغنم والبنين ﴿وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ والبساتين وعيون الماء التي تحتاجون إليها ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ إني أخشى عليكم عذاب يوم شديد في الدنيا ثم يدخلكم الله في الآخرة نار جهنم بسبب كفركم ﴿قَالُوا: سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِنَ الوَاعِظِينَ﴾ أي قالوا استخفافاً به: يستوي عندنا وعظك وعدمه فإننا لن نرعوي عما نحن عليه ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الأَوَّلِينَ﴾ أي ما نحن عليه من سلوك ما هو إلاّ خُلُقُ الأولين وعادتهم من آبائنا وأجدادنا ونحن بهم مقتدون ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ وما نحن بمعذبين على ما يصدر منا من عمل ﴿فَكَذَّبُوه فَأَهْلَكْنَاهُم﴾ فكذبت عاد رسول ربهم فأهلكها الله بريح شديدة قارسة البرد ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ إن في إهلاكهم لعظة وعبرة ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ نفس الخاتمة التي ختمت بها الآيات السابقة.

وبعد الكلام عن قبيلة عاد ينتقل بنا القرآن إلى الكلام عن قبيلة ثمود

وما حلَّ بها من عذاب جزاء كفرها وتكذيبها لرسول الله صالح:

﴿كَذَّبَتْ ثَمودُ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُم أَخُوهُم صَالِح أَلاَ تَتَّقُونَ. إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. وَمَا أَسْأَلُكُم عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ العَالَمِينَ. أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَهُنَا آمنِينَ. فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ. وَتَنْحِتُون مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ (١٤١-١٥٠).

مطلع هذه الآيات نفس المطلع الذي ورد في قصة نوح للتنبيه على أن دعوة رسل الله واحدة فلا فائدة من إعادة التفسير:

فرسول الله صالح يقول لقومه: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَهُنَا آمِنِينَ﴾ أنكر عليهم اعتقادهم البقاء فيما هم فيه من النعيم كأنهم باقون في الدنيا بلا موت آمنين من عذاب الله في الدنيا والآخرة إذا استمروا على كفرهم. ثم بيَّن القرآن ما هم عليه من نعيم الدنيا ﴿في جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي عندهم حدائق مثمرات وعيون تجري بالماء﴿وزروع﴾ وبساتين فيها أنواع الزروع ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ والطلع هو أول ما يبدو من ثمرة النخل في أول ظهورها، والهضيم: ثمر النخل اللين الناضج المتلاصق بعضه ببعض ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ﴾ وتتخذون من الجبال بيوتاً حاذقين بنحتها. وقرئت: فَرِهين بمعنى بطرين فرحين ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فاتقوا عقاب الله ـ أيها القوم ـ بترك معصية ربكم. وظاهر هذه الآيات التي تكلمت عن ثمود هو طغيان اللذات المادية من المأكل والمشرب والمساكن الطيبة والانغماس في معاصي الله.

ويتابع القرآن الكلام عن قبيلة ثمود وما جرى من حوار بينها وبين النبي صالح:

﴿وَلاَ تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ. الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ ولا يُصْلِحُونَ. قَالُوا إنَّما أَنْتَ مِنَ المُسَحَّرِينَ. مَا أَنتَ إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. قَالَ هَذِه نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُم شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ. وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ. فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمينَ. فَأَخذَهُمُ الْعَذَابُ إنَّ في ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَان أَكْثَرُهُم مُؤْمِنِينَ. وَإنَّ رَبَّك لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (١٥١-١٥٩).

فالنبي صالح يقول مخاطباً قومه ﴿وَلاَ تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي لا تطيعوا ما يأمركم به المسرفون الذين يسرفون في الشهوات والمعاصي. وكلمة (المسرفين) تشير إلى أنه يحسن الاكتفاء من الدنيا بالقدر الوسط من العيش وعدم التوسع في طلبها إلى حد الاستكثار من لذاتها وشهواتها، فالإسراف يهدر ثروات الأمة ويجعل النفوس أسيرة لشهواتها، وبذلك يشيع الفساد في الأمة ويدب الوهن فيها. وهؤلاء المسرفون وصفهم الله بالمفسدين ﴿الَّذينَ يُفْسِدُون في الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ﴾ أي الذين من عادتهم وطبعهم الإفساد في الأرض بمعاصي الله ولا يقومون فيها بإصلاح تسعد به البلاد.

وبعد هذا الوعظ من صالح أجابه قومه: ﴿قَالُوا: إنَّما أَنْتَ مِنَ المسَحَّرِينَ﴾ أي إنك من الذين سحروا كثيراً حتى غُلب على عقلك ﴿ما أَنْتَ إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ ما أنت يا صالح إلاّ رجل مثلنا فكيف تزعم أنك رسول الله؟ وهذا ما كان يقوله مشركو العرب لمحمد ﷺ معتقدين أن رسول الله يجب أن يكون ملكاً من الملائكة غير مدركين حكمة الله في أن يكون الرسول بشراً يصطفيه من بني قومه ليكون قدوة لهم، ولأنه أقدر في بشريته على وعظهم وإقناعهم والنفاذ إلى قلوبهم لأنه يعلم منهج تفكيرهم وسلوكهم. وتابع القوم قولهم: ﴿فَأْتِ بِآيَةٍ إنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي فأت يا صالح بمعجزة وحجة تشهد أنك رسول الله ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ﴾ أي قال لهم

صالح حينما أعطاه الله الناقة معجزة له: هذه ناقة الله، يقال: إن الله أخرجها من صخرة أو هضبة ﴿لَهَا شِرْبٌ ولَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ والشِّرب: النصيب من الماء، أي لها نصيب من الماء ولكم نصيب منه معلوم فليس لكم أن تأخذوا الماء في اليوم الذي هو نصيبها منه ولا هي ترتاد الماء في اليوم الذي هو نصيبكم منه، ويروى أنه إذا كان يوم شربها شربت الماء كله أول النهار وسقتهم اللبن آخر النهار، وإذا كان يوم شربهم كان الماء لأنفسهم ومواشيهم وأرضهم ﴿ولا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ وأوصاهم صالح أن لا يمسوا هذه الناقة بأذى من عقر وضرب، أو شيء مما يسوؤها ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فيحل بكم من الله عذاب يوم، عظيم عذابه فيهلككم فيه ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ فذبحوا الناقة ونسب ذبحها إلى جميعهم مع أن الذي ذبحها واحد منهم وذلك لأنهم كانوا راضين عن هذا العمل ﴿فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ ولم يكن ندمهم ندم توبة بل ندم خوف من أن يحل بهم العذاب ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ فأهلكهم العذاب الذي توعدهم به صالح وكان عذابهم صيحة من السماء أهلكتهم جميعاً ﴿إِنَّ في ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أكثرهم مُؤمنين. وَإِن رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيز الرَّحِيمُ﴾ نفس الخاتمة التي ختم الله بها قصص بعض الأمم السابقة التي كذبت رسل الله تنبيهاً للقلوب الغافلة وتأكيداً على الاعتبار بما آل إليه أمرهم من هلاك.

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا

شرح المفردات

الذُّكْرَان: جمع ذكر خلاف الأنثى وهو خلاف الأنثى.

تَذَرُونَ: تتركون.

قوم عَادُون: معتدون متجاوزون الحلال إلى الحرام.

مِنَ المخْرَجين: من المطرودين.

القَالِينَ: المبغضين.

الغَابِرِينَ: الباقين في العذاب.

الأَيْكَةِ: موضع كثير الشجر والماء قرب مَدْين.

تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾

شرح المفردات

القِسْطَاسِ: الميزان.

ولا تبخسوا النَّاسَ أشْيَاءَهم: لا تنقصوا الناس من حقهم.

ولا تَعْثَوْا: ولا تفسدوا أشد الإفساد.

الجِبِلَّةِ الأَوَّلِينَ: الخليقة والأمم السابقة.

كِسَفاً مِنَ السَّماء: قطعاً من السماء (أرادوا إنزال العذاب عليهم).

عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّة: سحابة أظلتهم بعد حر شديد فاجتمعوا تحتها فأمطرت عليهم ناراً.

تَابع سُورَةِ الشعَراء

ثم ينتقل بنا القرآن إلى الكلام عن قوم لوط الذين هم أول من ابتدعوا فاحشة اللواط:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ المرسَلِينَ. إذْ قَالَ لَهُمْ أخُوهُم[1] لُوطٌ ألا تَتَّقُونَ. إنِّي لَكُم رَسُولٌ أمِين. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. وَمَا أسْألُكُم عَلَيْهِ مِنْ أجْرٍ إنْ أجْرِيَ إلاَّ عَلَى رَبِّ العَالَمِينَ. أتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ العَالَمِينَ. وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُم رَبُّكُم مِن أزْواجِكُم بَلْ أنْتُم قَوْمٌ عَادُونَ﴾ (١٦٠-١٦٦).

مطلع قصة لوط هي نفس الكلمات التي وردت من قبل في قصص الأنبياء للتأكيد على أن دعوة رسل الله واحدة وغايتها لا تفترق عن غيرها من دعوات الرسل.

فالنبي لوط يقول لقومه الذين انتشرت فيهم فاحشة اللواط: ﴿أتَأْتُون الذُّكْرانَ مِنَ العَالَمينَ﴾ استفهام إنكار وتوبيخ. والذكران: جمع ذكر مقابل الأنثى، وإتيان الذكران كناية عن وطء الرجال في أدبارهن. أي أأنتم دون الناس جميعاً تطؤون الذكور وتفعلون هذه الفعلة الشنعاء ﴿وَتَذَرُون مَا خَلَقَ لكم ربكم مِنْ أزْوَاجِكُم﴾ وتتركون ما أباح لكم ربكم من الاتصال بالإناث عن طريق الزواج تستمتعون بهن ويستمتعن بكم. والمراد بقوله تعالى ﴿ما خلق لكم ربكم من أزواجكم﴾ العضو المباح أي الوطء في الفرج المؤدي إلى النسل لأنهم كانوا يستمتعون بنسائهم في أدبارهن بجانب استمتاعهم بالرجال وفي ذلك دليل على تحريم أدبار الزوجات ﴿بَلْ أنْتُم قَوْمٌ عَادُون﴾ بل أنتم متجاوزون الحد في عصيان الله معتدون على ما حرم عليكم.

---

(١) أخوهم: أي في البلد والسكنى لا في الدين ولا في النسب لأنه ابن أخي إبراهيم وهما من أرض بابل في العراق.

ويتابع القرآن فيذكر ما حل بقوم لوط من هلاك بسبب إصرارهم على معاصي الله.

قَالُوا لَئِن لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنْ المخْرَجِينَ. قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِنَ القَالِينَ. رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ. فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ. إِلاَّ عَجُوزاً فِي الغَابِرِينَ. ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ. وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَطَراً فَسَاءَ مَطَرُ المُنْذَرِينَ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكثرهُم مُؤمنِين. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (١٦٧-١٧٥).

فقوم لوط يهددون نبيهم: ﴿قَالُوا: لَئِن لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ﴾ أي لئن لم تترك نهينا عن إتيان الذكور ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ المخْرَجِينَ﴾ لتكون من المنفيين من بلدنا، ويفهم من هذا أنهم كانوا يخرجون من بلدهم من ينتقدهم في أفعالهم ﴿قَالَ: إِنِّي لِعَمَلِكم مِنَ القَالِينَ﴾ قال لوط: إني لعملكم القبيح من المبغضين له، المنكرين فعله.

وفي قول لوط لقومه ﴿إني لعملكم من القالين﴾ دليل على أن المؤمن عليه أن ينكر المنكر بما يستطيع، فلوط لم يكن يقدر على إنكار عملهم بالفعل لأنهم كانوا كثيرين وكان وحيداً ولهذا انتقل الإنكار في حقه من الفعل إلى القول.

وبعد أن توعّد القوم لوطاً بالإخراج من بلدهم استغاث لوط بربه قائلاً ﴿رَبِّ نجني وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أي نجني يا رب وأهلي من عقابك الذي ستصيبهم به ومن عملهم الخبيث، فأجاب الله دعاءه ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أجْمَعِينَ﴾ أي نَجّى الله لوطاً وأهل بيته ومن تابعه على دينه من العقاب الذي عاقب به القوم الضالين ﴿إِلَّا عَجُوزاً في الغَابِرِينَ﴾ إلاّ امرأته العجوز فإنها كانت من الباقين في العذاب، وقد هلكت فيمن هلك من قومها لرضاها عن فعلهم وبسبب الإساءة إلى زوجها وخيانته.

ونجاة لوط جاءت بعد أن أمرته الملائكة بأن يخرج من قرية سدوم ليلاً بمن معه من أهله وأتباعه المؤمنين، وأن لا يلتفتوا خلفهم لئلا يروا هول العذاب الذي سيصيب القرية، وأن موعد هلاك قوم لوط هو الصبح، وبعد خروج لوط ومن معه من القرية والابتعاد عنها قلب الله أرض القرية بمن فيها وجعل عاليها سافلها ﴿وَأَمْطَرنا عَلَيْهم مَطَراً﴾ أي أمطر الله على هؤلاء المجرمين حجارة من السماء أهلكت من ظلّ منهم على قيد الحياة ﴿فَسَاءَ مَطَرُ المنذَرِينَ﴾ فبئس هذا المطر الذي تساقط على هؤلاء الذين أنذرهم نبيهم وخوّفهم من عذاب الله، ولكن لم يلقوا لها آذاناً صاغية بعد إنذاره إياهم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُؤمنينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ نفس الخاتمة التي ختمت بها قصص الأمم المكذبة لرسلها لإثارة الرعب والخوف من عصيان الله.

تعقيب على قصة لوط:

لقد وصف القرآن قوم لوط وأفعالهم بأنهم ﴿قَوْمٌ عَادُونَ﴾ أي أنهم تعدّوْا على حدود الشريعة الإلّهية وتعدَّوْا على قيم الحق والخير، وتعَدَّوْا على الفطرة الإنسانية وناموس الحياة، فقد جعل الله امتداد الحياة يقوم على التقاء الذكر بالأنثى سواء في الإنسان أو الحيوان، وجعل في تكوين كل منهما خصائص تجعلهما يميلان وينجذبان إلى بعضهما البعض غريزياً، وجعل هذا الاتصال عند البشر يقوم بواسطة الزواج الذي جعل أساسه بين الزوجين: الحب والرحمة ﴿وَجَعَل بينكم مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ وبهذا تنشأ الأسَر، وتقوم المسؤولية في تربية الأطفال وعدم اختلاط الأنساب. أما اللواط فيهدم كل هذه المفاهيم ويجعل الرجال ينصرفون عن النساء وفي ذلك من الفساد ما لا يمكن وصفه وتحديده، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن اللواط عامل فعال لانتشار الأمراض السارية التي تنتشر بالعدوى عند الاتصال الجنسي. كما أن اللواط يحدث بالشرج (مكان البراز) علامات

منها ضعف العضلة العاصرة حتى أنها تفقد السيطرة على عملية التبرز فيحدث من غير إرادة كما تحدث تمزق بالشرج، والشرج مليء بالميكروبات التي قد تنتقل إلى عضو الجاني فتحدث فيه التهابات بالبول، وقد يصبح المجني عليه مخنثاً إذا لازمته هذه العادة من صغره. وآخر ما طالعتنا به الأخبار الطبية عن مرض خطير هو مرض فقدان المناعة المكتسبة ويسمى (الإيدز) وقد اكتشف أن هذا المرض يصيب أكثر الذين يمارسون الشذوذ الجنسي، وينتقل هذا المرض من الرجل المصاب به إلى المرأة عند الاتصال الجنسي ولهذا كان من حكمة الله أن أرسل العذاب على قوم لوط فاستأصلهم كافة ليطهر الجنس البشري منهم.

* * *

وبعد الكلام عن قوم لوط ينتقل بنا القرآن إلى الكلام عن قوم شعيب وما كانوا عليه من تطفيف للكيل والميزان وفساد في الأرض:

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ المرسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُم شُعَيْبٌ أَلاَ تَتَّقُونَ. إِنِّي لَكُم رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. وَمَا أَسَأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ العَالَمِينَ. أَوْفُوا الكَيْلَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ المخْسَرِينَ. وَزِنُوا بِالقِسْطاسِ المسْتَقِيمِ. وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُم وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (١٧٦-١٨٣).

فالله سبحانه يقول: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ المرْسلِينَ﴾ والأيكة هي الموضع الكثير الشجر الملتف، وأصحاب الأيكة هم أهل مَدْين في رأي بعض المفسرين، ويرى البعض الآخر أنهم غير أهل مدين وأنهم ينسبون إلى غيضة كانوا يسكنونها، وأن شعيباً أرسله الله إليهم كما أرسله إلى أهل مدين. ثم وعظهم شعيب نفس العظة التي وعظها الأنبياء السابقون الذين سبق ذكرهم في هذه السورة، ثم أضاف إلى وعظهم ما كان شائعاً فيهم من

المعاصي: ﴿أَوْفُوا الكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ المخْسِرِينَ﴾ أي أعطوا الناس حقوقهم في الكيل ولا تنقصوا الناس حقوقهم عن الواجب المستحق لهم ﴿وَزِنُوا بِالقِسْطَاسِ المسْتَقِيمِ﴾ وزنوا للناس بالميزان السوي الحق الذي لا ظلم فيه ﴿وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُم﴾ ولا تنقصوا الناس حقوقهم التي يستحقونها. هذه الآية حكمها عام، فالشيء في الآية يشمل الأنواع الحسية من كافة معاملات الناس التي تندرج تحت اسم المكاييل والأوزان، كما يشمل غصب أرض الغير والتصرف فيها بغير إذنه، وأكل أموال الناس بالباطل، والابتزاز، كما تشمل الآية النواحي المعنوية من احترام الناس وتقديرهم حسب علمهم وفضلهم ومعطياتهم وتضحياتهم للمجتمع ﴿وَلاَ تَعْثَوْا في الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ اي ولا تفسدوا في الأرض أشد الإفساد بالقتل والغارة وقطع الطرق ونحو ذلك مما كانوا يفعلونه.

ثم يبين القرآن تكذيبهم لرسول الله إليهم وما أصابهم من هلاك جزاء كفرهم وعصيانهم أمر بهم:

﴿وَاتَّقُوا الَّذي خَلَقَكُم وَالجِبِلَّة الأوَّلِينَ. قَالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ المسَحَّرِينَ. وَمَا أَنْتَ إلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِن نَظُنُّكَ لِمَنَ الكَاذِبِينَ. فَأَسْقِط عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ. فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كانَ عَذابَ يَوْمٍ عَظيمٍ. إنَّ في ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُؤْمِنينَ. وإِنَّ رَبكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (١٨٤-١٩١).

فالله سبحانه يذكر ما قاله شعيب لأصحاب الأيْكَة: ﴿وَاتَّقُوا الذي خَلَقَكُم وَالجِبِلَّة الأوَّلين﴾ أي وخافوا الله واتقوا عقابه بترك المعاصي فهو الذي خلقكم وأنشأكم من العدم كما خلق الخلائق والأمم الماضية التي سبقتكم.

﴿قَالُوا إنَّما أنْتَ مِنَ المسَحَّرِينَ﴾ أي ما أنت يا شعيب إلاّ من

المسحورين الذين غَلَبَ السحر على عقولهم ﴿وَمَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ وما أنت إلّا إنسان مثلنا تأكل وتشرب ولست رسولاً من عند الله ﴿وَإِن نَظُنُّكَ لَمِنَ الكَاذِبِينَ﴾ فيما تدعيه أنك رسول الله، فإن كنت صادقاً في دعواك ﴿فَأَسْقِط عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي فأسقط علينا قطعاً من السحاب يكون فيه العذاب لنا ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ إن كنت صادقاً في دعواك بأنك رسول الله. قالوا ذلك إمعاناً في التكذيب، واستبعادهم لوقوع العذاب بهم، فإذا لم يقع العذاب ظهر كذب شعيب، فأجابهم شعيب: ﴿قَالَ: رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي إن الله أعلم بأعمالكم وبما تستوجبون عليه من العقاب ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ والظلة: سحابة تظلل، وأكثر ما وردت في القرآن فيما يكره، وعذاب الظلة هو أن الله بعث عليهم حرًّا شديداً فأخذ بأنفاسهم فخرجوا من البيوت هرباً إلى البرية، فبعث الله عليهم سحابة أظلتهم من الشمس فوجدوا تحتها برداً وانتعاشاً، ونادى بعضهم بعضاً ليستظلوا بها، فلما اجتمعوا كلهم تحتها أرسل الله تعالى عليهم منها شرراً من نار ولهباً ووهجاً عظيماً، ورجفت بهم الأرض، وجاءتهم صيحة عظيمة أزهقت أرواحهم ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي في الشدة والهول. ثم خُتمت قصة هؤلاء القوم بما خُتمت به القصص السابقة.

وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ

شرح المفردات

الرُّوحِ الأَمِينُ: الملك جبريل عليه السلام.

زُبُرِ الأَوَّلِين: كتب رسل الله السابقين.

الأعجَمِينَ: جمع أعجم وهو من في لسانه لكنة وعدم إفصاح في الكلام عربياً كان أو غير عربي.

سَلَكْنَاهُ: أدخلناه.

بغتة: فجأة.

مُنْظَرُونَ: مُمْهلون ومؤخرون.

متَّعْنَاهُم سنين: أي أطال الله حياتهم في عافية وخير.

لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾
وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ
مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾
وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى
ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ
ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ
كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ
وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ
بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

شرح المفردات

لمعْزُولون: عزله، أي نحاه جانباً.

عَشِيرتَكَ: أهْلَك الأقربين.

واخفِضْ جَنَاحَك: أَلِنْ جانبك وتواضع.

تَقَلُّبَكَ في الساجدين: تحركك من قيام وسجود بين المصلين.

أفَّاكٍ: كثير الكذب.

الغَاوون: الضالون.

في كل واد يَهيمون: يذهبون كل مذهب في الكلام لا يتحرّوْن وجه الحق.

أيَّ مُنقَلَبٍ ينقلبونَ: أي مرجع يرجعون إليه بعد الموت.

تَابع سُورَة الشعَراء

وبعد الكلام عن الأمم السابقة وما حل بها من عذاب بسبب عصيانها أمر ربها تأتي الآيات التالية مؤكدة أن القرآن وحي إلّهي وأن علماء اليهود أدركوا حقيقة ذلك:

﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ العَالَمِينَ. نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المنْذِرِينَ. بِلِسَانٍ عربي مبين. وَإِنَّه لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ. أَوَ لَمْ يَكُن لَهُم آيَةً أن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَني إِسْرائيلَ﴾ (١٩٢-١٩٧).

فالله سبحانه يقول: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ هذه الآية تؤكد أن القرآن منزل من عند الله، وهذا التأكيد يتمثل بـ «إن» و «اللام» الداخلة على تنزيل. ويتجلى ذلك في فصاحته وبلاغته التي لم يستطع أحد من البشر مجاراته في هذا السبيل مع ما اشتمل عليه من الهدى ومكارم الأخلاق والتشريع العادل وأخبار الأمم الماضية والأنباء الغيبية ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ﴾ وهذا القرآن نزل به الملك جبريل، وسماه القرآن روحاً حيث أنه من الروح، كما سماه أميناً لأنه مؤتمن على ما يلقنه للأنبياء ﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ ولقد نَزَل جبريل بهذا القرآن على قلبك يا محمد لتكون من رسل الله الذين ينذرون قومهم ويخوفونهم من عاقبة كفرهم ويدعونهم إلى عبادة الله وحده ﴿بِلِسَانٍ عَرَبيٍّ مُبِينٍ﴾ وهذا القرآن نزل بلسان عربي واضح يفهمه قومك يا محمد ليكون ذلك قاطعاً للعذر، لأنه لو أُنزل القرآن بغير اللسان العربي لاحتجوا وقالوا ما فائدة كلام لا نفهمه ﴿وَإِنَّهُ لَفي زُبُرِ الأَوَّلِينَ﴾ زبر: كتب، أي أن ذِكْرَ القرآن وخبره، أو صفة محمد ﷺ والبشارة بمجيئه ورد في كتب الأنبياء السابقين ﴿أَوَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً﴾ أي أغفلوا عن ذلك ولم يعلموا أن لهم دليلاً على أن القرآن وحي من الله، وأن محمداً رسول الله ﴿أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَني إِسْرائيلَ﴾ أي أن يعلم هذه الحقيقة علماء بني إسرائيل الذين وجدوا ذكر هذا القرآن وصفة محمد

النبي ﷺ في كتبهم. وتفصيل الأمر: أن جماعة من علماء بني إسرائيل اعتنقوا الإسلام كعبد الله بن سلام وغيره، وقد حدّدوا مواضع في التوراة ذُكِرَ فيها الرسول محمد ﷺ بصفته ونعته، وقد كان مشركو قريش يذهبون إلى اليهود ويتعرفون منهم هذه الأخبار.

ويتابع القرآن فيذكر رفض المشركين التصديق بأن القرآن كتاب الله وأنهم لا يؤمنون حتى يروا عذاب الله، ولكن لا ينفعهم الإيمان آنذاك:

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ. فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ، كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ المجْرِمِينَ. لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوا الْعَذَابَ الأَلِيمَ. فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ. فَيَقُولوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ. أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ. أَفَرَأَيْتَ إن مَتَّعْنَاهُم سِنِينَ. ثُمَّ جَاءَهُم مَا كَانوا يُوعَدُونَ. مَا أَغْنَى عَنْهُم مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ. وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إلاَّ لَهَا مُنْذِرُونَ. ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (١٩٨-٢٠٩).

فالله سبحانه يقول: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ﴾ أي لو أنزلنا هذا القرآن بنظمه المعجز وبلاغته المعهودة على رجل من الأعجمين الذين لا يقدرون على التكلم بالعربية ولا يتصوّر اتهامه بتأليفه وإنشائه لعجمته ﴿فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ فقرأه عليهم قراءة صحيحة خارقة للعادة لكفروا به ولسموه سحراً. أو بمعنى: لو أنزل الله هذا القرآن بلغة العجم ـ أي غير اللغة العربية ـ على رجل أعجمي فقرأه على العرب لم يؤمنوا به حيث لم يفهموه.

فهؤلاء الكفار لا تنفعهم الدلائل والبراهين فقد أنزل الله هذا القرآن على رجل عربي بلسان عربي فسمعوه وفهموه وعرفوا فصاحته وأنه معجز لا يعارض بكلام مثله وانضم إلى ذلك بشارة كتب الأنبياء به ومع هذا لم يؤمنوا بأن القرآن وحي إلّهي وسموه شعراً تارة، وسحراً تارة أُخرى فكيف بهم لو أُنزل هذا القرآن بلغة الأعاجم ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ

المجْرِمينَ﴾ والسلك: الإدخال والمجرمين هنا المراد بهم المشركون من العرب. أي ومثل هذه البراهين الواضحة على أن القرآن وحي إلٓهي أدخلناها إلى قلوب المشركين العرب حيث فهموا معاني القرآن وأدركوا فصاحته وأنه خارج عن القوى البشرية ولكنهم لم يؤمنوا بأن القرآن وحي إلٓهي بل استمروا على ما هم عليه من الكفر ﴿لا يُؤْمِنُون بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ فسنَّة الله فيهم أن لا يؤمنوا بوحدانية الله ويصدقوا برسوله محمد حتى يروا العذاب الأليم يصيبهم، عندئذ لا ينفعهم الإيمان بعد حلول العذاب فيهم ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُم لا يَشْعُرونَ﴾ فيأتيهم العذاب فجأة وهم لا يعلمون قبل ذلك بمجيئه، عندئذ تنطق شفاههم بالحسرة والندم ﴿فَيَقُولونَ: هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾ هل نحن ممهلون ومُؤخَّر عنا العذاب حتى نتوب ونرجع إلى الإيمان بالله وطاعته ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ فهذا توبيخ للمشركين على استعجالهم عذاب الله. وكانوا يقولون لرسول الله محمد ﷺ إلى متى تعدنا بالعذاب ولا تأتي به؟! واستعجالهم للعذاب هو لاعتقادهم أنه غير كائن وأنهم ممتعون بأعمار طوال في سلامة وأمن، ولذا تأتي الآية التالية تنفي عنهم اعتقادهم هذا: ﴿أَفَرَأَيْتَ إنْ مَتَّعْنَاهُم سِنِينَ﴾ هل فكرت فعلمت إن متعناهم سنين طوالاً بلذائذ الحياة مع وفور الصحة ورغد العيش ﴿ثُمَّ جَاءَهُم مَا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ ثم نزل بهم العذاب الذي وُعدوا به على كفرهم ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُم مَا كَانُوا يُمَتَّعُون﴾[1] أي ماذا ينفعهم

---

(١) رُوي أن الخليفة عمر بن عبد العزيز كان إذا أصبح أمسك بلحيته ثم قرأ قوله تعالى: ﴿أفرأيت إن متعناهم سنين. ثم جاءهم ما كانوا يوعدون. ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون﴾ ثم يبكي ويقول:

نهارُك يا مغرورُ سهوٌ وغفلةٌ ... وليلُك نومٌ والرَّدى لَكَ لازمُ
فلا أنت في الأيقاظ يقظانُ حَازِمُ ... ولا أنت في النُّوام ناجٍ فسالمُ
تُسَرُّ بما يفنى وتفرح بالمنى ... كما سُرَّ باللذات في النوم حالمُ
وتسعى إلى ما سوف تكره غِبَّهُ ... كذلك في الدنيا تعيش البهائمُ

هذا النعيم الذي متعناهم به في الحياة الدنيا، وهل ينفعهم هذا النعيم والتأخير في آجالهم غير ازدياد آثامهم والاستمرار في كفرهم، ومدة التمتع في الدنيا قليلة زائلة ومدة العذاب التي تعقب ذلك في الآخرة طويلة دائمة ولا خير في نعيم قليل يعقبه عذاب دائم.

هذه الآية تقرع آذان الغافلين عن ربهم الذين غرّتهم الحياة الدنيا بشهواتها ولذائذها فاقترفوا في سبيلها الآثام غير عابئين بالموت وما ينتظرهم من حساب في الآخرة، وما أحوج الإنسان إلى تذكيره بهذه الحقيقة مرة بعد مرة في مسيرة العمر ليحاسب نفسه ويفكر في مصيره بعد الموت.

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنْذِرُون﴾ وسنة الله في الأمم جميعاً أنه لا ينزل الهلاك بأمة إلاّ بعد أن يرسل إليها رسلاً ينذرونها عذاب الله على كفرها ﴿ذِكْرَى﴾ أي تذكرة وموعظة على ما فيه النجاة من عذاب الله ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ وما كان الله ظالماً في تعذيبهم وإهلاكهم وإنما كان عذابهم بسبب كفرهم وعبرة لغيرهم.

هذا ومن الشُبَه التي أثارها المشركون على القرآن هي أنه من وحي الشياطين حيث كانوا يعتقدون أن الشياطين كانت تنزل بالأخبار على الكهنة العرب. والكاهن عند العرب ليس رجل دين بل كان يدّعي معرفة الأسرار والإطلاع على الغيب للتكسب المادي ولم يكن الكاهن عندهم صاحب دعوة إلى الله، وأن محمداً على زعمهم هذا هو كالكهنة العرب فنفى الله هذا الزعم الباطل وبيّن أن محمداً كان يتلقى الوحي من الله وأنه صاحب دعوة إلى عبادة الله وحده:

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ. وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُون. إِنَّهُم عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ. فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ المعذَّبِينَ. وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ. واخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ المؤمِنينَ. فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُل إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ. وَتَوَكَّل عَلَى العَزِيزِ الرَّحيمِ. الَّذي

يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ. وَتَقَلُّبَكَ في السَاجِدينَ. إنَّه هُوَ السَّمِيعُ العَليمُ﴾ (٢١٠-٢٢٠).

فالله سبحانه يَقُولُ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ أي وما نزلت الشياطين بهذا القرآن، بل نزل به جبريل على قلب رسول الله محمد ﷺ ﴿وَمَا يَنْبَغي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي ما يصح وما يستقيم لهم ذلك لأن سجاياهم الفساد وإضلال العباد، وهذا القرآن هو هُدًى للناس ﴿إنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ إن الشياطين ممنوعون من استراق السمع من السماء، لأن السماء ملئت حرساً من الملائكة وشهباً تنقضّ على من يحاول استراق السمع من الشياطين.

﴿فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهَ إلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ المعَذَّبِينَ﴾ أي لا تعبد يا محمد مع الله إلَهاً غيره فينزل بك من العذاب ما نزل بأولئك الذين خالفوا أمره وعبدوا غيره. لقد حذره الله من الشرك وهو أبعد ما يكون عنه ليكون غيره أولى بالحذر منه، وليكون حثًّا له ولغيره على زيادة الإخلاص لله.

﴿وَأَنْذِرْ عَشيرَتَكَ الأقْربينَ﴾ والعشيرة أهل الرجل الذين يتكثّر بهم. أي خَوِّف يا محمد أهلك الأقربين لك من العذاب الذي يستتبعه الإشراك بالله والعصيان لله باقتراف الآثام. وهذا الخطاب الموجه إلى النبي هو موجّه أيضاً إلى الدعاة إلى الله بأن يبدأوا بإرشاد الأقربين لهم في النسب لأنهم أقرب الناس إلى فهمهم وهم أحق أن يعينوهم وينافحوا عنهم، وكل دعوة إلى الله في الأرض تحتاج في مهدها إلى إعانة ونصرة، ومن أحق بالإعانة والنصرة من أهل الداعي؟!

وقد روي أنه لما أنزل الله ﴿وَأَنْذِر عَشيرَتك الأقرِبينَ﴾ أتى النبي جبل الصفا فصعد عليه ثم نادى: ياصباحاه فاجتمع الناس إليه... فقال: يا بني عبد المطلب يا بني فهر يابني لُؤَيّ، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني؟ قالوا نعم. قال: فإني

نذير لكم بين يدي عذاب شديد. وبعد أن أمر الله رسوله محمد بإنذار عشيرته الأقربين أمره بالتواضع للمؤمنين: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي تواضع يا محمد وَأَلِنْ جانبك لمن صَدّقك واتّبعك من المؤمنين فلا تتكبر عليهم. فخفض الجناح هو استعارة للتواضع ولين الجانب لأن الطائر يخفض جناحيه حين يهمّ بالهبوط على الأرض والهبوط هو خلاف العلو والعلو هو التكبر ولذا قيل عن فرعون المتكبر ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾. ولقد كان محمد ﷺ مثالاً للين والتواضع مع قومه مما جعلهم يلتفون حوله ويطيعونه في كل ما يأمرهم به من أمور دينهم.

ثم يبين الله كيف يعامل العصاة من قومه: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وإذا كان محمد بريئاً من معاصيهم فإن ذلك يوجب أن الله بريء من عملهم.

ثم يبين الله صلة الرعاية التي يخص بها رسوله محمد ﷺ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ أي فَوّض أمرك يا محمد إلى من يملك أمرك ويقدر على نفعك وضرك فهو القوي الغالب الذي يقهر أعداءك بعزته وينصرك عليهم برحمته ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ فهو سبحانه يراك حين تقوم للعبادة في الليل أو حين تقوم للصلاة بالناس جماعة ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ ويرى تصرفك في المصلين بركوعك وسجودك إذا كنت إماماً لهم أو إذا كنت تصلي منفرداً ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ إنه سبحانه سميع لما تقوله من الأقوال، عليم بما تخفيه من الأمور.

ثم يعود القرآن إلى توضيح ما ذكره سابقاً من أن القرآن ليس من وحي الشياطين:

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ. تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ. يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ (٢٢١-٢٢٣).

أي قل يا محمد لهؤلاء الكفار من قومك: هل أخبركم على من تنزّل الشياطين ﴿تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أثيمٍ﴾ والإفك هو الكذب، والأفّاك هو كثير الكذب، والإثم هو الذنب، والأثيم هو كثير الذنوب، والأفاك الأثيم المقصود به الكاهن عند العرب ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُم كَاذِبونَ﴾ أي يلقون أسماعهم إلى الشياطين فينقلون منهم ظنوناً وأكثرهم كاذبون فيما يتلقونه من الشياطين. فالكهنة من طبعهم الكذب وهم يعظمون الشياطين، والتصديق بهم جري وراء الأوهام والخرافات، وهم لا يَدْعُون إلى هُدًى ولا يأمرون بمعروف، أما محمد فلم يظهر من أحواله إلاّ الصدق والدعوة إلى الله والقيام بعبادته، فكيف يكون حال محمد والكاهن سواء؟!

ثم يأتي ختام السورة وفيها نفي لأن يكون محمد شاعراً، فالمشركون كانوا يقولون عن القرآن أحياناً إنه شعر، ويقولون عن محمد بأنه شاعر، مع العلم أن القرآن لم يلتزم بأوزان الشعر ولم يطرق المواضيع التي كان ينطق بها الشعراء العرب قبل الإسلام من الغزل والهجاء والوقوف على الأطلال، كما أن محمداً قبل النبوة لم ينطق ببيت من الشعر، ولكن هذه التهمة أطلقوها لتكذيبه زوراً وبهتاناً، ولكن القرآن يبيّن لهم حقيقة الشعراء ومسلكهم الذي يختلف عن مسلك محمد جملة وتفصيلاً:

﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الغَاوونَ. أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ في كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ. وَأَنَّهُم يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ. إلاَّ الَّذين آمنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا، وَسَيَعْلَمُ الَّذين ظَلَمُوا أي مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ (٢٢٤-٢٢٧).

فالله سبحانه يقول: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الغَاوونَ﴾ أي أن الشعراء يَتّبعهم ويسلك مسلكهم الضالون عن الحق لا أهل الرشاد والهدى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُم في كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ ألم تر أنهم يهيمون على وجوههم في كل وادٍ من وديان الشعور والتصوّر والخيال وفق الانفعال الذي يسيطر عليهم في

لحظة من اللحظات وتحت تأثير مؤثر من المؤثرات. إنهم في كل فن من فنون الكذب يخوضون، فتارة يمزقون الأعراض بالهجاء، وهم يفرطون في المدح إذا أُعطوا وفي الذم إذا مُنعوا، وتارة يأتون من المجون ما يمجه الذوق والطبيعة السليمة، وتارة يرغّبون في فعل المحرّمات ويدعون الناس إلى فعل المنكرات كما نسمعه في أشعارهم في مدح الخمر والترغيب بالزنا والتشبيب بالنساء.

﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ﴾ وأنهم يقولون أشياء كثيرة ولا يفعلونها، يرغّبون في الكرم ويعرضون عنه، وينفّرون من البخل ويصرون عليه، ولا يطلبون بشعرهم الحق والصدق، ولذا كان العرب يقولون: أكذب الشعر أعذبه، أو أجمل الشعر أكذبه.

ويقتضي أن لا يفهم من هذه الآيات المتحدثة عن الشعراء بأن الإسلام يحارب الشعر، لا، ولكن يحارب المنهج الذي سار عليه كثير من الشعراء، منهج الركون إلى الأحلام والأوهام والخيالات التي ليس لها وجود في دنيا الواقع، منهج إفساد الناس وإرضاء نزواتهم البهيمية، منهج التعدي على أعراض الناس وكرامتهم.

والشعر باب من الكلام فحسنه حسن، وقبيحه قبح، وروي أن رسول الله ﷺ قال «إن من الشعر لحكمة»، كما روي عن أبي هريرة أنه قال سمعت رسول الله على المنبر يقول: أصدق كلمة، أو أشعر كلمة قالتها العرب قول لبيد:

ألا كل شيء ما خلا اللّه باطل   وكل نعيم لا محالة زائل

كما أن الشعر يكون مرغوباً به في الحكمة والموعظة والدعوة إلى الزهد في الدنيا والتنفير من الركون إليها وعدم الاغترار بزخارفها والافتتان بملاذها. وكذلك من فضائل الشعر نشر محاسن رسول الله ومدحه ومدح آله وصحبه وما أجمل ما قيل في رسول الله وخلفائه الأربعة:

حُبُّ النبيِّ رسـول اللّه مفتـرض	وحب أصحـابـه نُـور ببـرهـان
من كـان يعلم أن اللّه خـالقـه	لا يـرمينّ أبـا بكـر ببهتـان
ولا أبـا حفص الفـاروق صـاحبـه	ولا الخليفـة عثمـان بن عفـان
أمـا علـيٌّ فمشهـور فضـائلـه	والبيـت لا يستـوى إلاّ بـأركـان

ثم يستثني القرآن من ذلك الوصف العام للشعراء وأوصافهم الذميمة هذه من تمتع بهذه الأمور الأربعة:

أولاً: ﴿إلاَّ الَّذينَ آمَنُوا﴾ فهم الذين صدقوا بوجود الله ووحدانيته فكانت حياتهم مرآة لإيمانهم فلم يقترفوا سيىء الأعمال خيفة من الله.

ثانياً: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَات﴾ أي الذين اتجهت كل طاقاتهم إلى عمل الخير واجتناب الشر فلم يسيئوا إلى أحد في أشعارهم.

ثالثاً: ﴿وَذكَرُوا اللّه كَثِيراً﴾ أي أكثروا من ذكر الله في أشعارهم وأثنوا عليه وحثوا الناس على طاعته والترغيب فيما عنده من الثواب.

رابعاً: ﴿وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ أي لم يذكروا هجو أحد إلاّ على سبيل الانتصار على من يهجونهم. وفي هذا المعنى ورد في القرآن: ﴿إنَّ اللّه لا يُحب الجهْرَ بالسُّوء مِنَ الْقَوْلِ إلاّ مَنْ ظُلم﴾.

ومن الشعراء الذين حملوا راية الدفاع عن الإسلام وعن رسول الله محمد بشعرهم: حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة. وقد روي عن كعب بن مالك أن رسول الله ﷺ قال له: «أهجهم ـ أي الكفار ـ فوالذي نفسي بيده لهو أشد عليهم من رشق النبل».

وتُختتم السورة بالوعيد الشديد للظالمين ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذين ظَلَمُوا أي مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبونَ﴾ أي سيعلم الذين ظلموا أنفسهم بجعل شريك لله وتعدوا على عباد الله بالظلم أي مرجع يرجعون إليه بعد مماتهم فإن مصيرهم إلى عذاب النار.

سُورَةُ النَّمْلِ

سُمِّيت هذه السورة بسورة النمل لأن الله ذَكَرَ فيها كلام النملة إلى بني جنسها بالدخول إلى مساكنهم خوفاً من أن يدوسهم سليمان وجنده بأرجلهم، وقد فهم سليمان كلام النملة بما أعطاه الله من معجزة خارقة لإدراك وفهم كلام النمل ومنطق الطير.

وهذه السورة تذكر جانباً من قصة موسى عليه السلام حيث خصّه الله برسالته إلى فرعون وتأييده بالمعجزات، ولكن فرعون وقومه جحدوا رسالته وأصروا على طغيانهم فحاق بهم الهلاك.

وتذكر السورة أحوال مملكة سبأ وعبادة أهلها للشمس ووصول هذه الأخبار إلى سليمان بواسطة الهدهد، ثم ما كان من إرسال سليمان بكتاب إلى ملكة سبأ وما جرى بعد ذلك من أحداث مثيرة منها معجزة إحضار عرشها من اليمن إلى قصر سليمان بسرعة لا تخطر ببال بشر، ثم مجيئها وأشراف قومها إلى سليمان حيث أعلنت إسلامها وخضوعها لرب العالمين.

وفي السورة الكلام عن قوم ثمود وما حلّ بهم من هلاك جزاء كفرهم ومكرهم بنبيهم صالح، والكلام أيضاً عن قوم نبي الله لوط حيث حلّ بهم عذاب الله جزاء اقترافهم الشذوذ الجنسي وعصيانهم أوامر ربهم.

وتذكر السورة الأدلة والبراهين الدالة على وحدانية الله وانتفاء شريك له وتبين أن القرآن فيه القول الفصل لكل ما اختلف فيه بنو اسرائيل من أمور الدين. كما تذكر السورة بعض أمارات يوم القيامة حيث يؤنب الكفار على تكذيبهم بآيات الله.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ① هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ② ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ③ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ④ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ⑤ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ⑥ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ⑦ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ⑧ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ

شرح المفردات

يُوقِنُون: يعلمون علماً راسخاً خالياً من الشكوك والشُبَه.

زيَّنّا لهم أعمالهم: جعلنا أعمالهم السيئة حسنة في نظرهم.

يعمهون: يتحيرون ويترددون في ضلالتهم.

لَتُلَقَّى القرآن: ليتنزل عليك القرآن.

مِنْ لَدُنْ: من عند.

آنَسْتُ ناراً: أحسست وأبصرت ناراً.

آتيكم بشهاب قبس: آتيكم بشعلة نار اقتبسها منها.

تَصْطَلُون: تستدفئون.

أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١١ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝١٢ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١٣ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝١٤

شرح المفردات

جَانٌّ: ضرب من الحيات العظام السريعة الحركة.

وَلَّى مُدْبِراً: جعل ظهره للحيّة وجرى خائفاً (ولّى هارباً).

ولم يُعَقِّب: ولم يرجع.

جيبك: فتحة القميص حيث يدخل الرأس (طوق القميص).

بيضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوء: ذات شعاع كالشمس من غير برص.

في تسع آيات: في تسع معجزات.

جحدوا بها: انكروها.

استيقتها أنفسهم: علمتها انفسهم علماً يقينًا.

سُورَةُ النَّمْل

ايضـــاح و دروس

يستهل الله هذه السورة بالتنويه بأهمِّية القرآن الكريم ومنزلته، وما فيه من هداية للمؤمنين مع الوعيد للكافرين:

﴿طسٓ تِلْكَ آيَاتُ القُرآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ. هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ. الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ. إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ. أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُم فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ﴾ (١ ـ ٥).

فالله سبحانه يقول: ﴿طسٓ[١] تِلْكَ آيَاتُ القُرآنِ﴾ تلك: اسم إشارة للبعيد وللمرتفع حسًّا ومعنويًا والإشارة بها إلى آيات القرآن لبيان بُعْدِ منزلة القرآن في الفضل والشرف. والقرآن اسم للكتاب المنزل من الله على محمد، وهو مشتق من القرء وهو الجمع، وسمي الكلام المنزل على محمد قرآناً لكونه جامعاً لثمرة كتب الله بل لجمعه ثمرة جميع العلوم ﴿وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ والمراد به القرآن وهو معطوف على القرآن وتنكيره للتعظيم. وهو مبين: أي واضح يظهر لمن تدبره وفكر فيه بعقل نيِّر أنه من

(١) طسم: قيل في هذه الأحرف إنها قسم أقسمه الله وأنها اسم من أسماء الله، وقيل اسم من أسماء القرآن. وقيل إنها أسماء حروف يتركب منها الكلام افتتحت بها بعض السور إيقاظاً لمن تحداهم الله بالقرآن، وتنبيهاً على أن أصل المتلو عليهم كلام منظوم ممن ينظمون به كلامهم فلو كان من عند غير الله لما عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن. وقيل إن هذه الأحرف سرٌّ استأثر الله بعلمه. وقيل المراد بهذه الأحرف تنبيه القارىء للاستماع للقرآن، فقد كان بعض العرب يميلون وينصرفون عند استماعهم للقرآن فلما نزلت هذه الأحرف التي تتصدر بعض السور صدمتهم هذه الألفاظ وتاقت أنفسهم إلى معرفة ما يتلوه رسول الله من القرآن والوقوف على معانيه وأغراضه فلما أنصتوا أقبل عليهم رسول الله يتلو عليهم القرآن.

عند الله ﴿هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤمِنِينَ﴾ فالقرآن هو إرشاد للمؤمنين إلى طريق السعادة في الدنيا والآخرة، وهو بشرى للمؤمنين يبشرهم بالثواب الجزيل يوم القيامة إذا ساروا على درب الهدى. وفي تخصيص المؤمنين بالهدى والبشرى تكمن حقيقة سافرة وهي أن القرآن ليس كتاب علم نظري ولا كتاب تسلية، إنما القرآن كتاب هداية يخاطب القلب، وكلما كان القلب مشبعاً بالإيمان بالله وبأن القرآن وحي منه زاد تذوقه لحلاوة القرآن وزاد تأثيره في النفس، بينما المنكر لوجود الله، والمنكر بأن القرآن وحي منه لا ينتفع به ولا يذوق حلاوته، ولا يستشعر به البشرى التي وعد الله بها عباده الصالحين يوم القيامة.

﴿الَّذِينَ يُقِيمُون الصَّلاةَ﴾ فالمؤمنون من صفاتهم إقامة الصلاة، والصلاة هي المظهر الأول لعبادة الإنسان لخالقه لما تحتويه الصلاة من تقديس لله وتنزيهه عن صفات النقص، والثناء عليه والشكر له، ومن تلاوة للقرآن، ومن ركوع وسجود له ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ كما أن من صفات المؤمنين إعطاء الزكاة وهي الصدقة المفروضة على المستحقين من عباد الله ﴿ وَهُم بالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ واليقين: هو العلم الذي انتفت عنه الشكوك، أي يؤمنون إيماناً جازماً لا ريب فيه بأن هناك حياة أخرى يوم القيامة، حيث يجازي الله الناس على أعمالهم إنْ خيراً فخير، وإنْ شرًّا فشر، والإيمان بالآخرة يحول بين الإنسان وبين اقتراف الشرور خوفاً من عقاب الله، والذي لا يعتقد بوجوب الآخرة لا يرعوي عن شر أو سوء ﴿إنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ﴾ أي إن الذين لا يصدقون بالبعث والجزاء على الأعمال بعد الممات ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ اعْمَالَهُمْ﴾ حبّبنا إليهم أعمالهم القبيحة حتى رأوها حسنة وذلك جزاء على كفرهم ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ فهم في ضلال أعمالهم يترددون حيارى يحسبون أنهم يحسنون صنعاً. والنفس مطبوعة على أن تحب ما يلذّ لها ولو كان في ذلك إضرار للنفس أو المجتمع، ولا يلجمها

عن ذلك إلّا الاهتداء بهدى الله ﴿أُولَئِكَ الَّذِين لَهُمْ سُوءُ العَذَابِ﴾ من عذاب مادّي أو نفسي يصيبهم في الدنيا ﴿وَهُمْ في الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ﴾ وهم يوم القيامة هم الخاسرون بما يقاسونه من عذاب النار.

ثم يبين الله دليلاً على صدق نبوة محمد وهو الأمي الذي لم يتلقَّ العلم من أحد، ولكنه جاء بأنباء الأمم الماضية بواسطة الوحي الإلّهي، ومن هذه الأنباء قصة رسول الله موسى مع قوم فرعون:

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى القُرآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَليم. إِذْ قَالَ مُوسَى لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سآتِيكُم مِنْهَا بَخَبَرٍ أَوْ آتيكم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ. فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَن في النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ. يا موسى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ (٦-٩).

فالله سبحانه يخاطب رسوله محمداً: ﴿وَإِنَّك لَتُلَقَّى القُرآنَ﴾ أي وإنك لتتلقى القرآن وينزل عليك ﴿مِنْ لَدُن حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ من عند الله الحكيم بتدبير خلقه وإيجاده للأشياء على غاية الإحكام، العليم الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، والعليم بأخبار الأمم الماضية.

واللافت للنظر في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى القُرآنَ﴾ هو التأكيد على ذلك بأنّ واللام الداخلة على «تلقى» وذلك أن العرب في بدء الإسلام كان أكثرهم يشكّ في أن القرآن وحي إلّهي؛ ولكن بعد توالي نزوله عليهم والتمعن في آياته والتفكر فيها آمن أكثرهم عن اقتناع بأنه كلام الله لأنهم رأوا فيه كلاماً فصيحاً لا يشبه أساليبهم في الكلام، فهو ينقض معتقداتهم الباطلة ويدعوهم إلى عبادة الله وحده والتحلي بمكارم الأخلاق، ويسنّ لهم التشريعات العادلة، ويقضي على المنازعات بينهم حتى أنهم في فترة قصيرة أصبحوا أمة موحدة تتحلى بالقيم السامية، بعد أن كانوا قبائل

متناحرة يشيع فيها الظلم والفساد والعدوان على حقوق الضعفاء.

والقضية ذاتها تطرح على أتباع الديانات الأخرى ليدرسوا القرآن دراسة مجردة فسيظهر لهم أن القرآن كلام الله حقًّا فيه الهدى للناس جميعاً.

ثم يقول تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ﴾ أي واذكر حين قال موسى لأهله وهو في سيناء حيث كان متوجهاً بهم إلى مصر وقد آذاهم برد الليل وضلوا طريقهم ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَاراً﴾ إني أبصرت ورأيت ناراً ﴿سَآتِيكُم مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾ سآتيكم من أصحابها بخبر عن الطريق ﴿أَو آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ أو آتيكم بشعلة نارٍ أقتبسها من أصلها ﴿لَعَلَّكُم تَصْطَلُونَ﴾ كي تستدفئوا بها من البرد ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَن فِي النَّارِ﴾ فلما وصل موسى إلى النار رآها نوراً تتوهج ـ وهي نور رب العالمين ـ فأسمعه الله تعالى كلامه من ناحيتها بأن ناداه: قُدِّس وبُورك من في النار، أي نور الله تعالى ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ ومن حول النار وهو موسى عليه السلام والملائكة ﴿وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ وتقدّس الله وتنزّه عن كل سوء وعما يصفه به الظالمون من نقص في ربوبيته وعن مماثلته لشيء ما[1].

ولنرجع إلى كلمة (بُورك). وأصل البركة ثبوت الخير الإلّهي في الشيء. والخير هنا تكليم الله لموسى وإرساله إلى فرعون وتأييده بالمعجزات التي تثبت أنه رسول الله حقًّا.

والمكان الذي ناداه الله به هو البقعة المباركة المذكورة في قوله

---

(١) من البشارات التي وردت في التوراة بإنزال الوحي الإلّهي على محمد ﷺ ما ورد في سفر تثنية الاشتراع: «أقبل الرب من سيناء. وأشرق لهم من سعير. وسطع من جبل فاران».
فإقباله له من سيناء بعثة موسى منها رسولاً؛ وإشراقه من سعير بعثة المسيح منها؛ وسطوعه من فاران بعثة محمد ﷺ وفاران كما هو مشهور في التوراة جبل من جبال مكة.

تعالى: ﴿نُودي مِنْ شاطِىء الوادي الأَيْمَن في البُقْعَةِ المبَارَكَة﴾ أما قوله تعالى ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ فقد يراد به أيضاً أرض الشام المعروفة بسوريا وفلسطين والموصوفة في قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إلى الأَرْض التي بَارَكْنَا فِيهَا للعَالَمِين﴾ وحُقَّت أن تكون مباركة فهي مبعث الأنبياء ومهبط الوحي والتي ضمت الأنبياء أحياء وأمواتاً، وابتداء نداء الله لموسى بذلك المكان بشارة له بأنه قد قضى الله أمراً عظيماً بأن تنتشر البركة في أرض الشام كلها.

ومما سمعه موسى من النداء: ﴿يَا مُوسَى إِنَّه أَنَا اللَّهُ العَزيز الحكَيم﴾ قد يكون هذا القول جواباً لموسى حيث قال من الذي ناداني، فأجابه الله: إنه أنا الله القوي الغالب لأعدائه، الحكيم في تدبير أمور خلقه.

ويتابع القرآن فيذكر المعجزات التي أيد الله بها رسوله موسى:

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لا تَخَفْ إِنِّي لا يخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ. إلاَّ مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ. وَأَدْخِل يَدَكَ في جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سوءٍ في تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُم كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ. فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آياتُنَا مُبْصِرَةً قَالوا هَذَا سِحْرٌ مُبينٌ. وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوًّا فَانْظُر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١٠-١٤).

فالله سبحانه يخاطب موسى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ﴾ في الكلام هنا حذف للإيجاز وهو: فألقى عصاه فصارت حية تتحرك حركة شديدة فلما رآها على هذه الصفة ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ كأنها حية عظيمة سريعة الحركة ﴿وَلَّى مُدْبِراً﴾ انطلق موسى هارباً خوفاً منها ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ ولم يرجع ويلتفت لخوف أصابه، فناداه الله: ﴿يَا مُوسَى لا تَخَفْ إِنَّهُ لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُون﴾ أي لا تخف من هذه الحية لأنه لا يخاف عندي الرُّسُل

الذين خصصتُهم بالرسالة الإلّهية ﴿إلاَّ مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّل حُسْناً بَعْدَ سُوء﴾ أي لكن من ظلم من سائر عباد الله فإنه يخاف عاقبة ظلمه، إلَّا إذا تاب وبدَّل عمله السيّء بالعمل الصالح ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فإني عظيم المغفرة، واسع الرحمة. وهذه بشارة عظيمة للمؤمنين، وذلك أن من كان على عمل سيّء ثم أقلع عن ذنبه، ورجع إلى الله تائباً طالباً الغفران من الله فإن الله يغفر له ذنوبه كما قال سبحانه: ﴿وَإني لَغَفَّارٌ لِمن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهتدى﴾.

وقد يكون في الآية تعريض لطيف بما حصل من موسى من ظلم حيث وكز (لكم) القبطي فكان وكزه سبباً في مقتله، ثم ندم موسى على فعلته غير المقصودة، وطلب الغفران من ربه فغفر له.

﴿وَأَدْخِلْ يَـدَكَ في جيبـك﴾ أي أدخل يدك اليمنى في فتحة قميصك عند أعلى الصدر واجعلها تحت عضدك[١] الأيسر ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ تخرج اليد بيضاء مُشِعّة كشعاع الشمس من غير مرض أو برص بينما التوراة وصفت يد موسى بالبرص[٢] ﴿في تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾ أي هاتان المعجزتان: العصا واليد، هما ضمن تسع[٣]

---

(١) العضد: ما بين المرفق إلى الكتف.

(٢) جاء في سفر الخروج ٤: ٦ «ادخل يدك في عبِّك، فأدخلها في عبِّه ثم أخرجها فإذا يده برصاء كالثلج» ولكن متى كان البرص وهو مرض مخيف منفّر يتخذه الله معجزة لرسله، وهل الغاية من معجزات الله إلّا الترغيب والتشجيع على الإقناع بدين الله، ونتساءل هل في البرص ما يشجع على الإيمان، لا، ليس فيه إلا التنفير والبعد عن الإقناع، ولا شك أن في هذا التعبير خطأً وهو نتيجة التحريفات التي أُدخلت على كتاب الله. بينما القرآن كنّى عن البرص بالسوء، ووصف معجزة موسى وهي اليد بأنها من غير سوء أي من غير برص.

(٣) بقية المعجزات هي: الجراد، والقمّل، والضفادع، والطوفان، والدم، والحجر، والطمس الذي أصاب آل فرعون في أموالهم بأن أهلكها الله وأذهب آثارها ومحاها.

معجزات أيدتك بها، وجعلتها برهاناً على أنك رسول من عندي إلى فرعون وقومه ﴿إِنَّهُم كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ إن قوم فرعون خارجون عن طاعة الله ممعنون في الكفر والضلال.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُم آيَاتُنَا مُبْصِرَةً﴾ فلما جاءت فرعون وقومه معجزات الله الواضحة الظاهرة الدالة على صدق نبوة موسى ﴿قَالُوا: هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ قالوا إنها سحر واضح ﴿وَجَحَدُوا بِهَا﴾ وأنكروا هذه المعجزات ﴿وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ أي علمتها أنفسهم علماً يقينيًا بأنها ليست من السحر ﴿ظُلْماً﴾ تعدياً على الحق حيث أنزلوها عن رتبتها وسموها سحراً ﴿وَعُلُوًّا﴾ وترفعاً واستكباراً عن الإيمان ﴿فَانْظُر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدينَ﴾ فانظر يا محمد نظرة تأمل واعتبار كيف كان مصير هؤلاء الذين كذبوا بمعجزات الله وما حلّ بهم من جراء إفسادهم في الأرض، ومعصيتهم لله، أن أهلكهم في الدنيا بإغراقهم في البحر وهم في الآخرة في عذاب النار. وفحوى الآية كأنها تقول: احذروا أيها المكذبون لمحمد الجاحدون لما جاء به من الوحي من عند ربه أن يصيبكم مثل ما أصاب فرعون وقومه إذا أنتم أصررتم على كفركم.

وقفة عند قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعلوًّا﴾ هذه طبيعة كثير من الناس يرون الحقيقة ساطعة واضحة، ولكن جذور الكبرياء المتغلغلة في نفوسهم والظلم المترسخ بهم يحول بينهم وبين الإقرار بالحق والقبول به. وكذلك كان كبراء قريش من العرب يستقبلون القرآن، فهم أيقنوا أنه الحق، ولكنهم كانوا يجحدونه ظلماً وتكبراً، لأنهم كانوا يريدون الإبقاء على ديانتهم الوثنية، لما فيها من مغانم دنيوية لهم، ومن جاه تسبغه عليهم لأنهم كانوا القيمين على معبد الأوثان والأصنام والإسلام جاء للقضاء على عبادتها.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ

شــرح المفـردات

مَنْطِقَ الطير: لغة الطير.

يُوزَعُون: يكف اوائلهم عن المسير بانتظار أن يلحق بهم المتأخرون ليجتمع الشمل.

لا يَحْطِمَنَّكُم: اي لا تمكثوا حيث أنتم فيهلككم جنود سليمان، والحَطْمُ: كسر الشيء.

أوزعني: ألهمني ووفقني.

تَفَقَّد الطيْرَ: بحث عن جماعة الطير ما غاب منها وما حضر.

بِسُلْطان مُبين: بحجة ظاهرة واضحة.

فَمَكَثَ غَيْرَ بَعيد: فأقام في غيبته وقتاً غير طويل.

أحَطْتُ بِمَا لم تُحِطْ به: علمت ما لم تعلمه من الأمر.

وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّيٓ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾

شَـرح المفـردَات

عرش: سرير الملك.

زَيَّن لَهُمُ الشَّيْطانُ أعْمَالَهم: اغواهم الشيطان وحبب إليهم عبادة الشمس.

فَصَدَّهُم عَنِ السَّبِيل: فصرفهم عن طريق الحق والهدى، وهو دين الله.

يُخرج الخبء: يظهر المخبوء والمستور من النبات والمطر.

تَوَلَّ عنهم: تنحَّ عنهم قليلاً.

يرجعون: يرد ويجيب بالقول بعضهم على بعض.

الملأ: أشراف القوم وخاصة الملك.

تابع سُورَةِ النَّمْل

ثم ينتقل القرآن بنا إلى الكلام عن النبي سليمان وما خصه الله به من فهم لغة الطير:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالا الْحَمْدُ للهِ الذي فَضَّلَنَا عَلَى كَثيرٍ مِنْ عِبَادِه المؤمنين. وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاودَ وَقَالَ يَا أَيُّها النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتينَا مِنْ كُلِّ شَيء إنَّ هَذَا لَهُوَ الفَضْلُ المُبِينُ﴾ (١٥-١٦).

فالله سبحانه أعطى داود وسليمان علماً بالدين والشرائع والأحكام، وغير ذلك من العلوم التي اختص بها كلًّا منهما ﴿وَقَالاَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذي فَضَّلَنَا عَلَى كَثيرٍ مِنْ عِبَادِهِ المؤْمنين﴾ لقد أثنيا على الله بما أنعم عليهما من العلم، وفي هذه الآية إشارة واضحة على فضل العلم وشرف أهله، وتنبيه للعلماء على أن يحمدوا الله على ما آتاهم من فضله، ويستشعروا أن منزلة العلم لا يوازيها شيء من النِّعَم. ثم إن هذين النبيّين لم يفضّلا أنفسهما على كل الناس وذلك يدل على حسن تواضعهما، وأن من الناس من هو مفضل عليهما ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاودَ﴾ أي وورث سليمان أباه في الملك والنبوة دون سائر أبنائه ﴿وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ أي وقال سليمان متحدثاً بنعمة الله عليه: يا أيها الناس قد أكرمني الله فعلمني لسان الطير، وهذه معجزة لسليمان لم يعطها الله لأحد من البشر، وقد دلت الأبحاث الحديثة على أن لكل جنس من الطير طريقة خاصة يتفاهم بها أفرادها، منها: اللمس، ومنها الصوت، ومنها الإشارة ﴿وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيء﴾ وأعطاني الله من كل شيء من خيرات الدنيا ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الفَضْلُ المبينُ﴾ أي إن ما خصني الله به هو الفضل الواضح الجلي، قال سليمان ذلك على سبيل الشكر لربه، لا على سبيل الاختيال والكبر.

وبالإضافة إلى فهم سليمان لسان الطير فقد خصّه الله بفهم لسان

النمل كما سخر الله الجن لخدمته:

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ والطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ. حَتَّى إذا أَتَوْا عَلَى وَادي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يحطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ. فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْني أَنْ اشْكُرَ نِعْمَتَكَ التي أَنْعَمْتَ عَليَّ وَعَلى وَالِدَيَّ وَأَن أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْني بِرَحْمَتِكَ في عِبَادِكَ الصَّالِحينَ﴾ (١٧-١٩).

فالله سبحانه يقول: بأنه جُمِعَ لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير في مسير لهم ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي تحبس صفوفهم الأولى وتمنع من السير حتى يلحقهم أواخرهم فيكونون مجتمعين لا يتخلف منهم أحد لكثرتهم ﴿حَتَّى إذَا أَتَوْا عَلَى وَادي النَّمْلِ﴾ أي حتى إذا أتى سليمان وجنوده على وادٍ بالشام كثير النمل ﴿قَالَتْ نَمْلَة: يَا أَيُّها النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُم﴾ أي قالت إحدى النملات لرفيقاتها: ادخلوا بيوتكم[1] قالت ذلك لما رأت جيش سليمان الكبير ﴿لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرونَ﴾ أي من عدل سليمان وفضله، وفضل جنوده بأن لا يحطموا ويهلكوا نملة فما فوقها من مخلوقات الله الحية غير المؤذية إلاّ وهم لا

---

(١) يتضح من هذه الآية أن النمل يعيش في جماعات وأن من خصائصه اليقظة والحذر وقد عرف عن النمل أن له مجتمعاً منظماً وأنه على قدر كبير من الذكاء وحب العمل والمثابرة. ومجتمع النمل هو الوحيد بين االمخلوقات الحية بعد الإنسان الذي يقوم بدفن موتاه. ومن مظاهر مجتمع النمل المترابط قيامه بمشروعات جماعية مثل إقامة الطرق الطويلة. ولأعضاء مجتمع النمل في جمع المواد الغذائية وحملها وتخزينها والمحافظة عليها طرق فريدة في نوعها فإذا لم تستطع النملة حمل ما جمعته في فمها كعادتها لكبر حجمه حرّكته بأرجلها الخلفية ورفعته بذراعيها. ومن عادتها أن تقضم الجذور وتفلق بعض الحبوب قبل تخزينها حتى لا تعود إلى الإنبات مرة أخرى وتجزىء البذور الكبيرة لكي يسهل عليها إدخالها في مستودعاتها. وإذا ما ابتلت بفعل المطر أخرجتها إلى الهواء والشمس لتجف.

يشعرون. فالنملة بما ألهمها الله أثنت على سليمان، ونفت عنه الظلم وأخبرت رفيقاتها بأن سليمان وجنوده يتحرزون عن أن يدوسوهم عمداً بأقدامهم.

سمع سليمان قول النملة بما خصه الله من معجزة ذات شقين، أولاً: سماعه لصوت النملة الذي هو في منتهى الخفوت، وثانياً: فهمه لما يعنيه صوتها ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً﴾ أي تبسم إلى حد الشروع في الضحك، داعياً ربه قائلاً: ﴿ربِّ أَوْزِعْني أن أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ التي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى وَالِدَيَّ﴾ أي ربِّ ألهمني واجعلني أقوم بواجب شكرك على نعمائك التي أنعمتها عليَّ وعلى والديَّ، وفي الإشارة إلى والديه اعتراف منه بأن انتساب الابن إلى أب شريف صالح نعمة من الله على الابن ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالحاً تَرْضَاهُ﴾ ووفقني لعمل الخير الذي ترضاه ويقربني منك ﴿وَأَدْخِلْني بِرَحْمَتِكَ في عِبَادِكَ الصَّالِحينَ﴾ وأدخلني الجنة دار الرحمة مع عبادك الصالحين، والصالح من عباد الله هو الذي لا يعصي الله ولا يهمّ بمعصية.

فأول طلب طلبه سليمان في دعائه هو أن يلهمه الله الشكر على نعمائه، والشكور من عباد الله هو الذي يثني على ربه بلسانه بما أولاه إياه من الإحسان مع المحبة والامتنان له. ويبذل غاية وسعه في طاعته وأداء ما كلّفه به من عبادته فلا يتخذ نِعَمَ الله عليه وسيلة للمعصية والإضرار بالناس. فالشكر هو أول واجب يقوم به الإنسان لخالقه على نعمه التي لا تحصى، ولا يغفل عن نِعَمِ الله ولا يؤدي شكرها إلاّ إنسان عقوق للإحسان كفور بالنعمة جحود لفضل الله عليه.

فهذا الدعاء الذي ذكره القرآن على لسان سليمان هو أمثولة للمؤمنين ودعوة لهم ليدعوا ربهم بهذا الدعاء أو بمثله، والدعاء هو الرغبة في الحصول على شيء ما، فبمجرد رغبة المؤمنين بالحصول على هذه

الخصال الكريمة التي اشتمل عليها هذا الدعاء هو إيحاءٌ لهم، وحفزٌ لهم للقيام بما دعوا به ربهم.

ولما كان سليمان خصه الله بفهم لسان الطير فهنا يذكر القرآن لنا ما أخبر به الهدهد سليمان من أنباء عن مملكة سبأ:

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ: مَا لِيَ لا أَرَى الهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الغَائِبِينَ. لأعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أو لأَذْبَحَنَّهُ أو لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ. فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأ بِنَبَإٍ يَقِينٍ. إِنِّي وَجَدْتُ آمْرَأَةً تَمْلِكُهُم وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٠-٢٣).

فسليمان ﴿تَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾ وتَفَقُّدُه للطير هو تطلب ما غاب عنه منها، وتعرُّف أحوالها، وكانت الطير تصحبه في سفره، وتظلله من حر الشمس باجنحتها. ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الغَائِبِينَ﴾ أي اأخطأه بصري فلم أره أم غاب فلم يحضر دون إذن بالغياب ﴿لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً﴾ فلما أخبر سليمان بأن الهدهد لم يحضر أقسم بأنه سيعذبه عذاباً شديداً، وكان تعذيبه للطير أن ينتف ريشها أو أجنحتها ﴿أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ﴾ أو لأقتلنه ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أو ليأتيني بحجة واضحة أو عذر أعذُره فيه ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ فمكث الهدهد غائباً زمناً غير طويل ثم حضر ﴿فَقَالَ: أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ أي قال الهدهد لسليمان بعد أن عوتب على غيابه: علمت بما لم تعلمه من الأمر، والإحاطة العلم بالشيء من جميع جهاته ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ أي وأتيتك من مدينة سبأ بخبر مؤكد ذي شأن، فسليمان خفي عليه ما علمه الهدهد ذلك الطائر الضعيف الذي تحدى سليمان بقوله: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ الذي فيه من التحدي له ولعلمه الشيء الكثير، وفي هذا درس بالغ، لأن الإنسان مهما بلغ من العلم فلا بُدَّ أن يجد في أضعف خلق الله من يفوقه علماً في ناحية

ما من نواحي المعرفة.

وتابع الهدهد قائلاً: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امرأة تَمْلِكُهُم﴾ أي إني وجدت مملكة سبأ تحكمها ملكة، وهذا الخبر غريب لأن الممالك يحكمها الرجال عادة، وهذه الملكة: ﴿وَأُوتِيَت مِنْ كُلِّ شَيءٍ﴾ أي قد أُعطيت من كل ما تريد من أسباب القوة وألوان النعم ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ والعرش سرير أو كرسي الملك وسمي بذلك لأنه كان عظيماً في حجمه محلًى بالذهب والفضة مرصعاً بالأحجار الكريمة.

وتابع الهدهد حديثه مع سليمان مخبراً له ما شاهده من عبادة مملكة سبأ للشمس:

﴿وَجَدْتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُم فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ. أَلاَّ يَسْجُدُوا للَّهِ الَّذي يُخْرِجُ الْخَبْءَ في السَّمٰوات وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ. اللهُ لا إِلَه إلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ العَظِيمِ﴾ (٢٤-٢٦).

لقد قال الهدهد لسليمان: لقد وجدت ملكة سبأ وشعبها يسجدون للشمس[١] فيعبدونها متجاوزين عبادة الله ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُم﴾ أي وحسَّن لهم إبليس عبادتهم للشمس وسجودهم لها وحبَّبَ ذلك إليهم

---

(١) يسجدون للشمس: أما أن السبئيين كانوا يعبدون الشمس فذلك ما كشفت عنه الدراسات العلمية وأثبتت صحته، فمن الآلهة المعروفة عند السبئيين: (عثر) و (المقه) و (هبس) و (ذات حميم) و (ذات بعدان) فعثر هو ولد الشمس التي يطلق عليها (أم عثر) وهي تعتبر آلهة البركة والخصب والحبل. و (ذات حميم) معناها ذات الأشعة التي تشبه الحميم. و (ذات بعدان) أي ذات البعد وقصد بها الشمس حيث تكون بعيدة عن الأرض (تاريخ العرب قبل الإسلام تأليف الدكتور جواد علي جـ٢ و جـ٥) وهذا سَبْق علمي للقرآن يضاف إلى جملة معجزاته في كشف الحقائق التي كانت خافية عن الناس.

﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ فصرفهم الشيطان عن طرق الهداية والخير ﴿فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ﴾ فهم في ضلالهم يتيهون لا يهتدون إلى الحق ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾[1] أي وحبَّب لهم الشيطان أعمالهم لئلّا يسجدوا لله ﴿الذي يُخْرِجُ الخَبْءَ في السَّموات والأرْضِ﴾ الذي يظهر ما هو مخفي ومستور في السموات من مطر وما في الأرض من نبات، كما يظهر المخفي من أسرار الكائنات التي يهدي إلى كشفها من يشاء من عباده ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ ويعلم الله سبحانه السرّ من أمور خلقه وما يعلنونه من أقوالهم وأفعالهم ﴿الله لا إلَه إلاَّ هُوَ﴾ الله الذي لا تصلح العبادة إلاّ له، فهو لا إلَه غيره فأخلصوا له العبادة وأفردوه بالطاعة ﴿رَبُّ الْعَرْشِ العَظِيمِ﴾ مالك العرش العظيم الذي يتعالى عرشه عن كل عرش في الأرض ولا شبيه له، وعرش الله ما لا يعلمه البشر على الحقيقة إلاّ بالاسم وهو أعظم المخلوقات.

ويتابع القرآن فيذكر رسالة سليمان إلى ملكة سبأ وَوَقْع هذه الرسالة عليها وعلى شعبها:

﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الكَاذِبِينَ. اذْهَب بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِه إِلَيْهِمْ، ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُر مَاذَا يَرْجِعُونَ. قَالَتْ يَا أَيُّها الْمَلأ إنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ. إنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ. أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ (٢٧-٣١).

فسليمان خاطب الهدهد بعد أن زوَّده بأخبار مملكة سبأ: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الكَاذِبِينَ﴾ أي ستتحرى ما أخبرتنا به ونعرف

---

(١) (ألا يسجدوا لله) هذه الجملة في موقع مفعول به لكلمة (وزين) أي وزين لهم الشيطان أعمالهم لئلا يسجدوا لله. و (ألاّ) بالتشديد مكونة من «أن» و «لا» وقد تكون «لا» زائدة والجملة في موقع المفعول به لكلمة «يهتدون» بمعنى: فهم لا يهتدون إلى أن يسجدوا لله.

حقيقته أأنت صادق فيه أم أنت كاذب ﴿اذْهَب بِكتَابي هَذَا فَأَلْقِه إلَيْهِم﴾ أي اذهب بهذه الرسالة فألقها إلى أهل سبأ ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُم فَانْظُر مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ ثم بعد إلقاء الرسالة تنح إلى مكان قريب تتوارى فيه لتعرف ماذا يقول بعضهم لبعض، وماذا يتبادلون الرأي.

ولم يذكر القرآن تفاصيل إلقاء الرسالة وكيف عثرت عليها ملكة سبأ ولكن الآيات تنقلنا إلى وصف الحوار بين ملكة سبأ وأشراف قومها ﴿قَالَتْ: يَا أَيُّهَا الملأُ إنِّي أُلْقِيَ إلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ وصفت الرسالة بهذا الوصف لاشتمالها على كلام حسن ولما تضمنته من لين الكلام والموعظة في الدعاء إلى عبادة الله ﴿إنَّه مِنْ سُلَيْمَانَ وَإنَّه بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾ وهذا الكتاب مُرْسَلٌ من سليمان ومفتتح بالتسمية التي هي إثبات لوحدانية الله وكونه رحماناً رحيماً ﴿ألَّا تَعْلُوا عليَّ﴾ أن لا تتكبروا ولا تتعاظموا عما دعوتكم إليه ﴿وَأْتُوني مُسْلِمِينَ﴾ وأقبلوا عليَّ مؤمنين مذعنين لله بالوحدانية والطاعة.

قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾
قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا
تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟
أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم
بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ
بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾
ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً
وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى
مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ
وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠
ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ

شَرح المفردَات

أفتوني: أشيروا عليّ.

مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أمراً: لا انفذ حكماً، ولا أبرم أمراً.

تَشْهَدُونِ: تحضروني.

أولو بَأسٍ شديد: أصحاب شدة في الحرب.

لا قِبَلَ لَهُم بِهَا: لا طاقة لهم بمقاومتها.

صَاغِرُونَ: مهانون محتقرون أذلاء.

عِفْريتٌ من الجنّ: شيطان مارد قوي.

قَبْلَ أنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ: قبل أن تنصرف من مجلسك.

قَبْل أن يَرْتَد إلَيْك طَرْفُكَ: ما يصل إليك من الرؤية قبل تحريك أجفانك.

مُسْتَقِرًا: ثابتاً عنده ومستقراً أمامه.

هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾

شَرح المفردَات

ليبلوني: ليختبرني ويمتحني.

نَكِّروا لها عرشها: غيروه إلى حال أخرى فتنكره إذا رأته.

الصرح: القصر.

حسبته لُجَّةً: ظنته وخيل إليها أنه ماء غزير.

مُمَرَّدٌ من قَوَارِيرَ: مستوٍ مملسٌ من زجاج شفّاف.

تَابع سُورَة النَّمْل

ويتابع القرآن فيذكر وقع رسالة سليمان على ملكة سبأ وشعبها وما تداولوا في شأنها:

﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الملأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ. قَالُوا: نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ. قَالَتْ إِنَّ الملوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ. وَإِنِي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَا يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ (٣٢-٣٥).

لقد قالت ملكة سبأ لأشراف قومها: ﴿أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾ أشيروا عليَّ وبيّنوا لي الصواب في أمر رسالة سليمان ﴿مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ ما كنت مبرمة أمراً حتى تحضروا عندي وتشيروا عليَّ.

هذا هو الحكم الحصيف القائم على مبدأ الشورى وعدم الاستبداد بالحكم. ذكره القرآن على لسان ملكة سبأ ليكون أمثولة لحكام الدول في كافة العصور. فالشورى دعامة من دعائم الحكم الصالح يجلب الخير للأمة ويجنبها الأضرار التي يمكن أن تصدر عن أهواء قادتها ومطامعهم وغاياتهم الشخصية، فالحكم القائم على مبدأ الشورى أثبت صلاحيته لخير الأمم، فرأي الجماعة أرجح وأصوب من رأي الفرد، وَعُقُول مجتمعة أنفع من عقل واحد، فمبدأ الشورى قررته ملكة سبأ، وألزمت به نفسها، كما نَوَّه الإسلام بمبدأ الشورى ودعا إلى الأخذ به، ففي القرآن يخاطب الله رسوله محمداً: ﴿وَشَاوِرْهُم فِي الأَمْرِ﴾ ويثني الله على المؤمنين الذين من صفاتهم ﴿وَأَمْرُهُم شُورى بَيْنَهم﴾.

وبعد أن طلبت بلقيس المشورة من أشراف قومها أجابوها: ﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي نحن أصحاب قوة وشدة في الحرب

وكثرة في الرجال والعتاد ﴿وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ أي وأمرنا إليك فتأملي ماذا تأمريننا به فنحن سامعون لأمرك مطيعون لك. فلما سمعت تفويضهم الأمر إليها قالت هذه الكلمة الموجزة التي نرى مصداقيتها في كافة العصور: ﴿إِنَّ الملوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ أي خربوا مبانيها ونهبوا أموالها وفرّقوا أهلها ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ وأهانُوا أشرافها وأمعنوا فيهم قتلاً وأسراً وحبساً ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ وهذه عادتهم المستمرة الثابتة التي لا تتغير. إن قول ملكة سبأ هذا ينبىء عن حصافة عقلها وتبصرها بالعواقب الوخيمة التي تجلبها الحروب. ثم أوضحت وجه الرأي عندها بقولها: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَا يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ أي إني سأبعث لسليمان وقومه بهدية وأنظر فيما يرجع به رسلي من الخبر هل يقبل الهدية منا ويكفّ عنا أو يفرض علينا ضريبة نحملها إليه في كل عام ونلتزم له بذلك.

ثم يذكر القرآن جواب سليمان على الهدية التي أرسلتها ملكة سبأ إليه:

﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُم بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُم تَفْرَحُونَ. ارْجِعْ إِلَيْهِم فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (٣٦-٣٧).

فالله سبحانه يقول: ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُليمانَ﴾ في الكلام هنا حذف، أي فأرسلت بلقيس الهدية إلى سليمان فلما جاء رسول بلقيس ومن معه بالهدية إلى سليمان ﴿قَالَ: أَتُمِدُّونني بِمَالٍ﴾ أي قَالَ سُليمان عَلَى سبيلِ الإنكار: أتزيدونني مالاً إلى ما تشاهدونه من أموالي ﴿فَمَا آتَانيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُم﴾ فَمَا أعطاني الله، من النبوة والهداية والملك العظيم، خير ممّا أعطاكم الله من المال ﴿بَلْ أَنْتُم بِهَدِيَّتِكُم تَفْرَحُونَ﴾ بل أنتم تفرحون بما يُهدى إليكم فرح افتخار وخيلاء لقصور همتكم على الدنيا وحبكم الزيادة فيها.

وقفة عند قول سليمان: ﴿فَمَا آتاني اللَّهُ خَيرٌ مِمَّا آتاكم﴾ كلمة قالها لتكون قدوة من بعده يقولها كل مصلح وكل زعيم وكل قاضٍ عندما يعرض أهل الباطل عليهم رشوة للسكوت عن ظلمهم وفسادهم في الأرض، فهدية بلقيس ما هي في الحقيقة إلاّ رشوة أرادت بها التأثير على سليمان لتركها وشأنها في مملكتها والإغضاء عما كانت تقوم به وقومها من عبادة الشمس. ثم خاطب سليمان رسول بلقيس: ﴿إرْجِعْ إلَيْهِم فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ أي ارجع إلى قومك حاملاً معك الهدايا فوالله لنأتينهم بجنود لا طاقة لهم بمقاومتها ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ ولنخرجهم من أرضهم أذلاء مُهانين مُستعبَدين.

أُخبرت بلقيس بما جرى لرسولها عند سليمان فأيقنت أنه نبي لأن من عادة الملوك أن يرضوا بالهدايا والجزية، فلما رفض الهدية أصلاً ولم يطلب المزيد من المال فهذا موقف لا يقفه ملوك الأرض، ثم أرسلت إليه من يخبره بأنها قادمة إليه مع أشراف قومها لينظروا في ما يدعو إليه من دين الله ثم غادرت مملكتها بعد أن استوثقت من الحراسة على عرشها.

ويتابع القرآن فيذكر معجزة إحضار عرش بلقيس إلى سليمان بسرعة متناهية:

﴿قَالَ يَا أَيُّهَا المَلأُ أَيُّكُم يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ. قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ. قَالَ الَّذِي عِنْدَه عِلْمٌ مِنَ الكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَم أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ (٣٨-٤٠).

عرف سليمان بمسيرة بلقيس إليه فأراد أن يُريها بعض ما خصه الله به من معجزات ليكون ذلك دليلاً على نبوته، فقال لمن حوله من الإنس

والجن: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُم يَأْتيني بِعَرْشِهَا﴾ اي واحدٍ منكم يأتيني بعرش بلقيس العظيم ﴿قَبْلَ أَنْ يَأْتُوني مُسلِمين﴾ قبل أن يأتوني طائعين منقادين لأمري ﴿قَالَ عِفْريتٌ مِنَ الجِنِّ﴾ قال رئيس من الجن مارد قوي ﴿أَنَا آتيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾ أي آتيك بعرشها قبل أن تقوم من مجلسك هذا الذي جلست فيه للحكم بين الناس، وكان سليمان يمكث من أول النهار إلى انتصافه في مجلسه ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَويٌّ أمينٌ﴾ وإني قادر وقوي على حمله، أمين على ما فيه من الجواهر ﴿قَالَ الَّذي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الكِتَابِ﴾ قال رجل من الإنس عنده علم من كتاب الله يعلم اسم الله الأعظم[1] الذي إذا دُعي به أجاب، وقيل هو الملك جبريل عليه السلام، وقيل هو ملك من الملائكة أيد الله به سليمان، وقيل هو النبي سليمان نفسه حيث خاطب العفريت من الجن الذي أظهر استعداده بأن يأتيه بالعرش قبل أن يقوم من مجلسه وقال له ﴿أَنَا آتيكِ بهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ أي أنا آتيك بالعرش قبل أن يصل إليك من الرؤية ما كان منك على مدّ البصر قبل تحريك جفنيك ﴿فَلَمَّا رآهُ مُسْتَقِرًا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْل رَبِّي﴾ أي فلما نظر سليمان ورأى عرش بلقيس بين يديه قال هذا من فضل الله ونعمته عليّ ﴿لِيَبْلُوني أَأَشْكُرُ امْ اكْفُرُ﴾ ليختبرني أأشكر إنعامه عليَّ أم أجحد فضله وإحسانه ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ أي ومن يشكر الله على إحسانه فإن ذلك الشكر عائد ثوابه ومنفعته للشاكر إذ يضمن استمرار نعم الله عليه ويستمد المزيد منها ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَريمٌ﴾ ومن كفر فإن مغبة كفره تعود بالوبال عليه وإن ربي غني لا ينفعه شكر الشاكرين ولا يضره كفر الكافرين وهو سبحانه كريم ينعم على عباده وإن قابلوا نعمه بالكفر.

ثم يصف القرآن وصول بلقيس إلى مملكة سليمان وتعرّفها على

---

(١) ليس هناك أمر ثابت في تحديد اسم الله الذي دعا به، وإن قيل إنه: «يا إلهنا وإله كل شيء إلهاً واحداً لا إله إلّا أنت ائتني بعرشها». وقيل هو: «يا ذا الجلال والإكرام».

عرشها عنده:

﴿قَالَ نَكِّروا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ. فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ. وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ (٤١-٤٣).

ولما جيء سليمان بعرش بلقيس أمر رجاله بتغيير معالمه ﴿قَالَ: نَكِّروا لَهَا عَرْشَهَا﴾ والتنكير: التغيير، أي أن يغيروا في صفاته وشكله بالزيادة والنقصان، وذلك ليختبر معرفتها وجودة ذهنها ﴿نَنظُر أَتَهتدي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِين لا يَهْتَدونَ﴾ أي لننظر إذا رأته هل تهتدي بأنه عرشها أم لا، وقد يكون المعنى: أتهتدي إلى الإيمان بالله من جراء هذه المعجزة، أم تكون من الذين لا يهتدون، فسليمان أراد أن تستدلَّ بعرشها عنده على صدق نبوته حيث أيده الله بهذه المعجزة من أحضار عرش بلقيس إليه من مسافة شاسعة وبسرعة لا تخطر ببال بشر بالرغم من إغلاق الأبواب عليه وتكليف الحرس بالسهر عليه.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قيل: أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾ فلما جاءت ملكة سبأ إلى سليمان أظهر لها عرشها وقال لها: أمثل هذا العرش الذي رأيته هو عرشك الذي تركته ببلادك، ولم يأتِ السؤال: أهذا عرشك بل جاء بكاف التشبيه لئلا يكون ذلك تلقيناً لها، فلا يتم الاختبار لعقلها، ولما رأته على هيئة لا تعرفها فيه رغم التشابه بينهما قالت: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ فلم تقل نعم هو، ولا ليس به شبه، بل قابلت تشبيههم بتشبيهها وهذا غاية في الذكاء والحزم، وهي أيقنت أنه عرشها، وأدركت أن حضور العرش عند سليمان هو معجزة له ﴿وَأُوتينا العِلْمَ مِنْ قَبْلِها وَكُنَّا مُسْلِمينَ﴾ أي قال سليمان لمن حوله مثنياً على الله متحدثاً بنعمه: إنها وإن هديت إلى العلم بجلال الله وقدرته لكننا أوتينا العلم بذلك من قبل أن تُؤتى هي العلم، وكنا مسلمين لله خاضعين

له. وقد يكون هذا الكلام من بلقيس بمعنى: أنها أُوتيت العلم بكمال قدرة الله وصحة نبوة سليمان قبل هذه المعجزة وكانت مسلمة من ذلك الوقت ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دونِ اللَّهِ﴾ أي صرفها سليمان عما كانت تعبد من دون الله وأبان لها الحقيقة التي يجب أن تسلكها وهي عبادة الله وحده، وقد يكون المعنى: وصرفها عن عبادة الله عبادة الشمس ﴿إِنَّها كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ إنها قد كانت على دين قومها وآبائها فاتبعت آثارهم في الكفر.

ثم يقدم لنا القرآن صورة عن عظمة الهندسة في قصر سليمان:

﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّه صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُليمانَ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ (٤٤).

وليري سليمان بلقيس روعة الهندسة التي اختص بها دونها فقد أمر المهرة من الصناع من الإنس والجن ببناء قصر فصُنعت أرض بهوه ـ أي ساحة القصر ـ من زجاج شفيف مستو أملس، وأمر بإرسال الماء تحت الزجاج ووضع فيه السمك فبدا البهو كأنه بركة ماء ثم جلس سليمان في صدر البهو، ثم طلب من بلقيس أن تدخل القصر ﴿قيل لَهَا ادْخلي الصَّرْح﴾ فدخلته إلى أن بلغت ساحته ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ أي فلما رأت ساحة القصر حسبته ماء غزيراً ﴿وَكَشَفَت عَنْ سَاقَيْهَا﴾ وكشفت الثياب عن ساقيها لتخوض فيه ولتتجنب البلل فيها، عندئذ قال سليمان ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ﴾ إنه قصر مملس من زجاج لا يحجب وراءه، فراعها ذلك المنظر المادي وعلمت أن مُلكها لا يساوي شيئاً بجوار مُلك سليمان فقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ أي إني ظلمت نفسي بعبادة الشمس وترك عبادة الله ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيمَانَ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ وخضعت مع سليمان لله مذعنة له بالوحدانية، مفردة له بالألوهية والربوبية دون كل ما سواه.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً

شـرح المفـردات

بالسّيّئة قَبْلَ الحَسَنَة: بالعذاب قبل الرحمة.

أطَّيَّرْنا: تشاءمنا «وأصله تطيّرنا».

طَائِرُكم: شؤمكم.

تُفْتَنُون: تختبرون بالخير والشر.

تِسْعَةُ رَهْطٍ: تسعة رجال.

تَقَاسَمُوا بالله: احلفوا بالله.

لَنُبَيِّتَنَّه وأهله: لنقتلنه وأهله ليلاً.

وليِّه: أقرباء القتيل الذين لهم الحق بالمطالبة بالقصاص والدية.

دَمَّرْنَاهُم: أهلكناهم.

خَاوِيَة: خالية خربة.

مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ۝٥٥ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ۝٥٦ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَٰهَا مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ۝٥٧ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ ۝٥٨

شَـرح المفـردَات

قَدَّرْنَاهَا: جعلناها بتقديرنا وحكمنا عليها.

مِنَ الغَابرين: من الباقين في العذاب.

تَابع سُورَةِ النَّمْل

وبعد الكلام عن سليمان وما خَصّه الله به من معجزات ينتقل بنا القرآن إلى الكلام عن قوم ثمود:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إلى ثَمُودَ أَخَاهُم صَالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّه فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمونَ. قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُم تُرْحَمُونَ. قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُم عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنتُم قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ (٤٥-٤٧).

فالله سبحانه يقول: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُم صَالِحاً﴾[1] أي ولقد أرسلنا إلى قوم ثمود أخاهم في النسب وهو صالح عليه السلام الذي خصَّه الله بالنبوة والرسالة إلى قومه، وقد لخص القرآن دعوة صالح: ﴿أَنِ اعبدوا الله﴾ أي اعبدوا الله وحده ولا تجعلوا معه إلّهاً آخر، والعبادة هي غاية التذلل ولا يستحقها إلاّ من له غاية الإفضال على العباد وهو الله سبحانه وتعالى، ويستتبع العبادة العمل بشرع الله الذي ينزله على رسوله والذي فيه الحق والعدل والخير للإنسان ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي فلما أتاهم صالح برسالة الله داعياً لهم إلى عبادته صار قومه من دعوته فريقان: فريق مصدِّق بما جاء به مؤمن بوحدانية الله، وفريق مكذب به كافر، وصار كل فريق يخاصم الآخر على ما هو فيه ويزعم أن الحق معه ﴿قَالَ: يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلونَ بِالسَّيِّئة قبل الحَسَنَةِ﴾ المراد بالسيئة هنا: العذاب. والحسنة المراد بها الرحمة، فرسول الله صالح يقول لقومه الذين رفضوا دعوته: لِمَ ترفضون الإيمان بوحدانية الله وتطيعونه بما يجلب لكم ثوابه ورحمته، وتستمرون على الكفر الذي يجلب لكم العقاب والعذاب ﴿لَوْلا تَسْتَغْفِرُون

---

(١) كانت ثمود تعبد الأصنام وهذه الأصنام كان يطلق عليها اسماء: (ود) و (شمس) و (مناف) و (اللات) وغيرها. (عن تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي).

الله لَعَلَّكُم تُرْحَمُونَ﴾ أي هَلاَّ تَطْلُبون المغفرة من ربِّكم وتتوبون إليه مما كنتم تعبدون من دونه حتى تنالوا رحمته. فالرجوع إلى الله بالتوبة وطلب الغفران من الله عن المعاصي والذنوب يرفع البلاء ويكشف العذاب ويجلب الرحمات من الله سبحانه[١].

﴿قَالُوا: اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَعَكَ﴾ أي تشاءمنا منك يا صالح وبمن اتبعك من المؤمنين. والشؤم: النحس، ولا شيء أضر بالرأي، ولا أفسد للتدبير من اعتقاد النحس في بعض الأمور. وقد كانت العرب تتشاءم في كثير من الأمور فإذا أراد أحدهم سفراً نفّر طائراً فإذا طار يمنة سار وتيّمن أي اعتقد خيراً، وإن طار يَسْرة رجع وتشاءم، وكل ذلك من قصور في العقل ﴿قَالَ: طَائِرُكُم عِنْدَ اللهِ﴾ أي قال صالح لقومه: إن شؤمكم بسبب ما ينالكم من الشر هو من جرَّاء كفركم، وهو عند الله علمه وبقضائه وقدره إن شاء رزقكم وإن شاء رحمكم، وسبب تشاؤمهم أنهم أصابهم القحط فتشاءموا بصالح ومن معه من المؤمنين ﴿بَلْ أَنتم قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ بل أنتم تُمتحنون وتُختبرون مِنْ ربكم إذ أرسلني إليكم أتطيعونه فيجزيكم الثواب الجزيل أم تعصونه فيحل بكم العقاب الأليم.

ويتابع القرآن فيذكر ما حل بثمود من هلاك جزاء كفرهم:

﴿وَكَانَ فِي المدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحونَ. قَالُوا تقاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّه وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّه مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ. وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُم لا يَشْعُرونَ. فَانْظُر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِم أَنَّا دَمَّرْنَاهُم وَقومَهُم أَجْمَعِينَ. فَتِلْكَ بُيُوتُهمْ خاوِيَةً بِمَا ظَلَموا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. وَأَنْجَيْنَا الَّذينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (٤٨-٥٣).

---

(١) وفي هذا المعنى جاء في القرآن: ﴿.. وما كان اللَّهُ مُعذِّبهم وَهُمْ يَسْتَغْفِرون﴾.

أي وكان في المدينة التي يسكنها ثمود ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ أي تسعة رجال من أشرافهم وأغنيائهم ﴿يُفْسِدون في الأَرْض وَلا يُصْلِحُون﴾ أي يعيثون في الأرض فساداً ولا يعملون فيها صلاحاً ألبتة، وإنما خص الله هؤلاء التسعة بالخبر عنهم لأنهم سعوا وتعاونوا على عقر الناقة التي نهى الله عن مسها بسوء ﴿قالوا: تقاسَمُوا بالله﴾ أي قال هؤلاء التسعة لبعضهم البعض احلفوا بالله ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ لنأتين صالحاً ومن آمن معه في الليل فنقتلهم، يقال: بيّت القوم العدو أوقعوا به ليلاً ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّه﴾ أي يقولون لذوي قرابة صالح ومن يطالبون بدمه، بمعنى المطالبة بالقصاص ممن قتله ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾ في الكلام هنا حذف يدل عليه ما قبله، والتقدير: ما شهدنا مهلك أهله ولا شهدنا مهلكه. ودل عليه ما جاء في الآية ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَه﴾ ثم قالوا بعد ذلك ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ أي يقولون لوليه: ونحن صادقون بأننا ما شهدنا مهلكه ولا مهلك أهله.

﴿ومكروا مكراً﴾ مكر الإنسان: دبّر الشر لغيره في خفية واحتال لإيقاع الأذى به، فالكفار من قوم ثمود دبّروا الفتك بصالح وبأهله خفية. ﴿وَمَكَرْنَا مَكْراً﴾ هنا أضيف المكر إلى الله والمراد إيقاع السوء بهم، والمكر هنا من باب المشاكلة وهي الاتفاق في اللفظ دون المعنى، لأن المكر من صفات الضعفاء والخبثاء والله تعالى هو القوي الغالب ويتنزه عن مشابهة الخلق وليس من صفاته المكر[١]، ولكن الله سمى عقابهم على أعمالهم باسم ابتداء فعلهم وهو المكر ﴿وَهُم لا يَشْعُرُونَ﴾ أي جازاهم الله على مكرهم من حيث لا يشعرون ﴿فَانْظُر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهم﴾ فتفكر يا محمد كيف كان مصير غدر ثمود بنبيهم صالح ﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُم وَقَومَهُم أَجْمَعِينَ﴾ أي أن الله أهلك التسعة الرجال الذين يفسدون في الأرض وقومهم من ثمود

---

(١) وقد يكون تسمية عقوبة الله لهم مكراً لأنها جاءتهم بغتة من حيث لا يشعرون.

أجمعين ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهم خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ فتلك مساكنهم خالية أو ساقطة متهدمة بسبب ظلمهم ﴿إنَّ في ذَلَكَ لآيَةً﴾ إن في ما ذكر من التدمير العجيب لهم بسبب ظلمهم لعبرة عظيمة ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي يعلمون ما فعل الله بهم فيتعظون ويقلعون عن كفرهم ﴿وَأنْجينَا الَّذِين آمَنُوا﴾ أي ونجّى الله من نقمته وعذابه الذي نزل بثمود نبيه صالحاً ومن آمن معه ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ وكان صالح ومن آمن معه يتجنبون سخط الله وعذابه بإطاعته في أمره ونهيه.

ويتابع القرآن فيذكر ما حلَّ بقوم لوط من عذاب من جراء اقترافهم الشذوذ الجنسي وعصيانهم أوامر ربهم:

﴿وَلُوطاً إذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأتُونَ الفَاحِشَةَ وَأَنْتُم تُبْصِرُونَ. أئِنَّكُم لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنْتُم قَوْمٌ تَجْهَلُونَ. فَمَا كَانَ جَوابَ قَوْمِهِ إلَّا أنْ قَالوا أخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُم إنَّهم أنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ. فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إلَّا امرَأتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الغَابِرينَ. وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَطَراً فَسَاءَ مَطَر الْمُنْذَرِينَ﴾ (٥٤ـ٥٨).

فالله سُبحانه يقول: ﴿وَلُوطاً إذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ أي واذكر يا محمد إذ أرسلنا لوطاً إلى قومه أهل سدوم في الأردن وقال لهم: ﴿أَتَأْتُونَ الفَاحِشَةَ﴾ والفاحشة ما قبح فعله من الذنوب، والفاحشة التي كانوا يتعاطونها هي اللواط ﴿وأنْتُم تُبْصِرُونَ﴾ بمعنى بصر الفكر والعقل أي إنكم تفعلون الفاحشة وأنتم تعلمون وتعقلون سوء فعلكم. فالله خلق الأنثى للذكر، والذكر للأنثى في قضاء الشهوة وعمارة الكون، ولم يخلق الذكر للذكر، ولا الأنثى للأنثى وهي قاعدة بني عليها جميع الكائنات الحية على وجه الأرض. وقد يكون معنى ﴿تُبْصِرون﴾ أي يبصر بعضكم بعضاً عند تعاطي الفاحشة، وقد كان قوم لوط يرتكبون الفواحش علانية كما يرتكبها حالياً

بعض دعاة السوء في الدول الغربية ويصورونها لتعرض على الشاشة المرئية بواسطة (الفيديو) فيراها أهل السوء ويقتدون بها. ثم قال لوط لقومه ﴿بَلْ أَنْتُم قَوْمٌ تَجهلون﴾ والجهل هو ضد العلم، أي تجهلون عاقبة فعلكم، ويأتي الجهل بمعنى السَّفَاهَة وَالمَجانَة، اي أنتم سُفهاء ماجنون مخالفون بذلك أمر الله تعالى بنهيكم عن هذه الفاحشة ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إلاَّ أن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ أي فلم يكن لقوم لوط من جواب على مانهاهم عنه لوط من إتيان الرجال دون النساء إلاَّ أن قالوا أخرجوا أتباع لوط وأهله من قريتكم ﴿إِنَّهُم أُنَاسٌ يَتَطَهَّرونَ﴾ أي إنهم يتطهرون من أعمال السوء قالوا ذلك استهزاء بهم ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ أي فخلصنا لوطاً وأهله من العذاب الذي أنزلناه على قومه ﴿إلاَّ امرأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الغَابِرينَ﴾ إلاّ امرأة لوط جعلناها بقضائنا وتقديرنا من الباقين الماكثين في العذاب، فهلكت بسبب خيانتها لزوجها، ولم ينفعها أنها امرأة نبي من الأنبياء ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَطَراً﴾ والمطر قد فسره القرآن في موضع آخر فقال: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم حِجَارةً مِنْ سِجِّيل مَنْضُودٍ﴾ والسجيل هو الطين المتحجّر، والمنضود هو المتابع ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ فبئس ذلك المطر الذي أمطره الله عليهم بسبب عصيانهم له والذي أهلكهم وأبادهم جميعاً، وبالإضافة إلى ذلك قلب الله بهم قريتهم وجعل عاليها سافلها.

قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ

شَــرح المفـردَات

اصطفى: اختار.

حَدائِقَ ذَاتَ بَهْجَة: بساتين ذات حسن ورونق.

قَوْمٌ يَعْدلون: ينحرفون عن الحق إلى الباطل.

الأرض قراراً: أي تستقرون عليها.

رواسي: جبالاً.

المضطر: المكروب الذي مسّه الضر.

إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾

شَـرح المفـردَات

بل ادّارَك عِلْمُهم في الآخرة: أي ضل علمهم في الآخرة فليس لهم فيها علم.
رَدِفَ لكم: اقترب لكم ودنا.
تُكِنُّ صُدُورهم: تخفي ضمائرهم.

تابع سُورَةِ النَّمْل

ثم يأتي الرد القرآني على المشركين بذكر ما خَلَقَهُ الله في السموات والأرض وتعداد نعمه على خلقه، فكيف يليق بالمشرك أن يعبد الأصنام ويترك عبادة الله الخالق كل شيء:

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ءآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ. أَمَّنْ خَلَقَ السَّموات وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُم مِنَ السَّمَاء مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُم أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ. أَمَّن جَعَلَ الأَرْض قَراراً وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بين البَحْرينِ حَاجزاً أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكثَرُهُم لا يَعْلَمُون﴾ (٥٩-٦١).

فالله سبحانه يقول: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبادِهِ الَّذِين اصْطَفَى﴾ هذه الآية متعلقة بما قبلها التي ذكر فيها هلاك قوم صالح وقوم لوط، والمعنى: الحمد لله والثناء عليه بأن أهلكهم وطهّر الأرض من فسادهم، وأمان من الله وتحية للذين اجتباهم واختارهم من بين خلقه وهم أنبياء الله ورسله وأتباعهم وأصحاب رسول الله محمد وأمته.

هذا الافتتاح بالسلام على عباد الله الذين اصطفاهم هو تعليم حسن، وتذكرة للمؤمنين للسير على آثارهم، واعتراف بجهادهم وفضلهم. ولقد توارث العلماء والوعاظ هذا الأدب الرباني فحمدوا الله وصلّوا على رسوله محمد «أي دعوا له بالرحمة» في مفتتح كل خطبة وقبل كل موعظة وفي أوائل كتبهم. وفي تخصيص عباد الله المؤمنين بالسلام والتحية توبيخ للمعاصرين من الكفار ﴿آلله خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ آلله: بمد الألف أصلها أألله أُدْغمت همزة الاستفهام بالألف. والمعنى: هل الله خير لمن عبده وحده أم عبادة المشركين للأصنام والأوثان التي يشركونها مع الله في العبادة، وهذا

تهكم بالمشركين وتسفيه لآرائهم وتنبيه على خطئهم إذ لا وجه للمقارنة بين عبادة الله وعبادة الأصنام.

ثم يردُّ الله على عبدة الأصنام والأوثان بجملة أمور من مظاهر الكون يرونها أمام أعينهم وهي شاهدة على وجود الله ووحدانيته وانفراده سبحانه بالخلق والإيجاد: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمٰوات وَالأَرْضَ﴾ فالله يخاطب المشركين: أعبادة أصنامكم وأوثانكم التي لا تضر ولا تنفع خيرٌ، أم عبادة من خلق السموات والأرض ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ وأنزل الله لكم بقدرته المطر من السحاب ﴿فَأَنْبَتْنَا به حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ فأنبت الله بهذا الماء النازل من السماء حدائق[1] ذات منظر حسن. ﴿مَا كَانَ لَكُم أن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ أي ما كان للبشر وليس بمقدوهم أن ينبتوا شجرها.

تأمل كيف لفت القرآن الأنظار إلى جمال الحدائق ذات المناظر الخلابة بما تحتويه من أنواع الشجر الوارفة الظلال والثمار المتعددة والزهور المختلفة الألوان، إن التأمل في ذلك من أهم العوامل للتذكير بالخالق وتمجيده والثناء عليه، فالطبيعة خصت بجمال ساحر يستحوذ على النفس والوجدان وتصل الإنسان بالخالق.

ثم يتابع الله قوله: ﴿أَإِلَه مَعَ اللَّهِ﴾ استفهام للإنكار والتوبيخ، أي أغيره يقرن به سبحانه ويجعل شريكاً له في العبادة مع تفرّده تعالى بالخلق والتكوين ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ بل هم قوم يشركون بالله ويسوّون به غيره، أو بمعنى: بل هم قوم يعدلون عن الحق إلى الباطل.

﴿أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرارً﴾ أعبادة الأصنام التي لا تضر ولا تنفع خير

---

(١) الحدائق: جمع حديقة وهي البستان الذي عليه حائط محوط.

أم عبادة الله الذي مهّد الأرض للإقامة فيها والاستقرار عليها ﴿وَجَعَلَ خِلالَهَا أنْهاراً﴾ وجعل في شعابها الأنهار العذبة التي تروي الأرض ويُسقى منها النبات والشجر ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾ والرواسي المراد بها الجبال، وهي ثابتة مستقرة في الأرض وهي في الغالب مصادر الأنهر لأن الينابيع تتفجر منها. ومن الينابيع تتكون الأنهار ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحرينِ حَاجِزاً﴾ والمراد بالبحرين الماء العذب والماء المالح وقد جعل الله بينهما حاجزاً من طبيعة الأرض بحيث لا يفيض البحر على النهر فيفسده. هذا وإن أكثر مجاري الأنهر أعلى من مستوى سطح البحر ﴿أإله مَعَ اللَّهِ﴾ وما يملك أحد أن يُقرّ بأن هناك إله مع الله لأن وحدة التصميم في الكون شاهدة على وحدانية الله ﴿بَلْ أكثرُهُم لا يَعْلَمُونَ﴾ بل أكثرَ المشركين لا يعلمون مقدار عظمة الله فلهذا يشركون به غيره في العبادة.

ويتابع القرآن فيذكر أدلة وبراهين على وحدانية الله وانتفاء شريك له:

﴿أمَّن يُجيبُ الْمضطَرَّ إذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُم خُلَفَاءَ الأَرْضِ أإله مَعَ اللَّه قَليلاً مَا تَذَكَّرونَ. أمَّن يَهْدِيكُم في ظُلُماتِ البَرِّ وَالبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أإلَهٌ مَعَ اللَّه تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ. أمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُم مِنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ أإله مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُم إن كُنْتُم صَادِقِينَ﴾ (٦٢-٦٤).

فالله سبحانه يقول: ﴿أَمَّن يُجِيبُ المضْطَرَّ إذَا دَعَاهُ﴾ أي أعبادة ما تعبدون من أصنامكم وأوثانكم التي لا تضر ولا تنفع خير أم عبادة الله الذي يجيب المضطر إذا دعاه ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ ويكشف الضر النازل به.

فالمضطر هو الذي أحوجه مرض أو فقر أو حادث خطير من حوادث الدهر إلى الالتجاء إلى الله والتضرع إليه فيدعوه لكشف ما اعتراه من الضر

وإزالته عنه، وقد لا يجاب دعاء المضطر لمانع رباني يمنع من إجابة دعائه، ولكن الله ضمن أجابه دعاء المضطر إذا دعاه عن إخلاص في الدين، وقطع العلائق عما دون الله.

ودعاء المظلوم مستجاب وقد قال محمد ﷺ لمعاذ بن جبل لما وجهه إلى أرض اليمن: «واتق دعوة المظلوم فليس بينها وبين الله حجاب»، ومن أشد اضطراراً إلى الدعاء من المظلوم.

فالمضطر في لحظات كربه لا يجد ملجأ يلجأ إليه غير الله يدعوه ليكشف الضر الذي نزل به، إنها الفطرة التي خلق الله الناس عليها بأن لا تعرف عند الشدة إلاّ خالقها وحده لأنه القوة الوحيدة التي تملك الغوث والنجدة، وكثير من الناس يغفلون عن هذه الحقيقة في ساعات الرخاء فيلجأون إلى عبادة معبودات باطلة، ولكن عند الشدائد تنهار كل هذه المعبودات ولا يبقى من ملجأ إلاّ الله. والقرآن يذكر هذه الحقائق للمشركين في مجال الحقائق الكونية، فكما أن خلق السماء والأرض وإنزال الماء من السماء وإنبات النبات وغير ذلك مما هو شاهد على وحدانية الله فكذلك الفطرة الإنسانية في مقابل ذلك شاهدة أيضاً على وحدانية الله.

ويتابع القرآن قوله: ﴿وَيَجْعَلُكُم خُلَفَاءَ الأَرْضِ﴾ وذلك بتوارث الناس سكنى الأرض جيلاً بعد جيل والتصرف فيها قرناً بعد قرن، يخلف بعضهم بعضاً، يهلك الله قوماً وينشىء آخرين، ولو عاش الأولون لضاقت الأرض بهم ولأبطأ تطور الإنسان نحو الأفضل لأن تجدّد الأجيال هو الذي يسمح بتجدد الأفكار والمحاولات في سُلّم الرقي ﴿أإلَه مَعَ اللَّهِ﴾ أي أإلّه مع الله يفعل ذلك حتى تعبدوه ﴿قَليلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ ما أقل تذكركم واتعاظكم فيما تشاهدون من فضل الله عليكم ﴿أَمَّن يَهْدِيكُم في ظُلُماتِ البَرِّ

والْبَحْرِ﴾ أعبادة الأصنام خير أم عبادة الله الذي يرشدكم إلى السير في ظلام الليل برًا وبحراً بما خلق لكم من نجوم في السماء تهتدون بها إلى مواقع سفركم، ومن يرشدكم بوسائل العلم التي وفقكم الله إلى ابتداعها كآلات الرصد والإبرة الممغنطة وغيرها مما تهتدون به إلى وجهة سفركم ﴿وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ وهو الذي يسوق الرياح مبشرة بنزول المطر الذي هو رحمة للعباد ﴿أَإِلَه مَعَ اللَّهِ﴾ أي أإله مع الله أودع في الإنسان تلك القوى المدركة التي يرتاد بها البلدان وأرسل الرياح محملة بالمطر إلى البلاد، لا، ليس هنالك إله غيره ﴿تَعَالَى الله عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزه الله وتقدس عن وجود شريك له.

﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُه﴾ أي أعبادة الأصنام خير أم عبادة الله الذي ينشىء الخلق ابتداء ثم يوجده بعد فنائه، فبدء الخلق هو حقيقة لا يمكن تعليلها بغير وجود الله ووحدانيته، فالتناسق المطلق في الكون ما يجزم بالإرادة الواحدة والقدرة الواحدة، والقادر على أن يوجده من العدم قادر على أن يعيده بعد فنائه ﴿وَمَنْ يَرْزُقُكُم مِنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ﴾ أي ومن الذي ينزّل لَكُم الرِّزْق مِنَ السَّماء وَالأرض، هل غير الله يفعل ذلك. والرزق من السماء هو المطر وما ترسله الشمس من نور وحرارة وطاقة، أما الرزق من الأرض فكثير كالنبات والثمر والحيوان والهواء ﴿أَإِلَه مَعَ اللَّهِ﴾ أي أإله مع الله يفعل ذلك ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُم إنْ كُنْتُم صَادِقِينَ﴾ أي أن كان لكم إله سوى الله فقدموا لنا حجة على ذلك إن كنتم تزعمون أنكم صادقون في دعواكم.

ثم يبين القرآن شبهات المشركين على البعث واستبعادهم لوجود حياة أخرى بعد الممات:

﴿قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ في السَّموات وَالأَرْضِ الغَيْبَ إلاَّ اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ

أَيَّانَ يُبْعَثُونَ. بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُم فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُم مِنْهَا عَمُونَ. وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَآؤُنا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ. لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَأبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ (٦٥-٦٨).

فالله سبحانه يقول: قل يا محمد للسائلين من المشركين عن الوقت الذي تقوم به القيامة: لا يعلم من في السموات والأرض الغيب الذي استأثر الله بعلمه وحجب عنه خلقه إلاّ هو سبحانه ﴿وَمَا يَشْعُرون أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ وما يدري الناس متى هم مبعوثون من قبورهم أحياء للحساب والمجازاة على أعمالهم ﴿بل ادَّارَكَ عِلْمُهُم﴾ بل تتابع وتلاحق علم المشركين بالآخرة ومُكِّنوا من معرفتها بما سمعوا من الدلائل على حصولها ﴿بَلْ هُمْ في شَكٍّ مِنْهَا﴾ بل هم في شكّ وريب من حصولها ﴿بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ بل هم في عماية وجهل عظيم من أمرها وعن كل ما يوصلهم إلى الحق في شأنها ﴿وَقَالَ الَّذين كَفَرُوا أإذا كُنَّا تُراباً وآباؤُنا أئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ أي وقال الكافرون منكرين للبعث أإذا صرنَا تراباً بعد أن بليت أجسادنا وأجساد آبائنا السابقين هل سنخرج من قبورنا أحياء؟ وتكرار همزة الاستفهام الداخلة على إذا، وإن، إنكار على إنكار، ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هٰذَا نَحْنُ وآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي لقد وعَدَنَا محمد بهذا البعث كما وعد الرسل السابقون آباءنا فلم نرَ لذلك حقيقة ولم نتبيّن له صحة ﴿إِنْ هٰذَا إلَّا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ أي ما هذا الوعد إلّا ما سطره الأولون من الأكاذيب في كتبهم فتحدثوا به من غير أن يكون له صحة.

وبعد موقف العناد من الكافرين يأتي عقب ذلك التهديد الرباني لهم:

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُجْرِمينَ. وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِم وَلا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ. وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ

كُنْتُم صَادِقِينَ. قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذي تَسْتَعْجِلُونَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُم لا يَشْكُرُونَ﴾ (٦٩-٧٣).

فالله سبحانه يخاطب رسوله محمداً: قل لهؤلاء المكذبين لك من قومك: سيروا في الأرض وانظروا نظرة اعتبار ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمينَ﴾ كيف كان مآل ومصير المجرمين الذين أجرموا بالكفر وعصيان الله، ألم يهلكهم ويدمّر مساكنهم ﴿وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ ولا تحزن يا محمد على قومك لإصرارهم على الكفر والتكذيب لك ﴿وَلا تَكُنْ في ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ ولا يكن في صدرك ضيق من مكرهم وكيدهم فإن الله ناصرك عليهم ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إنْ كُنْتُم صَادِقِينَ﴾ أي يقولون: متى يحين العذاب الذي هددتمونا به إن كنتم صادقين في أن العذاب سيحلّ بنا ﴿قُلْ عَسَى أنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي قل لهم يا محمد عسى أن يكون قد اقترب منكم العذاب ودنا الذي تستعجلون وقوعه.

هذه الآية من الأنباء الغيبية التي تحققت والتي تشهد أن القرآن وحي إلّهي. فبعد فترة قصيرة من نزول هذه الآية حصلت معركة بدر التي قتل فيها سبعون من كفار قريش. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ وإن ربك يا محمد لذو فضل على الناس بترك تعجيل العقوبة بهم على معاصيهم وكفرهم، وذو إحسان إليهم حين يمهلهم بعض الوقت ليتوبوا إليه ﴿وَلَكِنَّ أكْثَرَهُم لا يَشْكُرونَ﴾ ولكن أكثرهم لا يشكرون الله على إحسانه وفضله عليهم.

ثم يبين القرآن مدى علم الله الذي لا تخفى عليه خافية في الكون.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُم وَمَا يُعْلِنُون. وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ في السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إلاَّ في كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٧٤-٧٥).

أي وإن ربك يا محمد ليعلم ما تخفي صدورهم من النيات والرغبات وما يعلنون من الأقوال والأفعال وهو محصيها عليكم ليجازيكم عليها، وفي هذا المعنى ورد في القرآن: ﴿وإن تُبْدُوا ما في أنْفُسِكُم أوْ تُخْفُوه يُحَاسِبْكُم به الله﴾ ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ في السَّماءِ وَالأرْضِ﴾ وما من خافية تغيب عن أبصار الناظرين وعلمهم سواء أكانت في السماء أو في الأرض ﴿إلاَّ في كِتَابٍ مُبينٍ﴾ والكتاب المبين هو: أُمّ الكتاب الذي أثبت ربنا فيه كل ما هو كائن من لدن ابتداء خلقه إلى يوم القيامة يخرجه للأجل المؤجل عنده، فالذي يستعجلونه من العذاب له أجل معين لا يتأخر عنه ولا يتقدم، والمراد بقوله تعالى: ﴿مُبِين﴾ أي هو ظاهر واضح لمن ينظر فيه من الملائكة.

إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ * وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ

شرح المفردات

وَقَعَ الْقَوْل: حق العذاب.

نَحْشُر: نجمع.

فَوْجاً: جماعة.

دَاخِرِين: صاغرين أذلاء.

ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

شرح المفردات

فَكُبَّتْ وجوههم في النَّار: يُطرحون ويُلقون فيها على وجوههم.

تَابع سُورَة النَّمْل

وبعد الكلام عن القدرة الإلّهية التي تحيط علماً بكل خفي يأتي الكلام عن القرآن الذي فيه القول الفصل لكل ما اختلف فيه بنو اسرائيل من أمور دينهم:

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرائيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ. وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ. إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ (٧٦ـ٧٨).

فالله سبحانه يقول: إن هذا القرآن الذي أنزلته عليك يا محمد يقصّ على بني إسرائيل ـ سواء أكانوا يهوداً أم نصارى ـ الحق في أكثر الأشياء التي اختلفوا فيها، وذلك مثلَ اختلافهم في أمر عيسى عليه السلام وغير ذلك من الأمور، فقد قالت اليهود في شأن عيسى بأن أُمَّهُ زانية وأنه ابن زنى ثم أنكروا بعثته، وأنكروا بالتالي دعاوى النصارى من أنه ابن الله وأنه إله، وحكموا على عيسى بأنه وثني وساحر ومجنون ويهودي مرتد، وادّعوا بأنهم قتلوه وأنهم صلبوه. أما النصارى فقد اختلفوا في شأن عيسى اختلافاً كبيراً، فقالت جماعة: إن المسيح إنسان محض كما ذهب إلى ذلك آريوس وأتباعه وأكثر كنائس الشرق وفي فلسطين وكثرة من كنائس مصر.

ومن النصارى من كان يقول: المسيح ومريم إلّهان من دون الله وهم المريمانية.

ولما أعلن الملك قسطنطين اعتناق النصرانية عقد مجمع نيقية سنة ٣٢٥ فأعلن أكثر المجتمعين أُلوهية المسيح ثم انعقدت بعد ذلك مجامع اتخذت من القرارات ما أضاف إلى النصرانية ما لم يكن منها فأضيف إلى منصب الألوهية منصب روح القدس، ولكن ذلك لم يحسم الأمر كليًّا فقد

ظلت تظهر هنا وهناك أقوال ترفض قرارات مجمع نيقية وتقول بأن المسيح ليس ابناً لله بالحقيقة فهو ابن بالنعمة والمحبة لا بالألوهية، كما ظهرت مذاهب أخرى لو أردنا استعراضها لضاق بنا المجال، كما اختلف النصارى في شأن صلب المسيح وغير ذلك من الأمور.

أما نظرة القرآن إلى عيسى فهو أنه بشر خلقه الله بدون أب شبيه خلقه بخلق آدم: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ كُنْ فَيَكُونُ﴾[١].

وأنه رسول الله إلى بني اسرائيل، جاء في القرآن:

﴿وَإِذْ قَالَ عيسى ابنُ مَرْيَم: يا بني اسرائيل إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التوراةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يأتي مِنْ بَعْدي اسْمُهُ أحمد﴾[٢].

وجاء في القرآن: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ هُوَ المسيحُ ابنُ مَرْيَمَ وَقَالَ المسيحُ: يَا بني إسرائيل اعْبُدوا اللَّه رَبِّي وَرَبُّكُم إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّم اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّة وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا للظَّالِمينَ مِنْ انصار. لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَة وَمَا مِنْ إِلَه إِلاَّ إِلَهٌ واحِدٌ. . .﴾[٣].

وبشأن صلب المسيح فقد جاء في القرآن:

﴿وَقَوْلِهِم إِنَّا قَتَلْنا المسِيحَ عيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اختلَفُوا فِيهِ لَفي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً﴾[٣].

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٥٩.

(٢) سورة الصف الآية ٦.

(٣) سورة المائدة: الآيتان ٧٢، ٧٣.

(٤) سورة النساء: الآية ١٥٧.

وبعد هذا الاستطراد نرجع إلى متابعة الآيات فيقول تعالى: ﴿وإنّه لَهُدًى وَرَحْمَةٌ للْمُؤْمِنينَ﴾ أي وإن هذا القرآن لهو المرشد إلى الحق في الدين وإنه رحمة للمؤمنين لأنهم وحدهم الذين ينتفعون به ﴿إنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ﴾ أي إن ربه يقضي بينهم بعدله في الآخرة فيما اختلفوا فيه فيثيب من كان على الحق ويعاقب من كان على الباطل ﴿وَهُوَ العَزِيزُ العَلِيمُ﴾ وهو القوي الغالب لأعدائه، عليم بمن كان على هُدًى أو كان على ضلال.

ثم يخاطب الله رسوله محمداً مبيناً له أن سبيله هو الحق وأنه لا يملك هداية من كانوا بلا عقل فهم كالموتى أو الصم أو العمي:

﴿فَتَوَكَّل عَلَى اللّهِ إنَّكَ عَلَى الْحَقِّ المُبِين. إنَّكَ لا تُسْمِعُ الموتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاء إذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ. وَمَا أَنْتَ بِهَادِي العُمْي عَنْ ضَلالَتِهِم إنْ تُسْمِعُ إلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُون﴾ (٧٩-٨١).

فالله سبحانه يقول: ﴿فَتَوكَّلْ عَلَى اللّهِ﴾ أي ففوّض إلى الله أمورك يا محمد وثق به فإنه كافيك ﴿إنَّكَ عَلَى الحَقِّ المُبِينِ﴾ إنك على الحق الظاهر الواضح دون ما عليه النصارى واليهود المختلفون في أمور دينهم ودون ما عليه أهل الأوثان المكذبون فيما أتيتهم به من الحق.

لقد وصف الله الإسلام بأنه الحق الواضح وهو وصف يميزه عن غيره من أديان الأرض. هذا الحق يظهر بالعقيدة الصافية التي جاء بها من توحيد الله وعبادته وحده والبعد عن جميع المظاهر الوثنية وعبادة الشخصية، هذا الحق الواضح المتمثل بما جاء به من التشريع العادل الذي يراعي مصلحة الإنسان المادية والروحية والمساواة بين البشر.

هذا الحق الذي يتمثل بتحليل الإسلام للطيبات وتحريم الخبائث.

هذا الحق الذي بدأت تباشيره تظهر في العالم بعد أن طُمِسَ في العصور الماضية على يد المبشرين وأعدائه بما أثاروا عليه من الأكاذيب والشبهات.

﴿إنَّكَ لا تُسْمِعُ الموْتَى﴾ إنك يا محمد لا تقدر أن تُسْمِع الكفار هدى الله لانعدام الفهم والتدبُّر عندهم، فهم كالموتى لا حسّ لهم ولا عقل ﴿ولا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إذَا وَلَّوْا مُدْبِرينَ﴾ لقد شبَّه الله الكفار بالصُّمِّ لأنهم لا يسمعون المواعظ ولا ينتفعون بها، وتأمل تعبير القرآن وتصويره لهم حيث أن الأصم يمكن أن تخاطبه بالإشارة فيفهم منك بعض ما تشير إليه. ولكن إذا ولى مدبراً: أي أعرض عنك مولياً ظهره لك مسرعاً في الابتعاد عنك فإنه لا يسمع قولك ولا يرى ما تشير إليه من الكلام ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي العُمْيِ عَنْ ضَلاَلَتِهِم﴾ وما أنت يا محمد بَهادٍ من أعماه الله عن الهدى والرشاد وجعل على بصره غشاوة فآثر الكفر على الإيمان ﴿إن تُسْمِعُ﴾ أي ما تسمع السامع نفعاً ﴿إلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بآيَاتِنَا﴾ إلاّ لمن آمن بآيات القرآن بأنها من عند الله وآمن بالأدلة والحجج التي جاء بها ﴿فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ فهؤلاء هم منقادون خاضعون لدين الله يسمعون منك ما تقول ويتدبرونه ويعملون به.

ثم ينتقل القرآن إلى وصف بعض أمارات يوم القيامة حيث يؤنب الكفار على تكذيبهم بآيات الله:

﴿وَإذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم أَخْرَجْنَا لَهُم دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ. وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمةٍ فَوْجاً مِمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُم يُوزَعُون. حَتَّى إذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً أمْ مَاذَا كنْتُم تَعْمَلُون. وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُم لا يَنْطِقُونَ﴾ (٨٢ـ٨٥).

فالله سبحانه يقول: ﴿وَإِذَا وَقَعَ القَوْلُ عَلَيْهِم أَخْرَجْنَا لَهُم دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ﴾ أي وإذا قَرُب أن يتحقق وَعْدُ الله بمجيء السَّاعة التي تقوم بها القيامة وأن يقع العَذَاب على الكافرين أخرج الله للناس دابة[1] من الأرض غير الدواب المعهودة ويكون خروجها معجزة من معجزات الله. وهذه الدابة تخرج في آخر الزمان عند فساد الناس وتركهم أوامر الله تعالى وتبديلهم لدين الله الحق وتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وحيث لا يبقى منيب إلى الله ولا تائب ﴿تُكَلِّمُهُم أنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنا لا يُوقِنُونَ﴾ وهذه الدابة تحدِّث الناس وتقول لهم من جملة ما تقول: إن الكفار كانوا بمعجزات الله وحججه على خلقه وباليوم الآخر لا يصدقون، وقد أيقنوا الآن ما كانوا يكذبون فها هي أمارات القيامة واضحة ظاهرة.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً﴾ واذكر يا محمد يوم نجمع للحساب يوم القيامة من كل أمة جماعة فهم ﴿مِمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا﴾ ممن يكذِّب بأنبيائنا وآيات كتبنا المنزلة عليهم ﴿فَهُم يُوزَعُون﴾ فهم يحبس أولهم ويرد على آخرهم ليجتمع شملهم وفي ذلك دلالة على كثرة عددهم وتباعد أطرافهم ﴿حَتَّى إِذَا جَاءوا قَالَ: أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي﴾ حتى إذا جاء من كل أمة فوج ممن يكذب بآيات الله فاجتمعوا على صعيد واحد، قال الله: أكذبتم بآياتي المنزلة على رسلي ﴿وَلَمْ تُحِيطوا بِهَا عِلْماً﴾ بل كذبتم بها بادىء الأمر جاهلين لها غير متدبّرين فيها تمرداً وعناداً، وأثبتّم على أنفسكم الجهل لأن من كذَّب بشيء ولم يُحط به عِلْماً نادى على نفسه بالجهل

---

(١) جاء في الحديث الشريف أن خروج الدابة وطلوع الشمس من المغرب من أول أمارات يوم القيامة.

أما ما روي في كيفية صورتها والمكان الذي تخرج منه مما ذكره المفسرون فهي أقوال غريبة لا يعول عليها وليس لها سند قاطع عن رسول الله ﷺ.

وسوء الفهم ﴿أم مَاذَا كُنْتُم تَعْمَلُون﴾ تقريع وتوبيخ لهم، أي ماذا كنتم تعملون في الدنيا غير التكذيب والعناد على الكفر ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا﴾ أي ووجب عليهم العذاب بسبب ظلم أنفسهم بالكفر ﴿فَهَمُ لا يَنْطِقُونَ﴾ فهم ليس لهم عذر ولا حجة.

ثم يلفت القرآن الأنظار إلى بعض مظاهر القدرة الإلٓهية التي يستدل بها المؤمنون على وجود الله ووحدانيته:

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا الليلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ والنَّهارَ مُبْصِراً إنَّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُون. وَيَوْمَ يُنْفَخُ في الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ في السَّمٰوات وَمَنْ في الأَرْضِ إلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ. وَتَرَى الجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذي أَتْقَنَ كُلَّ شَيءٍ إنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ (٨٦ـ٨٨).

فالله سبحانه يقول: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ﴾ أي ألم يشاهد هؤلاء المكذبون بآياتنا تصريفنا الليل والنهار فجعلنا الليل سكناً للعباد ينامون فيه لراحة أبدانهم من تعب النهار ﴿وَالنَّهارَ مُبْصِراً﴾ وجعلنا النهار مضيئاً يبصرون فيه الأشياء لقضاء أمورهم وحاجاتهم ﴿إنَّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ إن فيما ذُكِرَ لدلالة على وجود الله ووحدانيته وقدرته على إحياء الأموات بعد الممات ﴿وَيَوْم يُنْفَخُ في الصُّورِ﴾ أي واذكر يا محمد يوم ينفخ الملك إسرافيل في البوق إيذاناً بيوم القيامة ﴿فَفَزِعَ مَنْ في السَّمٰوات وَمَنْ في الأَرْضِ﴾ فيصيب الرعب والخوف من في السموات من الملائكة ومن في الأرض من الإنس والجن ﴿إلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ قيل هم الشهداء والأنبياء وطائفة من الملائكة والمؤمنين مما شاء الله أن يقيهم من الفزع﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرينَ﴾ وكل المخلوقات يأتون ربهم أذلاّء منقادين له.

﴿وَتَرَى الجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ أي وَترى أيها المخاطب الجبال

تظنها ثابتة في مكانها وواقفة ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ وهي تسير سيراً سريعاً كالسحاب ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي فعل الله ذلك بقدرته الذي أتقن كل ما خلق[1] ﴿إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ إنه عليم بما يفعل عباده من خير وشر وسيجازيهم عليه. هذه الآية نص صريح بأن الأرض تدور[2] فإذا كانت الجبال تمر مرّ السحاب، وبما أن الجبال ملتصقة بالأرض فهذا نص صريح بدوران الكرة الأرضية.

ثم يبيّن القرآن مصير المحسنين والمسيئين في الآخرة:

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُم مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ. وَمَنْ

---

(١) يرى بعض المفسرين أن هذه الآية تصف بعض عوارض يوم القيامة وإننا نخالفهم في ذلك ونقول إن هذه الآية متعلقة بالآية السابقة ﴿ألم يروا أنا جعلنا الليل... الخ﴾ وذلك في معرض الدلالة على قدرة الله ووحدانيته وقدرته في إبداع هذا النظام العام في الكون والدليل على ذلك ما جاء عقب الآية ﴿صنع الله الذي أتقن كل شيء﴾ أما في الآخرة فينفرط عقد الكون ويختل نظامه وتتنافى فيه صفة الإتقان حيث تزلزل الأرض وتفجّر البحار وتتساقط الكواكب والنجوم وتتبدل مظاهر الأرض والسماء ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات﴾ إبراهيم: ٤٨. أما الجبال فتكون في الآخرة كما وصفها القرآن: ﴿وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾ ﴿وإذا الجبال نسفت﴾. وحقيق أنه ورد أيضاً في وصف أمارات القيامة: ﴿ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم﴾ ﴿وسيرت الجبال فكانت سراباً﴾ فالجبال تقتلع من الأرض وتسير عشوائيًّا منفصلة عن الأرض بحيث يراها الرائي على هذه الصفة لا كما وصفها القرآن في الدنيا للرائي ﴿تحسبها جامدة﴾.

(٢) دوران الأرض وهو حقيقة علمية، فالأرض تدور حول محورها كل ٢٤ ساعة وتدور بالوقت نفسه حول الشمس في مدة ٣٦٥ يوماً. وبالرغم من أن (اريستاخورس الفلكي السكندري ٣١٠-٢٣٠ قبل الميلاد) كتب في موضوع دوران الأرض حول نفسها فإن هذه الكتابات العلمية القديمة لم تصل إلى العرب في الوقت الذي عاش فيه محمد حتى يقال إن محمداً نقل هذه النظرية العلمية إلى قومه على افتراض أن القرآن من تأليف محمد كما يدعي أعداؤه ومن ينكر نبوته. ثم إن هذه المعلومات عن دوران الأرض أول من نقلها إلى العرب هو البيروني عام ألف للميلاد بعد حركة الترجمة في العصر العباسي.

جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُم فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ﴾ (٩٠).

فالله سبحانه يقول: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنها﴾ أي من جاء ربه يوم القيامة وكان في دنياه يشهد أن لا إلٓه إلاَّ الله ويعمل الأعمال الصالحة التي أمره الله بها ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ أي فله خير حاصل من جهتها وهو أن يثيبه الله الجنة، وعلى هذا لا تكون كلمة خير بمعنى أفضل، إذ لا شيء أفضل من كلمة التوحيد ﴿وَمَنْ جَاءَ بالسَّيِّئَةِ﴾ ومن جاء ربه يوم القيامة وكان في دنياه مشركاً بالله مقترفاً سيّء الأعمال ﴿فَكُبَّت وُجُوهُهُم في النَّارِ﴾ فألقيت وجوههم وطُرحت في النار جزاء أعمالهم السيئة ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إلاَّ مَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ﴾ أي ويُقال لهم: هل هذا إلاّ جزاء ما كنتم تعملون في الدنيا مما يسخط ربكم.

ويختم الله هذه السورة بالدعوة إلى عبادة الله وحده وتلاوة القرآن الذي فيه الهداية للناس مع التنبؤ بالكشوفات العلمية التي سيحصل عليها الإنسان في الأجيال القادمة والتي ستظهر عظمة القدرة الإلٓهية.

﴿إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْء وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّما أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ. وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُريكم آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَها وَمَا رَبُّك بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٩١-٩٣).

فالله سبحانه يأمر رسوله محمداً بأن يقول لقومه ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ﴾ اي أُمرت من الله أن أخصه وحده بالعبادة ولا أتخذ له شريكاً، والبلدة المقصودة هنا هي مكة التي اختصها الله من بين سائر البلاد بإضافة اسمه إليها لأنها أحب البلاد إليه وأكرمها عليه ﴿الَّذي حَرَّمَهَا﴾ أي

حرمها على خلقه بأن يسفكوا فيها دماً حراماً أو يظلموا فيها أحداً، ولا يجز حشيشها ولا يقطع شجرها ولا ينفّر صيدها واللاجىء إليها آمن ﴿وَلَهُ كُلُّ شيء﴾ وهو رب البلاد كلها. فالله أراد أن يعرّف المشركين من أهل مكة نعمته عليهم وإحسانه إليهم حيث جعل بلدهم حرماً آمناً بينما كان الناس في سائر البلاد يغزو بعضهم بعضاً، ويقتل بعضهم بعضاً ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أكونَ مِنَ المسْلِمِينَ﴾ وأمرت أن أكون من الموحّدين لله على دين إبراهيم الخاضعين له المنقادين لأمره ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ﴾ وأمرت أن أقرأ القرآن ﴿فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ فمن اهتدى بالقرآن فله ثواب هدايته ويأمن نقمة الله في الدنيا وعذابه في الآخرة ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّما أَنَّا مِنَ الْمُنْذِرِين﴾ ومن ضل عن طريق الهدى فقل يا محمد إنما أنا ممّن يخوّف قومه عذاب الله وسخطه ممن يشرك بالله ويعصيه ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وقل يا محمد: الشكر لله على ما خصنا من نعمه وهدايته ﴿سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ سيريكم الله دلائل قدرته ووحدانيته في أنفسكم وفي السموات والأرض فتعرفون عظمة القدرة الإلّهية. وصدق الله العظيم ففي كل يوم يُري الله عباده بعض آياته ودلائل قدرته وحكمته في هذا الكون، ويكشف لهم عن بعض أسراره الخفية وبالأخص في هذا العصر بعد أن تبحّر الإنسان في علوم الكون والحياة ووصل إلى كثير من أسرار هذا الوجود التي كانت مخفية عنه فيما مضى ﴿وَمَا الله بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وما ربك يا محمد بغافل عن أعمال العباد بل هو شهيد على كل شيء. وإذا علم الإنسان أن الله لا يغفل عن أعماله كان ذلك رادعاً له عن كل سوء أو شر.

هذه العقيدة الإسلامية تصحح كثيراً من المعتقدات البشرية التي ترى أن الله لا شأن له بالإنسان بعد خلقه، بينما العقيدة الإسلامية تغرس في الفرد دائماً بأنه تحت الرقابة الإلّهية العالمة بأمره والتي ستحاسبه يوم القيامة عن كل صغيرة وكبيرة يقترفها.

سُورَةُ القَصَصِ

أبرز ما تعالجه هذه السورة هو الطغيان بكافة مظاهره: طغيان السلطة وطغيان المال، وطغيان الأمة.

فطغيان السلطة يتمثل بفرعون الذي أذلَّ العباد، وقتل الأبرياء، واستكبر في الأرض. وطغيان المال يتمثّل بقارون الذي احتكر الأموال وبخل بها وتفاخر بها على قومه. وطغيان الأمة يتمثّل بالبطر، وهو الطغيان عند النعمة وطول الغنى وعدم الشكر لله. وكانت النهاية وخيمة لهؤلاء الثلاثة جميعاً.

وهذه السورة سميت بسورة القصص لأن الله ذكر فيها قصص نبي الله موسى بإسهاب فهي تفصّل ما ذكر قبلاً في القرآن في شأنه. فتذكر قصة ولادته وإلقائه في نهر النيل والتقاط آل فرعون إياه واستبقائه حياً بإيعاز من زوجة فرعون حيث ألقى الله محبته في قلبها، ثم ترعرعه ونشأته في بلاط فرعون إلى أن بلغ مبلغ الرجال، ثم فراره إلى مدين بعد قتله خطأً أحد المصريين، ثم زواجه بعد ذلك، ومخاطبة الله له في جانب جبل الطور وتأييده بالمعجزات، وإرساله إلى فرعون حيث بلّغه رسالة ربه، ولكن فرعون استكبر وظلَّ على طغيانه إلى أن أغرقه الله وقومه في البحر.

وفي السورة ثناء على الذين يصدّقون برسالة محمد من أهل الكتاب، وتعدهم بمضاعفة الأجر والثواب لهم.

كما تذكر السورة فضل الله على البشر حيث جعل الليل والنهار يتعاقبان بما فيه مصالح العباد ودوام مسيرة الحياة. كما تذكر السورة أحداثاً أخرى سيأتي بيانها.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ

شرح المفردات

المبين: الواضح الجلي.

نَبَأ: الخبر ذو الشأن.

علا في الأرض: تجبر واستكبر.

شِيَعًا: فِرقاً وأحزاباً.

يستضعف: يجعلهم ضعفاء مقهورين.

ويستحيي نساءهم: يترك بناتهم أحياء للخدمة.

نَمُنَّ: نتفضل.

أئمَّة: ملوكاً وولاة أمر.

الوَارِثِينَ: أي يرثون ملك فرعون.

وَنُمَكِّن لَهُم في الأرْض: ونجعلهم يستولون على أرض مصر ويتصرفون فيها.

يَحْذَرون: يخافون من ذهاب ملكهم.

عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ
مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا
إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ
فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا
وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ
لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ
فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ
مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ
لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ
وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

شرح المفردات

وَأَوْحَيْنا: ألهمنا.

فألْقِيه في اليمِّ: فألقيه في نهر النيل.

حزَناً: وقُرئت حُزناً (بضم الحاء) وهما متقاربان في المعنى: أي غمًّا وهمًّا.

قُرَّةُ عيْنٍ: كناية عن السرور والفرح.

فُؤَادُ أُمِّ مُوسى فارغاً: أي قلبها خالياً من كل ما سوى موسى.

لَتُبْدِي به: لتظهر وتكشف أن موسى ابنها.

رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا: قوّينا قلبها ليسكن بالصبر والشجاعة.

قُصِّيهِ: اقتفي أثره وتتبعي خبره.

عن جُنُبٍ: من مكان بعيد.

حَرَّمْنَا عَلَيْهِ المَرَاضِعَ: منعناه من قبول ثدي مرضعة غير أمه.

يكفلونه لَكُم: يقومون بتربيته لكم.

وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ: مخلصون له في تربيته والسهر عليه.

تمهيد لقصة موسى مع فرعون

قبل الشروع في تفسير هذه السورة، نمهد الكلام عن بني إسرائيل ومعاملة فرعون لهم في مصر. فقد جاء بنو إسرائيل على عهد يوسف عليه السلام حيث استقدم أباه يعقوب وأولاده وأحفاده للإقامة في مصر. ثم دار الزمان وتكاثر بنو إسرائيل فرأى فرعون مصر (رعمسيس الثاني) أن تضاعف عددهم وتزايد نسلهم يمكن أن يكون خطراً على ملكه، فاستخدمهم في أشقّ الأعمال لإضعاف قوتهم، وأمعن في تفريقهم فِرَقاً وأحزاباً. وقيل: إن الكهنة أخبروا فرعون بناء على رؤيا رآها في منامه بأن زوال ملكه سيكون على يد مولود من بني إسرائيل، فأمر بقتل كل ذكر من أولادهم. وكان لفرعون قوابل يدرن على النساء فمن رأينها حملت في بطنها جنيناً أحصوا اسمها، فإذا ولدت بنتاً تركنها وإن ولدت ذكراً قتلوه. وكان هذا العمل مبعث قلق على الأقباط الذين خافوا أن يفنى بنو إسرئيل فيلون هم ما كانوا يقومون به من الأعمال الشاقة. فقال رؤساؤهم لفرعون إن الموت وقع في الكبار من بني إسرائيل وأنت تقتل صغارهم فيوشك أن يقع العمل الشاق علينا. فأمر بقتل الغلمان سنة وأن يُتركوا أحياء سنة حتى لا يهلك جميع بني إسرائيل. وفي السنة التي يصادف فيها قتل الذكور حملت أم موسى به عليه السلام ولم يظهر عليها أمارات الحمل كغيرها، ولم تفطن لها القوابل. فلما ولدته خبأته عن العيون فلم يتسرب خبره إلى رجال فرعون.

هذه هي الأحداث التي رافقت ولادة موسى التي يقصها علينا القرآن بإيجاز.

سُورَةُ القَصَصِ

ايضـاح و دروس

يستهل الله هذه السورة بوصف طغيان فرعون:

﴿طسم[١]. تِلْكَ[٢] آيَاتُ الكِتَابِ المبينِ. نَتْلوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالحقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ. إنَّ فِرْعَوْنَ عَلا في الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهم يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُم وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُم إنَّه كَانَ مِنَ المفْسِدينَ﴾ (١-٤).

فالله سبحانه يقول: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ المبينِ﴾ أي هذه آيات القرآن التي أنزلناها عليك يا محمد الواضحة أنها من عند الله لا من تأليفك، الكاشفة لأمور الدين وأخبار الأولين ﴿نَتْلوا عَلَيْكَ مِنْ نَبإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بالحَقِّ﴾ أي نقرأ عليك يا محمد بواسطة الملك جبريل بعضاً من خبر موسى وفرعون المشتمل على الحق في بيانه لأخبار الأولين ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنونَ﴾ لقوم يصدقون بأن القرآن كلام الله، وخص المؤمنين بالذكر لأنهم المنتفعون به دون سواهم ﴿إنَّ فرعون عَلاَ في الأَرْضِ﴾ أي علا استكباراً في نفسه عن عبادة ربه وادّعى الربوبية واستكبر وتجبّر على عباد الله ﴿وَجَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً﴾ وجعل سكانها فِرَقاً متخاصمين يعادي بعضهم بعضاً. وتلك عادة الطغاة في كل زمان ومكان لا يدعون شعبهم يتماسك ويتّحد متخذين من هذا المبدأ ـ فَرِّقْ تَسُد ـ أسلوباً لهم في الحكم ليسهل السيطرة على شعبهم وتسخيره لمآربهم وشهواتهم ﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُم﴾ أي

---

(١) طسم: ثلاثة أحرف ابتدأت بها هذه السورة وسبق أن شرحنا معناها في سورة النمل.
(٢) تلك: اسم إشارة للمؤنث البعيد والإشارة بها إلى آيات القرآن لبيان بُعْد منزلة القرآن في الفضل والشرف.

يستعبد ويستذل فريقاً منهم ويسخرهم في أشق الأعمال، وهذا الفريق هم بنو إسرائيل ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ يُقتِّل أبناءهم الذكور، ويترك الإناث منهم على قيد الحياة، وذلك شأن الطغاة دائماً يقتلون نخوة الأمة بقتل شبابها الذين يخالفونهم في الرأي أو زجّهم في غيابات السجون من غير محاكمة أو جرم ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ المفْسِدينَ﴾ والفساد نقيض الصَّلاح، وفساد فرعون هو قتله الأبرياء واستعباده للناس وتكبره عليهم، وقد أكد وصف الإفساد فيه بـ (إن) و(كان) الدالة على أن الفساد كان فيه في الماضي ومستمر في الحاضر وأنه داخل ضمن المفسدين في الأرض.

ثم يبين الله فضله على بني إسرائيل:

﴿وَنُريدُ أن نَمُنَّ عَلَى الذين اسْتُضْعِفُوا في الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَةً وَنَجْعَلهُمُ الوَارِثِينَ. وَنُمَكِّنَ لَهُمْ في الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْن وَهَامَانَ وَجُنُودَهُما مِنْهُم مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ (٥-٦).

فالله يريد أن يتفضّل على بني إسرائيل الذين استضعفهم فرعون وأذلهم واستعبدهم ﴿وَنَجْعَلَهُم أَئِمَّةً﴾ فيجعلهم الله قادة في الخير، وولاة في الأمر، ويجعل منهم ملوكاً ﴿وَنَجْعَلَهُمُ الوَارِثِينَ﴾ ويجعلهم الله ورّاث آل فرعون يرثون ملكهم ويسكنون مساكنهم ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ أي يجعلهم الله يستولون على أرض الشام ومصر يتصرفون فيها كيف شاءوا ﴿وَنُرِيَ فِرعَون وَهَامَانَ وَجُنودَهُمَا مِنْهُم مَا كَانُوا يَحْذَرُون﴾ ويريهم الله حقيقة ما كانوا يحذرون من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد مولود من بني إسرائيل وهو موسى عليه السلام، ولن ينفع حذر من قدر قدَّره الله فهذا الغلام - أي موسى - الذي احترزوا من وجوده بينهم وقتلوا بسببه ألوفاً من الولدان، وكان منشؤه ومرباه في دارهم، وغذاؤه من طعامهم، كان الوسيلة لهلاكهم على يديه، ليعلموا أن رب السموات والأرض هو القوي القاهر الغالب الذي لا تُردّ مشيئته.

وبعد الكلام عن طغيان فرعون وفضل الله على بني إسرائيل تنتقل بنا الآيات إلى وصف ولادة موسى وما رافقها من ظروف صعبة:

﴿وَأَوْحَيْنَا إلى أُمِّ مُوسَى أنْ أرْضِعيهِ فَإذَا خِفْتِ عَلَيْه فَألْقِيهِ فِي اليَمِّ وَلاَ تَخَافي وَلاَ تَحْزَني إنَّا رَادُوهُ إلَيْكِ وَجاعِلُوهُ مِنَ المرْسَلِينَ. فَالْتَقَطَهُ آلُ فرعون لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَناً إنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُما كَانُوا خَاطِئِينَ. وَقَالَتِ امْرأةُ فِرْعَوْنَ قُرَةُ عَيْنٍ لي وَلَكَ لا تَقْتلوهُ عَسَى أن يَنْفَعَنَا أو نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لا يَشْعُرونَ﴾ (٧-٩).

حملت أم موسى به ولم تظهر عليها مخايل الحمل كغيرها، ولم تفطن لها الدايات اللواتي وكّلهن فرعون بتقصي أخبار الحبالى، ولكن لما وضعت ما في بطنها وكان ذكراً وهو موسى ضاقت به ذرعاً، وخافت عليه خوفاً شديداً من أن يقتله جنود فرعون، ولكن جاءها الوحي[١] من الله وذلك بأن ألهمها في سرّها، أو ألقي في خلدها، أو نفث في روعها بأن ترضع وليدها بعد ولادته، فأرضعته أشهراً أو أسابيع، وكان من ضمن ما أوحى الله إليها: ﴿فَإذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَألْقِيهِ في اليَمِّ﴾ أي فإذا خفت عليه من فرعون وجنده فألقيه في نهر النيل، وهكذا فعلت فهيأت تابوتاً وطلته بالقار ومهدت فيه فراشاً وضعت موسى فيه وألقته في نهر النيل بعد أن طمأنها الله بقوله: ﴿وَلاَ تَخَافي وَلاَ تَحْزَني﴾ أي لا تخافي عليه من الهلاك ولا تحزني لفراقه ﴿إنَّا رَادُّوهُ إلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ المرسلين﴾[٢] إنا سنرجعه إليك

---

(١) وقد يكون الوحي لها رؤيا في منامها، أو كان ذلك بواسطة ملك من الملائكة أرسله إليها. والوحي لها ليس بوحي نبوة.

(٢) روي الأصمعي أنه سمع جارية تنشد أبياتاً من الشعر فقال لها: قاتلك الله ما أفصحك قالت أَو بعد هذا فصاحة مع قوله تعالى: ﴿وأوحينا إلى أُم موسى... إلى قوله تعالى: وجاعلوه من المرسلين﴾ فجمع في آية واحدة بين أمرين: ﴿أرضعيه وألقيه﴾ ونهيين: ﴿لا تخافي ولا تحزني﴾ وخبرين متضمنين بشارتين ﴿رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾.

لترضعيه، وسنجعله في مقتبل عمره رسولاً منا إلى هذا الطاغية فرعون ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ﴾ والالتقاط وجود الشيء من غير طلب ولا إرادة والذي التقط التابوت وعثر عليه هن جواري قصر فرعون أو ابنته أو أعوانه الذين فتحوا التابوت في حضور امرأة فرعون فرأوا فيه الطفل موسى فألقى الله محبته في قلب امرأة فرعون واستبقته ﴿لِيَكُون[1] لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَناً﴾ أي ليكون لآل فرعون في المستقبل عدواً لهم وسبب همٍّ وغمٍّ لهم ﴿إنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُما كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ إنهم كانوا عاصين لربهم آثمين، أو بمعنى: إنهم كانوا مخطئين من حيث أنهم ربُّوا من سيصير عدوهم ويلقون حتفهم على يديه ﴿وَقَالَتِ امْرأَةُ فِرْعَوْن قُرَّةُ عَيْنٍ لي وَلَكَ﴾ لقد قالت لزوجها فرعون: هذا الغلام مبعث سرور لي ولك، فأجابها فرعون: هو قرة عين لكِ، أما لي فلا ﴿لا تقتلوه﴾ خاطبت زوجها فرعون بصيغة الجمع تعظيماً له ليساعدها فيما تريد بعد أن لمست منه رغبة في قتله، وتابعت قولها له: ﴿عَسَى أن يَنْفَعَنَا أو نَتَّخِذَهُ وَلَداً﴾ رجاء أن ننتفع به في تدبير شأننا أو نتبناه ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ أي لا يشعر الناس بأننا التقطناه.

ثم يصف القرآن الهلع الذي أصاب أم موسى بعد أن علمت التقاطه من آل فرعون، وفضل الله عليها بإرجاع طفلها لها ليتربى في حجرها:

وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِنْ كَادَت لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أن رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِها لِتَكُون مِنَ المؤمنِينَ. وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَت بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرونَ. وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ المَراضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ. فَرَدَدْنَاهُ إِلى أُمِّهِ كَي تَقَرَّ عَيْنُها وَلاَ تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حقٌّ وَلَكِنَّ أَكثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (١٠-١٣).

---

(١) ليكون: اللام الداخلة على يكون هي لام العاقبة ولام الصيرورة، فهم أخذوا موسى ليكون مبعث سرور لهم فكان عاقبة ذلك أن يصبح لهم عدواً ومصدر حزن وبلاء.

فالله سبحانه يقول: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ موسَى فَارِغاً﴾ أي وأصبح قلب أم موسى فارغاً من كل شيء إلاّ من ذكر موسى، لا عقل فيه ولا وعي ولا قدرة له على تصريف الأمور لما داهمها من الجزع والخوف عند التقاطه من آل فرعون ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾ إن كادت لتعلن وتخبر الناس أن الطفل الذي التُقط هو ابنها ﴿لَوْلا أن رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾ لولا أن عصمها الله أن تظهر للناس أنه ابنها، وألهمها الصبر وثبّت قلبها ﴿لِتَكُونَ مِنَ المؤمِنينَ﴾ لتكون من الموقنين بوعد الله بحفظه وإرجاعه إليها لإرضاعه.

﴿وَقَالَتْ لأخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ وقالت أم موسى لأخته: اتْبعي أثره وتقصّي خبره ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ﴾ فرأت أخاها موسى عن بُعْد ولم تَدْنُ منه لئلا يُعلم أن لها صلة به ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرون﴾ أنها تتبع أثره وأنها أخته ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ المراضِعَ﴾ وبعد التقاط موسى طلبت امرأة فرعون له المرضعات فعافهن جميعاً، ولم يلتقم ثدي أي امرأة منهن بسبب منع الله إياه من الرضاع ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل أن يرده الله لأمه ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾ أي قالت أخت موسى عندما علمت أن أخاها رفض ثدي المرضعات: هل أدلكم على مرضعة له تكفله وترعاه ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ وهم له مشفقون لا يقصرون في إرضاعه وتربيته[1].

فلما قالت ذلك ذهبوا معها إلى منزلها فدخلوا بموسى على أمه فأعطته ثديها فالتقمه ففرحوا بذلك فرحاً شديداً. وأخبرت امرأة فرعون بذلك فاستدعت أم موسى وأعطتها عطاء جزيلاً وهي لا تعرف أنها أمه، ثم سألتها امرأة فرعون أن تقيم عندها في القصر فترضعه فأبت وقالت: إن لي زوجاً وأولاداً ولا أقدر على المقام عندك، ولكن إن أحببت أن أرضعه في

---

(١) رُوي أن أخت موسى سُئلت: هل أمك لها لبن، قالت: نعم لبن أخي هارون وكان قد وُلد في سنة لا يقتل فيها الصبيان.

بيتي فعلت، فأجابتها امرأة فرعون إلى ذلك وأجرت عليها النفقة والمال الجزيل، فرجعت أم موسى إلى بيتها بصحبة وليدها في عزّ وجاه ورزق وفير، وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «مثل الذي يعمل ويحتسب في صنعته الخير كمثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها».

وفي هذا يقول تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كي تَقَرَّ عَيْنُها وَلاَ تَحْزَنَ﴾ أي فرددنا موسى إلى أمه بعد أن التقطه آل فرعون كي تطيب نفسها وتفرح بعودته إليها ولا تحزن لفراقه ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾ ولتتحقق من صدق وعد الله إليها بردّه إليها ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُم لا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون حكم الله في أفعاله وعواقبها المحمودة، فربما يقع الأمر كريهاً إلى النفوس ولكنه يحمل في طياته الخير الكثير.

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ

شرح المفردات

ولمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوى: استكمل قوته الجسدية واعتدل عقله وكَمُل.

حكماً: حكمة.

مِنْ شيعتِه: أي ممن شايعه وتابعه في الدين وهم بنو إسرائيل.

فَوَكَزَهُ مُوسَى: ضربه بجمع كفه.

ظَهيراً: معيناً.

يَتَرَقَّب: يتوقع المكروه.

يستصرخه: يستغيث به.

لَغَوِيٌّ مُبِين: ضال عن الرشد، ظاهر الضلالة.

يبطش: يتناول الشيء بالقهر والغلبة.

أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾

شَرح المفـردَات

يسعى: يسرع في مشيه.

الملأ: أشراف القوم ووجوههم.

يأتمرون: يتشاورون ويأمر بعضهم بعضاً فيما يجب عمله.

تِلْقاء مَدْيَنَ: جهة مدين وناحيتها.

سَوَاءَ السَّبيل: الطريق السهل الوسط الذي فيه النجاة.

أُمَّةً مِنَ النَّاس: جماعة من الناس.

تَذُودانِ: تمنعان ماشيتهما عن الماء.

مَا خَطْبُكُمَا؟: ما شأنكما؟

يُصْدِرَ الرِّعَاءُ: ينصرف الرعاة عن الماء بعد سقي مواشيهم (الرعاء، الرعاة، والرعيان جمع راعٍ).

تمشي على استحياء: تمشي بحياء وخجل.

قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

شَرح المفـردَات

أُنكِحَكَ: أزوجك.

حُجج: سنين.

أشُقَّ عَلَيْك: أوقعك في التعب والمشقة.

الأَجَلَيْن: الأجل هو المدة والزمن.

فلا عُدْوَان: فلا ظلم ولا تعدٍّ.

وَكيل: رقيب مطلع وشاهد.

تـابع سُورَة القَصَص

ثم ينتقل القرآن إلى الكلام عن موسى وما جرى له من حدث بارز في مقتبل عمره قبل النبوة:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوى آتَيْنَاه حُكْماً وَعِلْماً وَكَذلِكَ نَجْزي المحْسِنينَ. وَدَخَل المدينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِنْ شِيعتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثه الذي مِنْ شِيعتِهِ عَلَى الَّذي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ. قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لي فَغَفَر لَهُ إِنَّه هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ. قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُون ظَهِيراً لِلمُجْرِمِينَ﴾ (١٤-١٧).

فالله سبحانه يقول: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى﴾ أي ولما بلغ موسى طور الشباب وأصبح شديد البنية واعتدل جسمه في سن يقارب بضعاً وثلاثين سنة ﴿آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً﴾ أعطاه الله حكمة وفهماً في الدين وكان ذلك قبل النبوة ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزي المحْسِنينَ﴾ ومثل ذلك الإحسان الذي أحسن الله به إلى موسى وأمه كذلك يكافأ الله المحسنين على إحسانهم.

﴿وَدَخَلَ المدينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أهلها﴾ والمدينة التي دخلها موسى هي مدينة (مَنْف) من مصر وقيل مدينة غيرها، دخلها موسى مستخفياً من فرعون وقومه لأنه قد خالفهم في دينهم وعاب ما كانوا عليه من عبادة لغير الله، واشتهر ذلك منه حتى آل الأمر إلى تهديده، فكان في خوف منهم. وكان لموسى أتباع من بني إسرائيل يقتدون به، والوقت الذي دخل به المدينة قيل هو مساء وقيل دخلها نصف النهار والناس يخلدون للراحة عند القيلولة. ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ﴾ أي يتدافعان ويتضاربان ﴿هَذَا مِنْ شِيعتِهِ﴾ أي إن أحد المتخاصمين من بني إسرائيل ﴿وَهَذا مِنْ عَدُوِّهِ﴾

والآخر من القبط من قوم فرعون ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الذي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدوِّهِ﴾ أي فطلب الإسرائيلي من موسى أن ينصره ويعينه على خصمه القبطي من آل فرعون ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى﴾ أي ضربه بجمع كفه المضمومة الأصابع ضربة شديدة على صدره ﴿فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ أي قتله ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾[1] هذه العبارة تشعر بالندم الشديد من موسى لأنه لم يقصد قتل القبطي وإنما قصد دفع أذاه عن الإسرائيلي فكان قتله خطأ ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ إن الشيطان عدو لابن آدم مضل له عن سبيل الرشاد ظاهر العداوة له ﴿قَالَ رَبِّ إني ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لي﴾ أي قال موسى: ربي إني ظلمت نفسي بقتل نفس لا تستحق القتل فاغفر لي ذنبي ولا تؤاخذني بخطيئتي ﴿فَغَفَر لَهُ إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ فأجاب الله دعاءه إنه عظيم المغفرة واسع الرحمة ﴿قَالَ: رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ أي بما جعلت لي من الجاه والعز والنعمة ﴿فَلَنْ أكُون ظَهِيراً للمُجرمينَ﴾ أي فلن أكون أبداً معيناً للمجرمين، وإني وإن أسأت في هذا القتل الذي صدر عن خطأ فلن أترك نصرة المؤمنين على المجرمين، فترك نصرة المؤمنين من المجرمين هو إعانة للإجرام. وموسى لم يستثن عندما قال: ﴿فَلَنْ أكُونَ﴾ ولم يقل: إن شاء الله فابتلي بهذا الذي استنصره مرة أخرى كما ذكرته الآيات التالية:

---

(١) جعل الله أنبياءه أكمل البشر خلقاً وشملهم بعنايته وهدايته وعصمهم من الوقوع في الذنوب لأن حياتهم لم تكن لأنفسهم بل كانوا قدوة يقتدى بهم. وهنا يستوقفنا كيفية قتل موسى للقبطي فهو وكزه ليدفع أذاه عن الإسرائيلي فكانت لكمته هي القاضية عليه، فقتله كان خطأ لا عن إصرار وعمد والخطأ لا يؤاخذ عليه الإنسان عند الله وبالرغم من خطأه فقد وصف موسى عمله هذا من عمل الشيطان وطلب المغفرة من ربه. أما التوراة فتصور مقتل القبطي عن إصرار وعمد وهذا قدح في سيرته. وقد جاء في سفر الخروج: «ورأى رجلاً مصريًا يضرب رجلاً عبرانيًا من أخوته فالتفت إلى هنا وهناك فلم ير أحداً فقتل المصري وطمره في الرمل..».

﴿فأَصْبَحَ فِي المدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فإِذَا الَّذي اسْتنصَرهُ بالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغوِيٌّ مُبِينٌ. فَلَمَّا أَنْ أَرادَ أن يَبْطِشَ بالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بالأَمْسِ إنْ تُرِيدُ إلاَّ انْ تكونَ جَبَّاراً فِي الأَرْضِ وَمَا تُريدُ أن تَكُونَ مِنَ المُصْلِحينَ﴾ (١٨-١٩).

أصبح موسى في تلك المدينة التي قتل فيها القبطي خائفاً على نفسه ﴿يَتَرَقَّب﴾ أي يترقب الأخبار وينتظر ما الذي يتحدث به الناس وما هم صانعون في أمره ﴿فإذا الذي استنصَرَهُ بالأَمسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾ أي فإذا الإسرائيلي الذي طلب نصرته بالأمس يتشاجر مع قبطي آخر، فلما رأى موسى أخذ يصيح مستغيثاً به لينصره من عدوه ﴿قَالَ لَهُ موسَى إنَّكَ لَغوِيٌّ مُبِينٌ﴾ أي إنك مفسد ضالّ ظاهر الفساد ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بالَّذي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا﴾ أي فلما أراد موسى أن يبطش بالذي هو عدو له وللإسرائيلي والبطش هو الأخذ بعنف وشدة. وقيل: إن الإسرائيلي هو الذي أراد أن يبطش بالقبطي فنهاه موسى وأقبل للحيلولة بينهما، فظن الإسرائيلي أن موسى يريد قتله بعد أن سمع منه قوله: إنك لغوي مبين، فقال لموسى: ﴿أَتُرِيدُ أن تقتلَني كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بالأمس﴾ ولما سمع القبطي قول الإسرائيلي هذا علم أن موسى هو الذي قتل قتيل الأمس، وتابع الإسرائيلي كلامه لموسى: ﴿إنْ تُرِيدُ﴾ إن: وقعت في موضع ما. أي ما تريد ﴿إلاَّ أن تَكُون جَبَّاراً فِي الأَرْضِ﴾ إلاّ أن تكون قتّالاً للناس بغير حق متسلطاً عليهم ﴿وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنْ المصْلِحينَ﴾ وما تريد أن تكون ممن يعمل في الأرض بما فيه صلاح أهلها.

انطلق القبطي الذي كان يتشاجر مع الإسرائيلي إلى قومه فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلي بأن موسى هو الذي قتل قتيل الأمس فأرسلوا في طلبه للقبض عليه والاقتصاص منه.

ثم يبين القرآن فرار موسى من مصر ووصوله إلى مدين:

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى المدينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إنَّ الملأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فاخْرُجْ إنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحينَ. فَخَرَجَ مِنْهَا خائفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نجني مِنَ القَوْمِ الظَّالِمينَ. وَلَمَّا تَوَجَّه تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَني سَوَاءَ السَّبِيلِ. وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امرأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُما قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيخٌ كَبِيرٌ. فَسَقَى لَهُمَا[١] ثُمَّ تَوَلَّى إلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إني لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (٢٠-٢٤).

لقد جاء رجل مؤمن من أقصى المدينة حيث انتشر نبأ قتل موسى للمصري فاختصر طريقاً حتى سبق آل فرعون إلى موسى وأعلمه بما يدبّر له القوم وقال له: ﴿إنَّ الملأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ أي إن أشراف قوم فرعون ورؤساءهم يتشاورون ويأمر بعضهم بعضاً بقتلك ﴿فَاخْرُجْ إنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ فاخرج من مصر قبل أن يدركوك فإني لك من الناصحين للنجاة منهم ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرقَّبُ﴾ فخرج موسى من مصر يترقب أن يلحق به أعوان فرعون فيدركوه، فهو ينظر يميناً وشمالاً وأماماً وخلفاً يترقّب من يأتيه من أمامه ومن خلفه، ثم لجأ إلى ربه بالدعاء: ﴿قَالَ: رَبِّ نجني مِنَ القَوْمِ الظَّالِمينَ﴾ أي خلّصني يا رب واحفظني من هؤلاء القوم الكافرين الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم وظلموا العباد بطغيانهم.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّه تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾[٢] ولما جعل موسى وجهة سيره نحو مدين

---

(١) في الآيات هنا إيجاز بليغ، والإيجاز هو اختصار بعض الألفاظ ليأتي الكلام وجيزاً بليغاً بحيث لو اقتصها أحد غير القرآن لأتى بأكثر من تلك الألفاظ كقوله تعالى ﴿وجد عليه أمة من الناس يسقون﴾ أي يسقون مواشيهم وقوله: ﴿تذودان﴾ أي تكفان مواشيهما عن الماء. وقوله: ﴿فسقى لهما﴾ أي ماشيتهما.

(٢) مدين: قرية كانت بين المدينة المنورة والشام في الجهة الغربية على البحر الأحمر.

(قَالَ عَسَى ربي أن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي لعل الله أن يرشدني إلى الطريق القويم الذي يوصلني إلى مَدْيَنَ، فهو يرجو ربه ومن يرجو ربه لا يخيب ظنه فبعث إليه ملكاً من الملائكة فأرشده إلى الطريق المستقيم إليها، وقد خرج موسى بلا زاد ولا دابة فكان يقتات بالعشب وورق الشجر ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ ولما وصل موسى إلى مدينة مدين وقصد الماء فيها ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ وجد على البئر جماعة من الناس يسقون مواشيهم ﴿وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امرأتين تَذُودَانِ﴾ أي وجد سوى هؤلاء الناس امرأتين تمنعان ما معهما من الأغنام عن التفرق وتكفانهما عن التقدم إلى السقي من الماء ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ قال موسى: ما شأنكما لا تسقيان غنمكما مع الناس ﴿قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كبيرٌ﴾ أي من عادتنا أننا لا نسقي حتى ينصرف الرعاة عن الماء وأبونا من كبر سنه وضعفه لا يستطيع أن يسقي ماشيته ﴿فَسَقَى لَهُمَا﴾ فأتى موسى إلى البئر وزاحم الناس وغلبهم بقوته في الوصول إلى الماء وسقى لهما ماشيتهما، وقيل: عمد موسى إلى بئر كانت مغطاة بحجر والناس يسقون من غيرها وكان حجرها لا يرفعه إلاّ جماعة من الناس فرفعه وسقى للمرأتين ﴿ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ﴾ ثم انصرف إلى ظل شجرة يستظل بها من شدة حرارة الشمس وهو جائع ﴿فَقَالَ: رَبِّ إني لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ أي رب لما أنزلت إليَّ من خيرك وفضلك فقير الآن ومحتاج لما تنزله إليَّ من أي شيء كان قليلاً أو كثيراً، والخير الذي أنزله الله عليه أن خصه بالهداية كما أنه كان في غنى وبحبوحة في العيش لأنه تربى في بلاط فرعون وهو الآن بعد فراره لا يملك شيئاً جائعاً يحتاج إلى لقيمات يسدُّ بها رمقه.

يطالعنا فيما سبق أمران يلفتان النظر، أولهما: أن الفتاتين أحجمتا عن مزاحمة الرعاة على الماء كي لا تختلطا بهم حفظاً لعفتهما. وثانيهما: هو الشهامة التي تحلى بها موسى، فبالرغم من التعب الشديد الذي لاقاه

من وعثاء السفر مع ما يشكو منه من جوع فإن مروءته لم تخنه بل أسرع إلى سقي ماشيتهما شفقة بهما، وهذا أدب اجتماعي ودرس لنا بأن نؤثر الجنس الآخر على أنفسنا لأنه الجنس الضعيف ونقدم الخدمات له قبل إنجاز حاجتنا.

ثم يصف القرآن الظروف التي رافقت زواج موسى من أحدى الفتاتين:

فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ. قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ. قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ و اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ (٢٥ـ٢٨).

رجعت الفتاتان إلى البيت باكراً فتعجب والدهما من سرعة رجوعهما وسألهما عن سرّ ذلك فأخبرتاه بما كان من الرجل الذي سقى لهما ماشيتهما فأمر إحدى ابنتيه باستدعائه فانطلقت في طلبه ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي على اسْتِحياءٍ﴾ جاءت إلى موسى تمشي بحياء وخجل. فالقرآن يرسم الصورة المثلى للفتاة، فهي لم تمشِ مِشية الإغراء بل مشت نحوه بخفَر وحياء، فالحياء أجمل صفات الأنثى التي يصونها من الزلل ويضفي عليها أنوثة تستهوي فضلاء الرجال، فالقرآن ذكر هذه الصفة تنويهاً وثناء على الفتيات المتحلّيات بها ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ أي ليكافئك جزاء ما سقيت لنا من ماشيتنا ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ فلما حضر موسى أمام والد الفتاتين وأخبره خبر فرعون وآله وما هم عليه من كُفر وطغيان وتآمرهم على قتله ﴿قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ

﴿الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ قال لموسى: لا تخف فأنت في بلد آمن لا سلطان لفرعون عليه، وقد نجوت من كيد المجرمين.

أما والد الفتاتين فقد قيل إن اسمه يثرون كاهن مدين وهو ابن النبي شعيب وقيل هو النبي شعيب نفسه، وقيل غيره، والله أعلم.

وكان موسى فتيًا نبيلاً أثار في نفس الشيخ وابنتيه عوامل الإعجاب ولذا قالت إحدى ابنتيه: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾ أي استأجره لرعي أغنامنا وسقايتها ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ إن أفضل من تستأجره من كان قوياً أميناً[1]، كلام جامع حكيم لا يزاد عليه، لأن من اجتمعت فيه هاتان الخصلتان فقد فرغ بالك وتم مرادك من استئجاره.

ولقد شعر الوالد من طلب ابنته استئجار موسى والثناء عليه أنها تستلطفه ويحوز على إعجابها، ولقد شاركها في الإعجاب لذا خاطب موسى: ﴿قال إني أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ﴾ أي إني أرغب في أن أُزوجك إحدى ابنتي هاتين ولم يخصص أحداهن بل ترك الاختيار لموسى، واشترط على ذلك ﴿عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجٍ﴾ أي على أن ترعى غنمي ثماني سنين ﴿فإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ فإن أكملتهن يا موسى بزيادة الخدمة سنتين فهذا تفضّل من عندك، وإلاّ ففي الثماني سنين كفاية ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ وما أريد أن أوقعك في المشقة باشتراط رعي الغنم عشر سنين (سَتَجِدُني إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي في حسن المعاملة ولين الجانب والوفاء بالعهد، والمراد بالاستثناء هنا بقوله: ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ للتبرك وتفويض أمره إلى توفيق الله تعالى لا تعليق صلاحه على مشيئة الله.

---

(١) يروى أن والدها قال لها: وما أعلمك بقوته وأمانته فذكرت له ما رأته من قوته عندما سقى لهما ماشيتهما. وذكرت من أمانته ما قال لها: امشي خلفي وأنا أمامك كراهية أن يرى شيئاً من خلفها وكان يوماً فيه ريح شديدة تلصق الثياب على البدن.

ولقد قبل موسى بهذا العرض ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بيني وَبَيْنَكَ﴾ أي إن ما تعاهدنا عليه قائم بيني وبينك ﴿أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلاَ عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ أي المدتين الثماني أو العشر سنين أديتُها لك في الخدمة فليس لك أن تعتدي عليَّ فتطالبني بأكثر من ذلك ﴿وَاللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ والله شهيد على ما تعاقدنا عليه.

يستوقفنا بما سبق عرض شعيب إحدى ابنتيه على موسى وهو عرض يمكن أن نستشف منه درساً بأنه لا يعيب الرجل أن يعرض بناته على رجل صالح ولو كان فقيراً إذا توسّم فيه التقوى والخلق الكريم، وأن تعرض امرأة نفسها على رجل صالح للزواج منها فهذه سنة متبعة في سلفنا الصالح، فقد عرض عمر بن الخطاب ابنته حفصة على أبي بكر وعثمان، وعرضت خديجة نفسها على محمد ﷺ للزواج منه قبل نبوّته.

فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى

ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ

شــرح المفـردات

الطُّور: جبل الطور.

آنَسْتُ نَاراً: أبصرت من بعيد.

جَذْوةٍ مِنَ النار: جمرة ملتهبة.

تصطلون: تستدفئون من البرد.

شاطِىء الوَادي: طرف وجانب الوادي.

البُقْعَة: القطعة من الأرض تتميز عمّا حولها.

جانٌّ: ضرب من الحيات عظام سريعة الحركة.

وَلَّى مُدبراً: هرب منهزماً.

ولم يُعَقِّب: ولم يلتفت، ولم يرجع.

اسلك يَدَكَ في جَيْبِكَ: ادخل يدك في طوق قميصك.

بيضاء من غير سُوء: بيضاء مشعة من غير برص.

واضمم إليك جناحك مِنَ الرَّهْب: **الجناح**: اليد. والرهب: الخوف والفزع. أي إذا فزعت من رؤية الحية فاضمم يديك إلى صدرك، اليمنى تحت عضد اليسرى يذهب عنك الخوف.

بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ

شرح المفردات

ملئه: جماعة القوم وأشرافهم.

رِدْءًا: معينًا.

سنشدّ عَضُدَكَ: سنقويك ونعينك.

سلطاناً: غلبة وحجة.

مُفْترى: مختلق كاذب.

عاقبة الدار: عاقبة الدنيا المحمودة وهي الجنة.

صرحاً: قصراً عالياً.

فنبذناهم في اليمِّ: فألقيناهم وأغرقناهم في البحر.

فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ (٤٠) وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ
يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ (٤١) وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ
ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ (٤٢) وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى
ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدٗى
وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ (٤٣) وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ
إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ (٤٤) وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا
فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ
ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ (٤٥) وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا
وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ
لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦)

شرح المفردات

عاقبة الظالمين: خاتمة الظالمين وجزاؤهم.
من المقبوحين: من المبعدين أو المشوهين في الخلقة.
آتينا موسى الكتاب: أنزلنا عليه التوراة.
القرون الأولى: الأمم السابقة.
بصائر للناس: أنواراً لقلوبهم يبصرون بها الحقائق.
يتذكرون: يتّعظون.
قضينا إلى موسى الأمر: عهدنا وأوحينا إليه بالرسالة إلى فرعون.
ثاوياً: مقيماً.

تـابع سُورَةِ القَصَص

ولقد ذكر القرآن المرحلة الأولى من حياة موسى عليه السلام لينتقل بنا بعد ذلك إلى الكلام عن بدء الرسالة الإلّهية التي خصه بها:

﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسى الأَجل وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَاراً قَالَ لأَهْلِهِ مكثُوا إنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلّي آتيكم مِنْهَا بِخَبَرٍ أو جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُم تَصْطَلُونَ. فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِىءِ الَوادِ الأَيْمَنِ في البُقْعَةِ المبَارَكَةِ مِن الشَّجَرةِ أن يَا مُوسى إنِّي أنَا اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ﴾ (٢٩-٣٠).

فالله سبحانه يقول: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ﴾ أي فلما أتم موسى المدة التي اتفق فيها مع شعيب لرعي غنمه لقاء تزويجه بنته، وقد روي أنه أتم وأكمل العشر السنين في خدمته ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾ إلى مصر وكان قد اشتاق إلى بلاده وأهله فعزم على زيارتهم خفية خوفاً من فرعون وقومه، فسار بأهله ومعه من الغنم التي وهبها له شعيب، وفي ليلة ممطرة مظلمة باردة أعوزه فيها الوقود ﴿آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّور نَاراً﴾ أي أحسَّ وأبصر من الجهة التي تلي جبل الطور ناراً ﴿قال لأهله امكثوا إني آنَسْتُ ناراً﴾ أي تمهلوا وانتظروا إني أبصرت ناراً ﴿لَعَلّي آتيكُم مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾ لعلي آتيكم منها بخبر الطريق، وكان قد ضلَّ الطريق ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ﴾ أو عُود من الحطب فيه نار ﴿لَعَلَّكُم تَصْطَلُونَ﴾ لعلكم تستدفئون من البرد ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي مِنْ شَاطِىءِ الوَادِ الأَيْمَنِ﴾ فلما أتى موسى إلى النار التي أبصرها سمع من جانب الوادي مما يلي الجبل عن يمينه ﴿في البُقْعَةِ المَبارَكَةِ﴾ في المكان المبارك عند الشجرة. وسميت مباركة لما وقع فيها من تكليم الله لموسى وتكليفه برسالته إلى فرعون ﴿أنْ يَا مُوسى إنّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ﴾ أي سمع من ذلك المكان نداءً علوياً يخاطبه: يا موسى إني أنا الله رب الإنس والجن والخلائق أجمعين لا إله سواي.

ثم يذكر القرآن المعجزات التي أيّد الله بها موسى عليه السلام:

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّب يا مُوسَى أَقْبِل وَلاَ تَخَفْ إِنَّك مِنَ الآمنينَ. آسْلُكْ يَدَكَ في جَيْبِك تَخْرُج بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُم كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ (٣١-٣٢).

فالله سبحانه يخاطب موسى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ في الكلام هنا حذف تقديره فألقاها فصارت ثعباناً واهتزت ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ والجان: نوع من الحيات العظام، ولما رأى موسى ذلك انتابه الرعب ﴿وَلَّى مُدْبِراً﴾ أي ولّى موسى هارباً منها ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي ولم يلتفت من الخوف ﴿يَا مُوسى أَقْبِلْ وَلاَ تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الأَمِنِينَ﴾ أي ناداه الله: أقبل ولا تخف من الذي تهرب منه فأنت آمن من المخاوف. وتابع الله نداءه لموسى: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ في جَيْبِكَ﴾[1] أي أدخل يدك في فتحة ثوبك عند صدرك ﴿تَخْرُج بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ ثم أخرج يدك من جيب قميصك فإذا هي لامعة مشعة كشعاع الشمس من غير عيب ولا مرض ﴿وَاضْمُم إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ واضمم يدك إلى صدرك يذهب عنك الفزع عند رؤية عصاك تتحول إلى ثعبان، والمراد بالجناح: اليد لأن يدي الإنسان بمنزلة جناحي الطائر وإذا أدخل الإنسان يده اليمنى تحت عضد[2] يده اليسرى فقد ضم جناحيه إليه، ويراد بضم جناحه تجلده وضبط نفسه وتشديد عزيمته عند تحول العصا إلى ثعبان، وهذا التعبير هو استعارة من فعل الطائر لأنه إذا خاف نشر جناحيه وأرخاهما، وإلاّ فجناحاه مضمومان إليه ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ﴾ فهاتان المعجزتان: اليد البيضاء المشعة، والعصا التي

(١) الجيب: الفتحة في القميص ونحوه من حيث يخرج الرأس.
(٢) العضد: ما بين مرفق اليد إلى الكتف.

تتحول إلى ثعبان هما حجتان تدلان على أنك رسول من رب العالمين ﴿إلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إنَّهُم كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ إلى فرعون وأشراف قومه إنهم كانوا قوماً خارجين عن طاعة الله مخالفين لأمره ونهيه.

وبعد تأييد الله لموسى بهاتين المعجزتين ذهب إلى فرعون مدعوماً بأخيه هارون ولكن فرعون كذب بنبوّة موسى وأصرّ على كفره:

﴿قَالَ رَبِّ إنّي قَتَلْتُ مِنْهم نَفْساً فَأَخَافُ أن يَقْتُلُونِ. وَأخي هَارونُ هُوَ أفْصَحُ مِنّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدءاً يُصَدِّقُني إنِّي أَخَافُ أنْ يُكَذِّبُونِ. قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطاناً فلا يَصِلُونَ إلَيْكُمَا بآيَاتِنَا أنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الغَالِبُون. فَلَمَّا جَاءَهُم مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إلاَّ سِحْرٌ مُفْتَرى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا في آبائِنَا الأوَّلِينَ. وَقَال مُوسَى ربِّي أعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (٣٣-٣٧).

لقد شكا موسى إلى ربه ما يعانيه من الخوف بقوله: يا رب إني قتلت نفساً من قوم فرعون وأخشى إن أتيتهم أن يقتلوني ﴿وَأَخي هَارونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنّي لِسَاناً﴾ أي هو أوضح بياناً وأطلق لساناً لأن موسى في لسانه لثغة[١] لا يبين معها ما يريده من الكلام ﴿فَأرسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُني﴾ فأرسله معي عوناً في تبليغ رسالتك إلى فرعون. وليس معنى يصدقني أن يقول له: صدقت، وإنما المراد أنه لزيادة فصاحته يبالغ في التبيان وفي الإجابة عن الشبهات وفي جداله لهم، هذا من جهة ومن جهة أخرى أن الاثنين إذا اجتمعا على إعلان خبر ما كانت النفس إلى تصديقهما أكثر من تلقي الخبر من الواحد ﴿قَالَ: سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيك﴾[٢] فأجابه الله على

(١) لثغة: ثقل اللسان بالكلام.

(٢) سنشد عضدك: تقول العرب إذا أعز رجل رجلاً وأعانه ومنعه ممن أراده بظلم قد شد فلان على عضد فلان.

طلبه وقال له: سنقويك ونعينك بأخيك هارون ﴿فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ فلا يصل إليكما فرعون وقومه بسوء ﴿بآياتنا[١] أَنْتُما وَمَنِ اتَّبعَكُمَا الغَالِبُونَ﴾ أي أنتما ومن اتبعكما الغالبون لفرعون وقومه بمعجزاتنا وسلطاننا الذي نجعله لكما، وفي هذا تبشير لهما بالنصر على فرعون وتثبيت لقلوبهما.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ﴾ فلما واجه موسى فرعون وقومه بالحجج البالغة، والمعجزات الواضحة الدالة على صدق نبوته ﴿قالوا: مَا هَذَا إلاَّ سِحْرٌ مُفْتَرى﴾ أي ما هذا الذي جئتنا به من العصا واليد إلا سحر تعلمته ثم افتريته على الله ﴿وَمَا سَمِعْنا بِهَذَا في آبائنا الأوّلين﴾ وما سمعنا بهذا الذي تدعونا إليه من عبادة الله وحده في آبائنا الأُوّلين الذين مضوا قبلنا ﴿وَقَالَ مُوسَى: رَبي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالهُدَى مِنْ عِنْدِهِ﴾ أي ربي أعلم بالمحقّ منا يا فرعون من المبطل ومن جعله نبيًا وبعثه بالهدى ﴿وَمَنْ تَكُون لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ ومن تكون له عاقبة الدنيا المحمودة وهي الجنة في الآخرة ﴿إنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمونَ﴾ إنه لا يفوز من كان ظالماً كاذباً على الله، ولا ينجح من كان كافراً بالله.

ويتابع القرآن فيذكر إصرار فرعون على كفره وعقاب الله له في الدنيا بجانب مصيره السّيىء في الآخرة:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ: يَا أَيُّهَا الملأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِنْ إلَه غيري فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لي صَرْحاً لَعَلّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنّي لأَظُنُّهُ مِنَ الكَاذِبِينَ. وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنودُهُ في الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُم إِلَيْنَا لا يُرْجَعُون. فَأَخَذْنَاهُ وَجُنودَهُ فَنَبَذْنَاهُم في اليَمِّ فَانْظُر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالمينَ. وَجَعَلْنَاهُم أَئمَّةً يَدْعُونَ إلى النَّارِ وَيَوْمَ القِيَامَةِ لا يُنْصَرُونَ. وَأَتْبَعْنَاهم في هَذِهِ الدُّنيا لَعْنَةً وَيَوْمَ القِيَامَةِ هُم مِنَ المقْبُوحِينَ﴾ (٣٨-٤٢).

---

(١) بآياتنا: قد تكون متعلقة بمحذوف تقديره: إذهبا بآياتنا.

لقد قال فرعون لأشراف قومه وسادتهم ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِن إِلَه غيري﴾ فكيف تصدقون موسى من أن لكم ربًّا غيري ومعبوداً سواي ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّين﴾ والطين هو الوحل المعروف يطبخ ويصبح آجُرًّا صلباً يبنى به، وهامان هو وزير فرعون الذي يُصرِّف أموره ﴿فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً﴾ فاجعل لي من هذا الآجرّ قصراً عالياً ﴿لَعَلِّي أَطَّلع إلى إِلَه مُوسى﴾ لعلي أرى وأشاهد إله موسى، قال ذلك على سبيل التهكم، وأضاف قائلاً: ﴿وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الكَاذِبِينَ﴾ وإني لأظن موسى كاذباً في ادعائه أن في السماء ربًّا، وإذا ظن فرعون أن موسى كاذب في إثباته إلَهاً غيره، فقد ظن أن في الوجود إلَهاً غيره.

ويروي المفسرون أنه لما بني له القصر ارتقى فوقه فأمر بنشابة لطخها بالدم خفية عن القوم ورمى بها نحو السماء، فلما عادت إليه ملطخة بالدم قال: لقد قتلت إله موسى، وهكذا استجهل قومه واستصغر عقولهم.

﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنودُهُ في الأَرْضِ﴾ أي واستكبر فرعون وجنوده في أرض مصر عن تصديق موسى بأنه رسول الله وعن اتباعه والسير فيما دعاهم إليه من التصديق بوحدانية الله والإقرار بالعبودية له وحده، كما أنهم استكبروا على عباد الله وأذلوهم وسخروهم لمآربهم ﴿بِغَيْرِ الحقّ﴾ تعدياً وعتوًّا على ربهم وعلى الناس ﴿وَظَنُّوا أنهم إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ﴾ وحسبوا أنهم بعد مماتهم لا يبعثون أحياء لمجازاتهم على أعمالهم، وأنه لا ثواب ولا عقاب لهم في الآخرة.

﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنودَهُ فَنَبَذْنَاهُم في اليَمِّ﴾ أي فجمعنا فرعون وجنوده فألقيناهم جميعاً في البحر فأغرقناهم فيه ﴿فَانْظُر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمينَ﴾ فانظر يا محمد نظر تأمل واعتبار كيف كان مصير وخاتمة أمر هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم وظلموا العباد، فحل بهم الهلاك جزاء ظلمهم ﴿وَجَعَلْنَاهُم أَئمَّةً يَدْعُونَ إلى النَّارِ﴾ أي صيّرناهم رؤساء متبوعين مطاعين

في الكافرين فهم يدعون أتباعهم إلى عذاب النار في الآخرة لأنهم اقتدوا بهم وأطاعوهم. يفهم من هذا أن على الشعوب أن تتماسك وتتمرد على قادتها المضلين المفسدين ولا تنقاد لهم انقياد النعاج فإن الانقياد لهم، والإنصياع لأوامرهم يترتب عليه الخسران في الدنيا والآخرة.

ثم يبين الله مصيرهم في الآخرة: ﴿وَيَوْمَ القِيَامَةِ لا يُنْصَرُون﴾ أي لا ينصرهم ناصر يَوْمَ القِيامَة ولا يمنعهم مانع من عذاب الله ﴿وَأَتْبَعْنَاهُم في هٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي وألزمنا فرعون وقومه في هذه الدنيا خزياً وغضباً منا عليهم وطرداً وبُعداً من رحمتنا ﴿وَيَوْم القِيَامَةِ هُمْ مِنَ المقْبُوحِينَ﴾ أي من الذين قبحهم الله وأبعدهم عن كل خير.

ويتابع القرآن فيذكر نعمة الله على بني إسرائيل بإنزال التوراة عليهم مبيناً بعد ذلك ما خصّ الله به محمداً ﷺ من أنباء غيبية عن الأمم السالفة:

﴿لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا القُرُونَ الأُولى بَصَائِرَ للنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُم يَتَذَكَّرونَ. وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الغَرْبِيِّ إذْ قَضَيْنَا إلى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ. وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُروناً فَتطاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِياً في أَهْلِ مَدْيَنَ تتلو عَلَيْهِم آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ. وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّور إذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِر قَوْماً مَا أَتَاهُم مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُم يَتَذَكَّرونَ﴾ (٤٣-٤٦).

فالله سبحانه يقول: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ﴾ أي ولقد أعطينا موسى التوراة ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا القُرُونَ الأُولى﴾ من بعد ما أهلكنا الأمم السالفة بسبب كفرهم كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين ﴿بَصَائِرَ للنَّاسِ﴾ أي جعلنا التوراة أنواراً لقلوب الناس تبصر بها الحقائق وتميز بين الحق والباطل والخير والشر، فالبصيرة نور القلب الذي به يستبصر به الخير والحق، كما أن البصر نور العين الذي به يبصر المرئيات

﴿وَهُدًى﴾ وجعلنا التوراة إرشاداً لما هم فيه من ضلال ﴿وَرَحْمَةً﴾ وجعلناها رحمة للناس ﴿لَعَلَّهُم يَتَذَكَّرونَ﴾ أي يتذكرون نِعَمَ الله عليهم فيشكرونه على ذلك.

ثم يخاطب الله رسوله محمداً ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الغَرْبِيِّ﴾ أي وما كنت حاضراً بجانب غربي جبل الطور ﴿إذْ قَضَيْنَا إلى مُوسَى الأَمْرَ﴾ إذ كلفناه أمرنا والزمناه عهدنا بإرساله إلى فرعون وقومه لهدايتهم ﴿وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ ولم تكن يا محمد معاصراً لموسى ولا شاهداً بجعله رسولاً من الله إلى فرعون وقومه ﴿وَلكنَّا أَنْشَأْنَا قُرُوناً﴾ أي خلقنا أمماً كثيرة من بعد موسى ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ العُمُرُ﴾ فتطاول عليهم الزمن، فَحُرِّفت وصايا الله وتغيَّرت الشرائع، وقست القلوب، وكفر الناس ﴿وَمَا كُنْتَ ثَاوِياً في أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ وما كنت يا محمد مقيماً في بلدة مدين فتعلم أخبار موسى وشعيب وابنتيه ﴿تَتْلُو عَلَيْهِم آيَاتِنَا﴾ لتقرأ على قومك آيات القرآن التي تقصّ أخبارهم ﴿وَلَكِنْ كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ ولكن أرسلناك يا محمد رسولاً منا إلى قومك وأخبرناك عن كل هذه الأمور عن طريق الوحي إليك ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إذْ نَادَيْنَا﴾ وما كنت يا محمد بجانب جبل الطور حين نادينا موسى واصطفيناه للنبوة والرسالة ﴿وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ ولكن الله أعلمك بهذا عن طريق الوحي رحمة بك وبقومك ﴿لِتُنْذِرَ قَوْماً﴾ لتبلّغه قومك وتخوفهم عاقبة كفرهم ﴿ما أَتَاهُم مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي لم يأتهم رسول من قبلك يا محمد إليهم ﴿لَعَلَّهُم يَتَذَكَّرُونَ﴾ لعلهم يتعظون بإنذارك لهم ويتذكرون خطأ ما هم عليه من الكفر والضلال.

فالله سبحانه يشير بالآيات السابقة إلى صدق نبوة محمد حيث أخبر عن أحوال الأمم الماضية ومنها أخبار موسى التي نحن في صددها، وهو أُمّي لا يقرأ ولا يكتب ولا تتلمذ على أيدي الأحبار والرهبان في عصره وهي أمور ثابتة يشهد بها قومه الذين عاش بينهم وعرفوا كل صغيرة وكبيرة عنه.

ولنفرض جدلاً ـ كما يدّعي أعداؤه ـ أنه مدّعٍ للنبوة وأنه تلقى ما تلقاه من أخبار الأمم الماضية عن الأحبار والرهبان إذن لرأينا عند ذاك أن أقوال القرآن وأقوال التوراة لا تختلفان في شيء، ولكن عند المقارنة نرى أن القرآن يخالف كثيراً مما أوردته التوراة ويصحح ما جاء فيها من أقوال لا يُعقل صدورها عن الله سبحانه، بالإضافة إلى ذلك فإن القرآن يروي أحداثاً لم تأتِ على ذكرها التوراة، هذا مع العلم بأن لسان الأحبار والرهبان وأُسلوب التوراة يخالف لسان وأسلوب القرآن.

وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتْ
أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ
مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ
مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ
تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ
هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ
فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى
مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ
ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ
يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا
مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ
بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ
أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ

شرح المفردات

سحران تظاهرا: أي التوراة والقرآن سحران تعاونا

وصَّلْنا لهم القول: أنزلنا عليهم القرآن متواصلاً بعضه إثر بعض.

ويدرؤون بالحَسَنةِ السَّيِّئة: يدفعون الكلام القبيح كالسب والشتم بالكلمة الطيبة.

اللغو: الشتم والكلام القبيح الباطل.

سلام عليكم: سلمتم منا لا نعارضكم ولا نقابلكم بالشتم والأذى

لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾

شرح المفردات

لا نبتغي الجاهلين: لا نريد أن نكون من أهل السفه والجهل.

نُتخطَّف من أرضنا: ننتزع منها بسرعة.

أوَ لَمْ نُمكِّن لهُم حَرَماً آمناً: ألم نجعل مكانهم في مكة آمناً لا تنتهك ولا يسفك الدماء فيها.

يُجْبَى إِلَيْهِ: يجلب ويحمل إليه.

رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا: رزقاً يرزقونه من عندنا.

بَطِرَتْ مَعيشتها: طغت وكفرت بنعمة الله.

يَبعث: يرسل.

في أمها: في أعظمها وعاصمتها التي فيها القادة والرؤساء.

تَابع سُورَة القَصَص

ثم ينتقل القرآن إلى وصف تعنت المشركين إزاء دعوة الإسلام:

﴿وَلَوْلا[1] أن تُصِيبَهُم مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِم فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُون مِنَ المؤْمِنِينَ. فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُروا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَان تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكلٍّ كَافِرُون﴾ (٤٧-٤٨).

والمعنى: ولولا أن يقول هؤلاء الذين أرسلتك إليهم يا محمد حين تصيبهم عقوبة بسبب كفرهم ﴿لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً﴾ أي يقولون معتذرين عن كفرهم: هَلاَّ أرسلت إلينا يا رب رسولاً من قبل أن يحل بنا سخطك وينزل بنا عذابك ﴿فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ المؤْمِنِينَ﴾ فنتبع آيات كتابك الذي أنزلته على رسولك محمد، ونكون من المؤمنين بوحدانيتك المصدقين رسولك فيما أمرتنا به ونهيتنا عنه. والمعنى المراد: أنه لولا احتجاجهم بعدم إرسال الرسل لما أرسلناك يا محمد إليهم من عندنا ولعاجلناهم بالعقوبة ولكن جرت سنتنا بأن لا نُعذب قوماً إلاّ بعد أن نُرسل إليهم رسولاً من عندنا ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نبعث رَسُولاً﴾.

ثم يقول سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ فلما جاءهم محمد بالرسالة من الله إليهم مؤيَّداً من القرآن الذي هو معجزة من الله، قالوا تمرّداً على الله وتمادياً في الغي: ﴿لَوْلاَ أُوتي مِثْلَ مَا أُوتي مُوسى﴾ أي هلاَّ أُعطي محمد معجزات مثل معجزات موسى من العصا التي تحولت ثعباناً واليد البيضا وفَلْق البحر وغيرها من المعجزات ﴿أَوَلَمْ يَكْفُروا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ أو لم يكفر كفّار قريش من قبل بموسى ومعجزاته وما

---

(١) لولا: هي امتناعية وجوابها محذوف تقديره: لما ارسلناك إليهم رسولاً، أو لعاجلناهم بالعقوبة أما (لولا) الثانية فهي تحضيضية بمعنى: هلاّ.

أنزل عليه من التوراة ﴿وَقَالُوا سِحْرَان تَظَاهَرا﴾ أي أن التوراة والقرآن هما سحران تعاونا بتصديق كل واحد منهما الآخر. وذلك أن كفار قريش بعثوا جماعة منهم إلى رؤساء اليهود فسألوهم عن شأن النبي ﷺ، فقالوا: إنا نجد نعته وصفته في التوراة، فلما رجعت الجماعة وأخبروهم بما قالت اليهود قالوا ذلك. وهناك قراءة للآية: ﴿سَاحِران تظاهرا﴾ يقصد بهما موسى ومحمد ﴿وَقَالُوا إنَّا بِكُلٍّ كَافِرونَ﴾ أي جاحدون بكل من التوراة والقرآن، أو جاحدون بموسى ومحمد، وهذا القول منهم: تأكيد لكفرهم وتماديهم في طغيانهم.

وبعد إقرار المشركين بالجحود بكتابي الله يأتي التحدي الرباني لهم بأن يأتوا بكتاب هو أهدى منهما للبشر:

﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إنْ كُنْتُم صَادِقِينَ. فَإن لَمْ يَسْتَجِيبوا لَكَ فاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْواءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ إنَّ اللَّهَ لا يَهْدي القَوْمَ الظَّالِمِينَ. وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهم يَتَذَكَّرونَ﴾ (٤٩-٥١).

أي قل يا محمد للقائلين بأن التوراة والقرآن هما سحران تعاونا: هاتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما[١] لطريق الحق ولسبيل الرشاد

(١) وصف الله التوراة بجانب القرآن بأنهما يشتملان على الهدى الرباني والمراد بذلك التوراة الأصلية التي أنزلت على موسى. فالتوراة الحالية قد طرأ عليها التحريف والتبديل والإضافات الغريبة وهي ليس لها سند متصل بموسى. وقد ذكر القرآن عن اليهود بأنهم ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ وذلك في كتبهم الدينية. هذا مع العلم أن الرسول محمد حدد القول الفصل في كتب أهل الكتاب حيث قال: (لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بما أُنزل إلينا وأُنزل إليكم) وهذا يعني أن التوراة لا تخلو من وصايا الله كما لم تَخْلُ من بعض الإضافات الغريبة التي أُلحقت بها، وأن القرآن يصرح أنه بعد مجيء الإسلام ذلك الدين الذي جاء به رسول الله محمد من عند ربه فإن الله لا يقبل من إنسان ديناً غيره يوم الحساب ﴿ومن يبتغِ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه وهو في الآخرة لمن الخاسرين﴾.

﴿أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُم صَادِقِينَ﴾ اتمسك به وأسير على موجبه إن كنتم صادقين أن هذين الكتابين سحران وأن الحق في غيرهما ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ فإن هم لم يجيبوك إلى ما طلبته منهم من إتيان كتاب هو أهدى من التوراة والقرآن ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُم﴾ أي فاعلم أنما يتبعون في تكذيبك يا محمد وما جئت به من عند الله أهواء نفوسهم تاركين الحق مكابرة وعناداً ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ﴾ استفهام إنكاري للنفي، أي لا أحد أكثر ضلالاً ممن اتبع هواه في الدِّين بغير رشاد من الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ والله لا يوفق إلى الحق من كان معانداً ظالماً لنفسه باتباع الباطل ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ ولقد أنزلنا القرآن إنزالاً متواصلاً متتابعاً بعضه إثر بعض وبينّا فيه الوعد والوعيد والمواعظ والنصائح والأحكام ﴿لَعَلَّهُم يَتَذَكَّرونَ﴾ ليتذكر قومك يا محمد ويتعظوا ويؤمنوا به.

هذا هو التحدي السافر بأن يأتوا بكتاب هو أهدى من القرآن أعلنه محمد ﷺ على قومه بواسطة الوحي الإلّهي وهو النبي الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب، وها هي سنون تمضي وقرون يتبع بعضها بعضاً ويظل هذا التحدي يقرع أسماع شعوب الأرض التي يجحد بعضها بأن القرآن هو كتاب الله حقّا وأن محمداً رسول الله. فالبشرية في تاريخها الطويل لم تعرف كتاباً فيه حقائق الوجود ودستور سعادة الأمم مثل القرآن. وها نحن في الزمن الذي أُدوِّن فيه هذه الكلمات أي بعد خمسة عشر قرناً من نزول القرآن لم نسمع عن كاتب أو مجموعة من الكتاب أتوا بكتاب اشتمل على الهداية بما يفوق القرآن أو يوازيه، هذه الحقائق نعرضها لكل طالب حق ليؤمن بنبوة محمد عن يقين واقتناع.

ثم بيَّن القرآن بعد ذلك دليلاً على أنه وحي إلّهي وهو اعتناق بعض علماء النصارى واليهود للإسلام بعدما لمسوا في القرآن الحقائق الثابتة التي تشهد أنه من عند الله:

﴿الَّذِينَ آتيناهُمُ الكِتَاب مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ. وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِم قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمينَ. أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنةِ السَّيئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ. وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُم أَعْمَالُكُم سَلام عَلَيْكُم لا نَبْتَغي الجَاهِلِينَ﴾ (٥٢-٥٥).

أخبر الله بهذه الآيات أن قوماً ممن أُوتوا الكتاب دخلوا في الإسلام، والمراد بالكتاب: التوراة والإنجيل، منهم من كان من علماء بني إسرائيل ومنهم من كان من علماء النصارى، فنزلت هذه الآيات تنوّه بهم وتَعِدُهم بالأجر الجزيل يوم القيامة.

فالله سبحانه يقول: ﴿الَّذِينَ آتيناهُمُ الكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي الذين أعطيناهم التوراة والإنجيل من قبل نزول القرآن ﴿هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ هم يصدّقون بأن القرآن كتاب الله وأن محمداً رسوله ﴿وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِم قَالُوا آمَنَّا بِهِ﴾ وإذا قرىء عليهم القرآن قالوا صدّقنا بأنه من عند الله ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا﴾ إنه الحق المنزل من عند ربنا ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ إنّا كنا قبل نزول القرآن مسلمين، أي موحدين لله خاضعين له مؤمنين بما جاء به الأنبياء قبل مجيء محمد، ومؤمنين بأن الله سيبعث محمداً رسولاً لِمَا قرأنا من نعته في التوراة والإنجيل ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ أولئك يُعْطَوْن ثوابهم مضاعفاً، مرة على صبرهم وثباتهم على دينهم الأول، ومرة على اعتناقهم للإسلام وصبرهم على ما يلحقهم من أذى في سبيله، وقد أكد رسول الله ﷺ هذا المعنى بقوله: «ثلاثة يُؤْتَوْن أجرهم مرتين، وذكر منهم: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بي».

﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أي هؤلاء الذين دخلوا في الإسلام من أهل الكتاب يقابلون السيئة بالإحسان والعفو والصفح، ويقابلون الكلام

القبيح كالسب والشتم بالكلمة الطيبة ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُم يُنْفِقُونَ﴾ وينفقون في سبيل الخير مما رزقهم الله من مال.

وأريد أن أوضح حقيقة تخفى على البعض وهي أن الإسلام ليس بدين جديد بل هو الدين الذي أوحى به الله إلى نوح والنبيين من بعده الذي أساسه توحيد الله وعبادته وحده، والإيمان بالجزاء على الأعمال في الآخرة، والعمل بشريعة الله. وكانت الشرائع تختلف من نبي إلى نبي حسب حال الأمم ودرجة استعدادها العقلي، ثم شاء الله بعد أن اختلف الناس حول الدين ودخلت عليه التحريفات والشروحات الباطلة أن يرسل الله محمداً بالدين الحق ويجعله خاتم الأنبياء، ويخصه بشريعة توافق تطور الأمم وتصلح لكل زمان ومكان، وهذه الشريعة ترفع عن كاهل الأمم الواجبات الدينية التي أثقلتهم، وهذا ما أعلنه القرآن: ﴿الذين يتَّبِعُون الرَّسولَ النبيَّ الأميَّ (أي محمد) الذي يَجِدونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهم في التَّوْرَاةِ والإنجيل يأمُرُهُم بِالمعْروفِ وَيَنْهاهُم عَنِ المُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطيباتِ وَيُحرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُم إصْرَهُم[1] وَالأَغْلالَ التي كَانَتْ عَلَيْهِم. . .﴾

وبعد هذا الاستطراد نعود إلى متابعة الآيات السابقة:

﴿وإذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ﴾ أي وإذا سمع هؤلاء الذين دخلوا في الإسلام من اليهود والنصارى الباطل من القول الذي فيه الشتم والأذى لهم من قومهم ﴿أعْرَضُوا عَنْهُ﴾ انصرفوا عنه ولم يصغوا إليه ولم يستمعوا إليه، وقيل المراد باللغو هنا ما ألحقه أهل الكتاب بالتوراة والإنجيل مما ليس هو منه ﴿وَقَالُوا: لَنَا أَعْمَالُنَا﴾ قد رضينا بها لأنفسنا لا يلحقنا من ضرر كفركم شيء ﴿وَلَكُم اعْمالُكُمْ﴾ قد رضيتم بها لأنفسكم لا يلحقكم نفع من إيماننا شيء ﴿سَلاَمٌ عَلَيْكُم﴾ ليس المراد بهذا السلام سلام التحية ولكن

(١) إصرهم: التكاليف الشاقة.

سلام المتاركة والأمان من أن يسمعوا منهم سبًّا أو مما لا يحبونه من القول ﴿لا نبتغي الجَاهِلِينَ﴾ لا نطلب صحبتهم ولا نريد أن نكون من أهل الجهل والسفه برد الكلام القبيح بمثله.

ثم يبين القرآن بأن الرسول محمد لا يملك هداية من أحب مع بيان أعذار المشركين التي يتعللون بها لرفضهم الإسلام:

﴿إنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّه يَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ. وَقَالوا إن نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبى إلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُم لا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٦-٥٧).

فالله يخاطب رسوله محمداً: ﴿إنَّكَ لا تَهْدي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ أي إنك يا محمد لا تقدر أن تُدخل في الإسلام كل من أحببت أن يدخل فيه من قومك وأهلك وغيرهم ﴿وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ بمن يريد أن يهديه بتوفيقه للإيمان به وبرسوله محمد ويشرح صدره للإسلام ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهتَدِينَ﴾ والله أعلم لمن قُدِّر له أن يهتدي إلى الرشاد. هذه الآية وإن كان حكمها عاماً فإنها نزلت في عم النبي ﷺ (أبي طالب) فقد كان يحوط النبي بعطفه وينصره ويحبه حبًّا شديداً، فلما حضرته الوفاة دعاه النبي ﷺ إلى الإيمان بالله والدخول في الإسلام وقال له: قل لا إله إلا الله أشهد لك بها عند الله، فأبى أبو طالب خيفة أن يعيِّره كفار قريش وتقول: ما حمله على إيمانه إلاّ جزع الموت، ومات على كفره. فقال رسول الله ﷺ: «أما والله لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك» فأنزل الله تعالى قوله: ﴿مَا كَان لِلنَّبيِّ وَالَّذين آمَنُوا أن يَسْتَغْفِروا لِلمشْرِكينَ وَلَوْ كَانُوا أُولي قُرْبى﴾ التوبة: ١١٣ وفي هذا عبرة للذين يؤثرون الجاه والمكانة في قومهم على الاستجابة لدعوة الحق وإعلان رأيهم بدون خوف ولا وجل.

ويذكر القرآن ما قاله الكفار للنبي ﷺ: ﴿إن نَتَّبِعِ الهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ

مِنْ أَرْضِنَا﴾ أي نخشى إن اتبعنا ما جئت به يا محمد من الهدى وخالفنا من حولنا من أحياء العرب المشركين أن ينتزعنا الناس من أرضنا ويهلكونا بسرعة، فأجابهم الله على قولهم هذا ﴿أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَهُمْ حَرَماً آمِناً﴾ فالله يمتنّ عليهم بأن جعل بلدهم مكة حرماً مكيناً ثابتاً حرمته. والحرم: ما لا يحل انتهاكه وبهذا سميت مكة وما حولها حرماً لوجود بيت الله الحرام فيها حيث حرم الله على الناس في هذا البلد من عهد إبراهيم سفك الدماء ومنعهم أيضاً أن ينالوا سكانه بسوء. لذا كان العرب يحترمون مكة وما كانوا يصيبون سكانها مطلقاً بالأذى، بينما كان العرب حولهم يشتغلون بالسلب والنهب والغارات فيما بينهم، فكيف يكون هذا البلد الذي يسكنون فيه حرماً آمناً لهم في حال كفرهم ولا يكون آمناً لهم وقد أسلموا وتابعوا الحق ﴿يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وهذا البلد يجمع ويُحمل إليه الثمرات على اختلاف أنواعها من الأراضي المختلفة، وهذه النعم والخيرات على مكة لانزال نرى آثارها إلى اليوم ببركة بيت الله الحرام ﴿رِزْقاً من لَدُنَّا﴾ أي رزقاً من عند الله ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُم لا يَعْلَمُون﴾ أي لا يعلمون بأن الله الذي رزقهم وأعطاهم الأمن حال كفرهم، يرزقهم ويعطيهم الأمن حال إسلامهم.

وبعد أن بيَّن الله لأهل مكة ما خصَّهم به من النِّعَم أتْبَعَ ذلك ببيان عاقبة البطر الذي يؤدي إلى هلاك الأمم وخرابها:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَت مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِنْ بَعْدِهِمْ إلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ. وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ في أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْهِم آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكي الْقُرى إلاَّ وَأَهْلُها ظَالِمُونَ﴾ (٥٨-٥٩).

فالله سبحانه يقول: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ[١] معيشَتَهَا﴾ أي

(١) البطر: التبختر، وقيل الطغيان عند النعمة وطول الغنى. وبطر النعمة لم يشكرها.

وكثيراً ما أهلك الله أهل قرية بسبب بطرها في معيشتها، والبطر: كفران النعمة وعصيان الله فيها والإعراض عن شكر الله وعبادته ومجاوزة الحد في الزهو والكبرياء في الأرض ﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فتلك منازل القوم الذين بطروا لم تسكن منازلهم من بعد هلاكهم إلّا فترات عابرة للمارّين بها، أو لقلة منهم رجعوا إلى مساكنهم وظلّوا على قيد الحياة بعدما أهلك الله تلك القرية بجائحة سماوية أو بحرب طاحنة أو غير ذلك من الأسباب ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ أي ولم يكن لتلك القرى التي هلكت من وارث ولا مالك لها إلّا الله الذي له ميراث السموات والأرض.

ما أصدق هذه الآية وانطباقها على كثير من الأمم التي هلكت بسبب بطرها وإعراضها عن هدى ربها.

هذه الآية من أهم الإنذارات للأمم التي تسير في طريق البطر يغرها في ذلك ثرواتها الهائلة وتحسب أنها بمنجى من غائلات الزمن، وأن المال يضمن لها استمرار النعيم والخلود في الأرض.

هذه الآية هي قاعدة جليلة أحرى أن توضع في علم الاجتماع تبين أسباب سقوط الأمم وخرابها ويحتاج بيان أبعادها إلى صفحات كثيرة.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى﴾ أي وما كانت عادة ربك أن يهلك القرى في كل وقت ﴿حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا﴾ حتى يرسل إلى عاصمتها وأصلها وأعظمها رسولاً من البشر إليها وقد أرسل الله إلى مكة رسوله محمداً ﷺ ﴿يَتْلُو عَلَيْهِم آيَاتِنَا﴾ يقرأ عليهم آيات كتابنا ﴿وَمَا كُنَّا مُهلكِي القُرى إلَّا وَأَهْلُها ظَالِمون﴾ وما كان الله مهلك القرى إلّا وقد استحق أهلها الهلاك بسبب ظلمهم. والظلم قسمان: ظلم للنفس بكفرانها للخالق وعصيان أوامره والتعدي على حدوده التي رسمها لعباده، وظلم للغير بالتعدي على ماله وعرضه ودمه وكرامته. والله لا يظلم أحداً كما جاء في القرآن: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهلك القُرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُها مُصْلِحُونَ﴾

وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ
وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن
مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾
وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾
قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ
كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟
شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ
كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾
فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ
وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ
مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾
وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ
لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ

شرح المفردات

من المحضرين: من الذين أُحضروا للنار.
حَقَّ عليهم الْقَوْلُ: وجب عليهم عذاب الله.
أغْوَيْنَاهم كَمَا غَوَيْنَا: أضللناهم كما ضللنا.
الخِيَرة: الاختيار في الشيء.
تُكِنُّ صُدورهم: تضمره قلوبهم.

إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾

شرح المفردات

سَرْمَداً: دائماً متصلا.

نَزَعْنَا: أخرجنا.

تابع سُورَةِ القَصَص

ولما كان الأخذ بدين الله يستلزم التضحية بكثير من مشتهيات النفس وملذاتها، لذا بيّن القرآن بأن ما عند الله من ثواب خير من نعيم الدنيا الفانية:

﴿وَمَا أُوتِيتُم مِنْ شيء فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أفَلا تَعْقِلُونَ. أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ (٦٠-٦١).

فالله سبحانه يقول: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِنْ شَيءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي وما أُعطيتم أيها الناس من شيء من الأموال والخيرات والأولاد في الدنيا فإنما هو متاع محدود ونعيم زائل ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ وما عند اللّه من ثواب في الآخرة أفضل وأدوم من نعيم الدنيا الزائل ﴿أفَلا تَعْقِلُونَ﴾ أفلا تتفكرون وتدركون بأن الباقي الدائم أفضل من الزائل الفاني.

فالله يخبر عن حقارة الدنيا وزوال نعيمها بالنسبة إلى ما أعده الله في الآخرة لعباده من النعيم المقيم.

﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً﴾ أي افمن هو مؤمن مصدق بما وعده الله به على صالح الأعمال بالجنة ﴿فَهُوَ لاقيهِ﴾ فهو مدركه لا محالة، فإن الله لا يخلف الميعاد ﴿كَمَن مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ كمن متعناه بلذائذ الحياة الدنيا، ونسي العمل الصالح الذي أمرنا به عبادنا، وكفر وعمل سيئاً ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ أي يحضره الله يوم القيامة للعذاب في النار.

والاستفهام في مطلع الآية للإنكار، أي ليس حال المؤمن والكافر سواء فإن المؤمن المطيع لربه مصيره بأن يظفر بما وُعِدَ به من الجنة، والكافر الذي آثر الحياة الدنيا وترك طاعة الله فهو صائر إلى عذاب النار.

ثم ينتقل القرآن إلى تصوير حال المشركين وهم في موقف الحساب بين يدي الله يوم القيامة حيث يُوبَّخون على عقائدهم الباطلة:

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِم فَيَقُولُ: أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ. قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِم الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيانا يَعْبُدونَ. وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُم فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ كَانُوا يَهْتَدُونَ. وَيَوْمَ يُنَادِيهِم فَيقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرسَلِينَ. فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَساءَلُونَ. فَأَمَّا مَنْ تَابَ وآمَنَ وَعَمِلَ صَالحاً فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِن الْمفلِحِينَ﴾ (٦٢-٦٧).

فالله سبحانه يقول: ﴿وَيَوْمَ يُنادِيهِم فَيَقُول أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُم تَزْعُمُون﴾ أي واذكر - أيها النبي - يوم ينادي الله المشركين في موقف الحساب يوم القيامة يناديهم نداء توبيخ لهم: أين الآلهة التي كنتم تعبدونها في الحياة الدنيا وتزعمون أنها شريكة لله؟ ليدافعوا عنكم أو ليشفعوا بكم ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ قال الشياطين الذين ثبت عليهم غضب الله ووعيده ﴿رَبَّنَا هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا﴾ أي هؤلاء أتباعنا الذين أضللناهم عن سبيلك ﴿أَغْوَيناهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ أضللناهم كما ضللنا وهم ضلوا باختيارهم لا عن طريق القسر والإكراه ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ﴾ أي تبرأنا منهم ومما اختاروه من الكفر ﴿مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ أي لم يعبدونا نحن بل عبدوا أهواءهم وأطاعوا شهواتهم ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ وقيل للكفار استغيثوا بآلهتكم التي زعمتم أنها شريكة لله لينصروكم، قيل لهم ذلك على سبيل التهكم بهم ﴿فَدَعَوْهم﴾ أي فاستغاثوا بهم ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ فلم يجيبوهم ولم ينفعوهم في شيء ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُون﴾ أي أبصروا العذاب نازلاً بهم، وتمنوا لو كانوا مهتدين في الدنيا لَمّا رأوا العذاب في الآخرة. ﴿وَيَوْمَ يُنادِيهِم فَيَقُولُ: مَاذَا أَجَبْتُم الْمُرْسلين﴾ توبيخ آخر للمشركين، أي يوم ينادي الله المشركين أيضاً ويسألهم ماذا أجبتم رسلي

الذين أرسلناهم إليكم من دعائكم إلى توحيدنا والبراءة من عبادة الأوثان والأصنام ﴿فَعَمِيَت عَلَيْهِمُ الأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ﴾ والمراد بالأنباء: الحجج، أي خفيت عليهم الحجج فلم يدروا بما يحتجون لأنهم أُبلغوا رسالة الله إليهم في دنياهم فلم يهتدوا ﴿فَهُمْ لا يَتَسَاءَلُونَ﴾ فهم لا يسأل بعضهم بعضاً ولا ينطقون بحجة ولا يدرون عما يجيبون.

﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ﴾ فأما من تاب من الشرك بالله وأخلص له الألوهية ورجع عن ذنبه وصدّق برسول الله محمد ﴿وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ وعمل بما أمره الله بعمله في القرآن وعلى لسان رسوله محمد من الأعمال الصالحة ﴿فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ المفْلِحِينَ﴾ وعسى تفيد التحقيق على عادة الكرام والله أكرم الأكرمين. وقد تكون عسى للترجّي من قبل التائب وطمعه في رحمة الله بمعنى: فليتوقع التائب المؤمن الفوز برحمة الله.

وبعد توبيخ المشركين على عبادتهم آلهة لا تضر ولا تنفع يبيّن القرآن أن أمر العباد ومصيرهم بيد الله فهو الذي يختار لهم ما يشاء في حياتهم:

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالى عَمَّا يُشْرِكُونَ. وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ. وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَه إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ في الأُولى وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٦٨).

فالله سبحانه هو المنفرد بالخلق والاختيار ليس له في ذلك منازع وهو أعلم بوجوه الحكمة في اختياره، يختار للعباد ما هو خير لهم وأصلح وهو أعلم بمصالحهم من أنفسهم، ويختار للنبوة من يشاء من خلقه ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الخِيَرةُ﴾ ما: أي ليس لهم الاختيار على ما اختاره الله لهم، فاختيار الله فيه وجوه الحكمة لعباده والخير لهم واختيارهم لأنفسهم قد يسبب لهم الخسران.

ولهذا لا ينبغي لأحد أن يقدم على أمر من أمور الدنيا الهامة حتى يسأل الله الخيرة في ذلك، فقد روي عن النبي ﷺ أنه كان إذا أراد أمراً قال: «اللهم خِرْ لي واخترْ لي».

وروي عن جابر بن عبدالله أنه قال: كان النبي ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن يقول: «إذا همَّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين غير الفريضة ثم ليقل: اللهم إني استخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدِر وتعلم ولا أعلم وأنت علاّم الغيوب. اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر (ويسمى حاجته) خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاقدره لي ويسّره لي ثم بارك لي فيه. اللهم وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شرٌ لي في ديني ودنياي ومعاشي وعاقبة أمري فاصرفه عني واصرفني عنه واقدُر لي الخير حيث كان ثم رضّني به»[1].

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ وتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزّه الله عن أن ينازعه أحد في ملكه أو يشاركه في اختياره وحكمه أحد.

﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ والله يعلم ما تخفي صدور خلقه، كما يعلم ما يضمر المشركون من عداوة للنبي ﷺ ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وما يظهرونه على ألسنتهم من أقوال ﴿وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ وربك يا محمد هو المعبود الذي لا تصلح العبادة إلاّ له ﴿لَهُ الْحَمْدُ في الأُولى وَالآخِرَةِ﴾ له الثناء والشكر في الدنيا والأخرة على ما تفضّل به على عباده ﴿وَلَهُ الحُكْمُ﴾ وله القضاء النافذ يقضي بين عباده بما شاء من غير أن يشاركه أحد ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وإليه وحده مرجع الخلق حيث يبعثهم أحياء يوم القيامة ويجازي كل محسن بأحسانه وكل مسيء بإساءته.

---

(١) رواه البخاري.

ثم يبيّن القرآن بعض الأدلة والبراهين الدالة على عظمة الله وقدرته وفضله على الناس حيث جعل الليل والنهار يتعاقبان بهذا النظام المعهود.

﴿قُل أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ. قل أَرَأَيْتُم إن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أفلا تُبْصِرُونَ. وَمِنْ رَحْمَتِه جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ والنَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيه وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُم تَشْكُرُونَ﴾ (٧١-٧٣).

أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين بالله: أخبروني إن جعل الله عليكم الليل دائماً مستمراً إلى يوم القيامة: ﴿مَن إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكم بِضِيَاءٍ﴾ أي هل لكم إله من الآلهة التي تعبدونها يقدر على أن يرفع هذه الظلمة الدائمة عنكم بضياء ونور لتسعوْا فيه إلى معيشتكم وتبصروا فيه ما تحتاجون إليه، وتصلح به ثماركم، وتنمو به زروعكم، وترعى فيه أنعامكم ﴿أَفَلا تَسْمَعُونَ﴾ سماع فهم وتدبّر وتفكّر ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ﴾ أي قل لهم يا محمد أيضاً: أخبروني إن جعل الله عليكم النهار دائماً مستمرًا إلى يوم القيامة ﴿مَنْ إِلَه غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ أي من إله من الألهة التي تعبدونها غير الله يأتيكم بليل تستقرون فيه وتهدأون لراحة أبدانكم من التعب مما تزاولون من طلب المعاش والكسب. فسكون الليل من الضجيج والظلمة التي تخيم على كل شيء هما عاملان يساعدان على النوم العميق، ومهما نام الإنسان في نهاره فلا يعوّض تعبه ويريح أعصابه مثل نوم الليل، والنوم ضرورة حياتية لجميع الأحياء فكل مخلوق حي يفقد النوم أو نمنعه عنه لا يلبث عاجلاً أو آجلاً أن يموت ﴿أفلا تُبْصِرُونَ﴾ أفلا ترون بأبصاركم اختلاف الليل والنهار وما فيهما من رحمة للناس فتعلموا بذلك أن العبادة لا تصلح إلاّ لمن أنعم عليكم بذلك.

ومن الملفت للنظر أن القرآن قال فيما سبق تعقيباً على ذكر الليل ﴿أفلا تَسْمَعُونَ﴾ وهنا يقول تعقيباً على ذكر النهار ﴿أفَلا تُبْصِرُونَ﴾ وذلك أن السمع حاسة الليل والبصر حاسة النهار فتأمل دقة التعبير في القرآن.

﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ﴾ ومن مظاهر رحمته بكم أيها الناس أن خلق لكم الليل والنهار يتعاقبان بدقة ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ لتستريحوا بالليل من تعب الحياة ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ ولتلتمسوا رزق الله في النهار ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ولتشكروا الله على إنعامه عليكم بذلك بأنواع العبادات في الليل والنهار، ومن فاته شيء بالليل استدركه بالنهار، أو فاته بالنهار استدركه بالليل.

فاختلاف الليل والنهار هو من تأثير دوران الأرض حول محورها مقابل الشمس. ولنفرض أن الأرض ثابتة لا تدور لحدثت بذلك تغييرات جوهرية، منها استمرار الظلام في نصفها، واستمرار ضياء الشمس في نصفها الأخر المواجه للشمس، وبهذا ترتفع الحرارة في النصف المضاء ارتفاعاً لا يطاق، وتشتعل الحرائق في كل مكان ويتجمد النصف المظلم، ويصبح العيش على سطح الكرة الأرضية صعباً للغاية. أما نظام الأرض الحالي بدورانها حول محورها بهذه الدقة المعهودة فإنه يكفل تعاقب الليل والنهار ويتهيأ الجو الصالح لحياة الإنسان والحيوان والنبات، وهذا يدل على القصد ووجود قدرة إلٓهية حكيمة، وينفي ادّعاء الذين يقولون بقيام الكون على المصادفة والمادة العمياء، فالمصادفة والمادة العمياء لا تصنعان هذه الأرض المؤاتية للحياة القائمة على نهاية الحكمة.

وبعد بيان فضل الله على الناس يعود القرآن لتوبيخ المشركين على عبادتهم آلهة غير الله:

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ: أين شُرَكَائِيَ الَّذينَ كُنْتُم تَزْعُمُونَ. وَنَزَعْنَا مِنْ

كُلِّ أُمَّةٍ شَهيداً، فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ، فَعَلِمُوا أَنَّ الحقَّ لِلَّهِ، وَضَلَّ عَنْهُم مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٧٤-٧٥).

أي واذكر كذلك ـ أيها النبي ـ يوم يُنادَى المشركون من جانب الله تعالى نداء توبيخ فَيُقال لهم: أين شركائي من الأصنام وغيرها مما كنتم تزعمون أنها آلهة تنصركم أو تشفع لكم؟ وهذا تكرار لما سبق وتوبيخ إثر توبيخ لأنه لا شيء أجلب لغضب الله من الإشراك به، كما لا شيء أدخل في مرضاته من توحيده وإفراده بالعبادة ﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهيداً﴾ أي وأحضرنا من كل أمة شهيداً وهو رسول الله إليها يشهد عليها بما كان من أعمال لها في الدنيا وبما أجابته أمته ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُم﴾ أي هاتوا حجتكم على إشراككم بالله، فعند ذلك خرسوا عن إقامة البرهان ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الحقَّ لِلَّه﴾ فعلموا حينئذٍ أن لله الحجة البالغة عليهم وأن الحق لله في الألوهية لا يشاركه فيها أحد ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ وغاب عنهم وبطل ما كانوا يختلقون من الكذب في الدنيا بأن لله شركاء يستحقون العبادة.

۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ

شـرح المفـردات

شَهيداً: شاهداً.

مَفَاتِحَهُ: خزائنه.

لتنوء بالعصبة: ليثقل حملها على جماعة من الناس.

القرون: الأمم السابقة.

يُلقَاهَا: يوفق للعمل بها.

فئة: جماعة.

وَيْكَأَنَّ: ألم تر.

يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

شَرح المفردَات

يَبْسُط الرِّزْق: يوسعه.

وَيَقْدِر: يضيق.

لرادُّكَ إلى مَعادٍ: لمعيدك إلى مكة.

ظهيراً: مُعيناً.

يَصُدُّنَّكَ: يمنعك ويصرفك.

تـابع سُورَة القَصَص

ثم ينتقل بنا القرآن إلى الكلام عن قارون وما حلّ به من هلاك بسبب بطره وكبريائه واعتزازه بماله:

﴿إنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِم وآتَيْنَاهُ مِنَ الكُنُوزِ مَا إنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بالعُصْبَةِ أُولِي القُوَّةِ إذا قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الفَرِحِينَ. وابْتَغِ فِيمَا آتاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ولا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنَيا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ في الأَرْضِ إنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ المفْسِدِينَ﴾ (٧٦-٧٧).

فقارون كان من قوم موسى أي من بني إسرائيل. ويروى أنه كان ابن عم موسى ﴿فَبَغَى عَلَيْهِم﴾ أي تجاوز الحدّ في الكِبرياء والتجبّر والظلم على قومه، وسببُ هذا البغي هو كثرة ماله ﴿وآتَيْنَاه مِنَ الكُنُوزِ﴾ أي وأعطاه الله كثيراً من الأموال، والكنوز: جمع كنز وهو ما يجمع ويدخر من مال أو نحوه ويحفظ ﴿مَا إنَّ مَفَاتِحَهُ﴾ مفاتح جمع مِفتح وهو ما يفتح به. وقيل هي جمع مَفتح بفتح الميم وهي الخزائن في قول أكثر المفسرين ﴿لَتَنُوءُ بِالعُصْبَةِ أُولي القُوَّةِ﴾ أي أن خزائنه ليثقل ويعجز عن حملها جماعة أقوياء من الرجال، والعصبة ما بين العشرة إلى الأربعين رجلاً، وهذا يصوّر مدى ثرائه وغناه الفاحش ﴿إذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ﴾ إذ وعظه المؤمنون من قومه: لا تبطر بما أنت فيه ولا تكن من الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم ﴿إنَّ اللَّه لا يُحِبُّ الفَرِحينَ﴾ إن الله لا يحب الفرحين بأموالهم الذين يفخرون به على الناس ويتباهون به، لأن الفرح والتباهي به يؤذي عباد الله الذين لا يجدون الكفاف من العيش، كما أن الفرح والتباهي بالمال يجعل صاحبه حريصاً عليه بخيلاً به لا يؤدي حقه للمساكين.

وتابع المؤمنون وعظهم لقارون ﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة﴾

أي والتمس فيما آتاك الله من الأموال خيرات الآخرة بإنفاق مالك في سبيل الله، وفيما يرضيه من وجوه الإنفاق في طاعته وفي حاجات المحرومين من الناس ﴿ولا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا﴾ ولا تضيع حظك من دنياك مما أباح الله لك من الطيبات ووجوه الحلال في التمتع به من المآكل والمشارب والملابس والمسكن بدون إسراف ولا تبذير ولا مباهاة. أو بمعنى: لا تنس أن تعمل في دنياك لآخرتك بطاعة الله ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ وأحسن في الدنيا بإنفاق مالك الذي أعطاك الله إياه على عباد الله كما أحسن الله إليك بما أنعم بك عليك من نعم الدنيا ﴿وَلَا تَبْغِ الفَسَادَ في الأَرْضِ﴾ ولا تلتمس الإفساد في الأرض بإنفاق المال في غير وجهه وفي معاصي الله ﴿إنَّ الله لا يُحِبُّ الْمُفْسِدينَ﴾ إنَّ الله لا يحب الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون فيها.

ثم يذكر القرآن غرور قارون وإدعائه بأن غناه هو لفضل فيه على غيره:

﴿قَالَ إِنَّما أُوتيته عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَ لَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّه قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ القُرُونِ مَن هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً ولا يُسْأَل عَن ذُنُوبهم المجْرِمُونَ﴾ (٧٨).

لقد أجاب قارون الذين وعظوه: ﴿قَالَ إِنَّما أُوتيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدي﴾ أي لقد أُعطيتُ هذا المال استحقاقاً على علمي الذي طوّع لي جمعه، وقد حصلت عليه بجهدي الخاص ولولا رضا الله عني ومعرفته بفضلي ما أعطاني هذا المال.

فالقرآن يصف نفسية قارون ومنهج تفكيره بما ينطبق على أكثر الأغنياء البطرين في الأرض فلو أننا حاججنا غنيًّا من أمثال هؤلاء لما خرج قوله على قول قارون، ناسياً أن الله الذي له ملك السموات والأرض هو

الذي رزقه هذا المال وأن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويضيّق الرزق على من يشاء لا على سبيل استحقاق له أو رضا أو مقت منه ولكن على سبيل الامتحان والابتلاء ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ المجرِمُونَ﴾ ولا تسأل الملائكة عن ذنوب هؤلاء المجرمين الذين أهلكهم الله بسبب بطرهم وبغيهم في الأرض لأنهم يعرفون بسيماهم وهم يدخلون النار بغير حساب على أعمالهم.

ويتابع القرآن فيذكر بعض مظاهر البطر في قارون ونهايته التعيسة:

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُون الْحَياةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ . وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ. فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمنتَصِرِينَ. وَأَصْبَحَ الَّذِين تَمَنَّوْا مَكانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أن منَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الكَافِرُونَ﴾ (٧٩-٨٢).

فقارون خرج على قومه في موكب فخم وزينة عظيمة يحيط به خدمه الذين يمتطون الخيول المكسوة بالديباج ﴿قَالَ الَّذين يُرِيدُون الحَياةَ الدُّنْيَا﴾ أي قال الذين يريدون الحياة الدنيا وملذاتها وتفتنهم زينتها عند مرأى موكب قارون ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونَ﴾ تَمَنَّوا أن يكون لهم من المال والثراء مثل ما أعطي قارون ﴿إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ إن قارون لذو حظ كبير فيما أُعطي من مال ونعيم، هذا ما قالوه في أنفسهم وفيما تداولوا بينهم من كلام.

ولكن هناك أناساً لا تغرهم هذه المظاهر الخلابة لأن عندهم قيماً أخرى غير قيم المال وهم الذين ﴿أُوتُوا العِلْمَ﴾ وهم أحبارُ بني إسرائيل

المطلعون على كتاب الله ﴿وَقَالَ الذين أُوتُوا العِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ لقد قالوا للذين تمنوا أن يكونوا مثل قارون: ارتدعوا وانزجروا عن تمنياتكم هذه فثواب الله وجزاؤه في الآخرة خير مما أُعطي قارون من مال في الدنيا ﴿لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالحاً﴾ لمن صدّق بوحدانية الله وعمل صالح الأعمال مما أمر الله به ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إلاّ الصَّابِرُونَ﴾ ولا يوفق للعمل بها إلاّ الصابرون على طاعة الله الذين آثروا ما عند الله من جزيل الثواب على لذات الدنيا وشهواتها الزائلة ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدارِهِ الأَرْضَ﴾ أي جعل الله الأرض تغور به وبكنوزه وتغيبهم فيها ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فئة يَنْصُرونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فما كان له من جماعة من غير الله ينصرونه مما نزل به من عقاب الله له ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمنتَصِرينَ﴾ وما كان من الممتنعين من عذاب الله. ﴿وَأَصْبَحَ الَّذين تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ﴾ وأصبح الذين تمنّوا مكان قارون ومنزلته في الدنيا وغناه يقولون لما حلّ به الهلاك ﴿يَقولون: وَيْكَأَنَّ[1] اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ أي ألم ترَ أن الله يوسع الرزق لمن يشاء من عباده لا لفضل منزلته عنده، ويضيق الرزق على من يشاء من خلقه امتحاناً لهم وابتلاء ليظهر حقيقة إيمانهم ﴿لَوْلاَ أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا لَخَسفَ بِنَا﴾ أي لولا أن تفضّل الله علينا فصرف عنا ما كنا نتمناه بالأمس لكان مصيرنا مصير قارون وخسف بنا الأرض كما خسفها به ﴿وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الكَافِرون﴾ ألم تعلم أنه لا يفوز الكافرون في دنياهم وآخرتهم.

وبعد الكلام عن طغيان قارون وما حلّ به من سخط الله عليه يبين القرآن صفات الذين يشملهم الله بثوابه وأجره الجزيل يوم القيامة:

---

(١) ويكأن: بمعنى ألم يعلم، أو ألم تر، وقيل: إنهما كلمتان. وي بمعنى التندم أو التعجب ثم استأنف قوله: كأن.

﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِين لا يُرِيدون عُلُوًّا في الأَرْض وَلا فسَاداً والعَاقِبةُ لِلْمُتَّقِينَ. مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذين عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٨٣-٨٤).

أي فنعيم الآخرة يجعلها الله للذين لا يريدون تكبّراً ولا عُلوًّا في الأرض ولا تجبّراً ولا ظلماً للناس بغير الحق ولا عملاً بمعاصي الله التي تفسد الأرض. هذه هي القيم الخيِّرة التي أراد الله أن يغرسها في نفوس البشر لتصلح حياتهم وتستقيم بها أمورهم. فإذا تقصينا كل المشاكل التي تنتاب الإنسانية لرأيناها تنجم عن التكبّر والعلو في الأرض سواء في الأفراد أو الجماعات، وما منشأ الحروب المدمرة التي تقضي على الملايين إلاّ التكبُّر والعلو في الأرض من دول على دول أخرى. وما اجتاح الفساد أمة إلاّ قضى على كل مقومات الحضارة والخير فيها ﴿وَالعَاقِبَةُ لِلْمتَّقينَ﴾ والخاتمة الطيبة هي للمتقين الخائفين لله الذين اجتنبوا معاصي الله وأدوا فرائضه.

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ والحسنة المراد منها كلمة التوحيد ﴿لا إلَه إلَّا الله﴾ وفعل الخير وطاعة الله وأداء فرائضه، فمن جاء بالحسنة يوم القيامة فله منها خير وهو الجنة، وثواب الله خير من حسنة العبد، والله يضاعف الحسنة بعشر أمثالها ﴿وَمَنَ جَاءَ بالسَّيِّئةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيئَاتِ إلَّا مَاكَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ والسيئة ضد الحسنة وتشمل الشرك بالله والذنوب والفعلة القبيحة. فمن جاء بالسيئة يوم القيامة فلا يُجزى إلاّ بمثل ما عمل من سوء وهذا من عدالة الله وفضله على خلقه يضاعف لهم الحسنات ولا يضاعف لهم السيئات.

ثم يأتي ختام السورة وفيها تطمين لرسول الله ﷺ بإرجاعه إلى مكة مع توجيهات خاصة له وللمؤمنين بالتوجه إلى الله وحده وإفراده بالعبادة لأن

المصير إليه:

﴿إنَّ الذي فَرَضَ عَلَيْكَ القُرآنَ لَرَادُّكَ إلَى مَعَادٍ، قُلْ رَبِّي أعْلَمُ مَنْ جَاءَ بالهُدَى وَمَنْ هُوَ في ضَلَالٍ مُبينٍ. وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أنْ يُلْقَى إلَيْكَ الكِتَابُ إلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً للكَافِرِينَ. وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إذْ أُنْزِلَتْ إلَيْكَ وَادْعُ إلى رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ المشْرِكينَ. وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إلَهاً آخرَ لا إلَه إلَّا هُوَ كُلُّ شَيءٍ هَالِكٌ إلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٨٥ـ٨٨).

فالله سبحانه يقول: ﴿إنَّ الَّذي فَرَضَ عَلَيْكَ القُرآنَ﴾ أي إن الذي أنزل عليك القرآن يا محمد وفرض عليك تبليغه للناس والتمسك به ﴿لَرَادُّكَ إلَى مَعَادٍ﴾ والمعاد هو المكان الذي يعود إليه الإنسان. أي إن ربك يا محمد سيردك ويرجعك إلى مكة التي ولدت فيها وأُخرجت منها، وقد روي أن النبي ﷺ لما خرج من مكة فبلغ مكاناً يدعى «الجُحفة» اشتاق إلى مكة فأنزل عليه هذه الأية. وهذا من الأنباء الغيبية التي أعلنها القرآن وتحققت بعد فترة وجيزة حيث رجع النبي إلى مكة مظفراً بعد أن أخرجه قومه منها.

﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين: ربي أعلم من جاء بالهدى الذي من سلكه نجا ﴿وَمَنْ هُوَ في ضَلالٍ مُبينٍ﴾ ومن هو واقع في الضلال الواضح الظاهر الذي يدركه كل ذي عقل سليم ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أن يُلْقَى إلَيْكَ الكِتَابُ﴾ وما كنت يا محمد تأمل وتنتظر ان ينزَّل عليك القرآن ﴿إلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ ولكن الله أنزله عليك من عنده رحمة بك وبأمتك وبالناس أجمعين. هذه الآيات تدل على عدم تطلع محمد إلى النبوة، ولقد كان من حوله كثير من العرب ومن بني إسرائيل يتطلعون بأن يخصهم الله بنبوته، كما أن هذه الآيات تعلن عن

مصدرها الإلّهي وعن صدق نبوة محمد، فلو كان محمد مدّع للنبوة كما يدّعي أعداؤه والمغرضون لما أعلن هذه الحقيقة بهذه الصراحة وهذا التجرّد من كل طمع في النبوة.

ثم يأتي الأمر الإلّهي لمحمد ﷺ: ﴿فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾ أي فلا تكن أنت ولا من اتبعك عوناً للكافرين على كفرهم بربك بمداراتهم ﴿ولا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَت إِلَيْكَ﴾ ولا يصرفنك يا محمد هؤلاء الكفار بأذاهم عن تبليغ آيات القرآن والعمل بها بعد أن نزل الوحي عليك من الله ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ وادعُ إلى عبادة الله وحده وسلوك سبيله ﴿ولا تَكُونَنَّ مِنَ المُشْرِكِينَ﴾ أي بمسايرتهم على أهوائهم، فإن من رضي بطريقتهم كان منهم، وهذا الأمر للنبي ﷺ تعريض بغيره لأنه لا يكون من المشركين بحال من الأحوال ﴿وَلا تَدْعُ مَعَ الله إِلَهاً آخَرَ﴾ ولا تعبد يا محمد مع الله معبوداً آخر سواه ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ لا معبود تصلح له العبادة ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ كل شيء هالك إلاّ هو، والوجه يعبر به عن الذات، فكل شيء زائل: المال، والجاه، والسلطان والقوة، وهذه الأرض ومن عليها، وهذا الكون كله ما نعلمه منه ونجهله، نعم كل ذلك هالك فلا يبقى إلاّ وجه الله الكريم متفرداً بالبقاء. وقد يراد بمعنى الآية: كل عمل هو باطل إذا لم يقصد به وجه الله، وهذه دعوة باجتناب الرياء والعمل لأجل السمعة بين الناس لا لطلب رضوان الله ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾ له سبحانه القضاء النافذ بين خلقه في الدنيا والآخرة لا يشاركه في حكمه أحد ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وإليه تُردون بعد مماتكم فيقضي بينكم بالعدل إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

الفهرس

من المراجع

تفسير الطبري لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري.
الجامع لأحكام القرآن للقرطبي.
التفسير الكبير للفخر الرازي.
تفسير أبي السعود لأبي السعود محمد العمادي.
تفسير القرآن العظيم لابن كثير.
فتح القدير لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني.
تفسير البحر المحيط لأبي حيّان الأندلسي.
روح المعاني للألوسي.
تفسير المراغي للشيخ أحمد مصطفى المراغي.
صفوة البيان لمعاني القرآن للشيخ حسين مخلوف.
المنتخب في تفسير القرآن ـ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ القاهرة.
في ظلال القرآن للأستاذ سيّد قطب.
تفسير القرآن للأساتذة محمود حمزة وحسن علوان ومحمد برانق.
المفردات في غريب القرآن للراغب الأصبهاني.
صفوة التفاسير للشيخ محمد علي الصابوني.



الموزعون الوحيدون:
دار العلم للملايين
بيروت - لبنان - ص ب ١٠٨٥